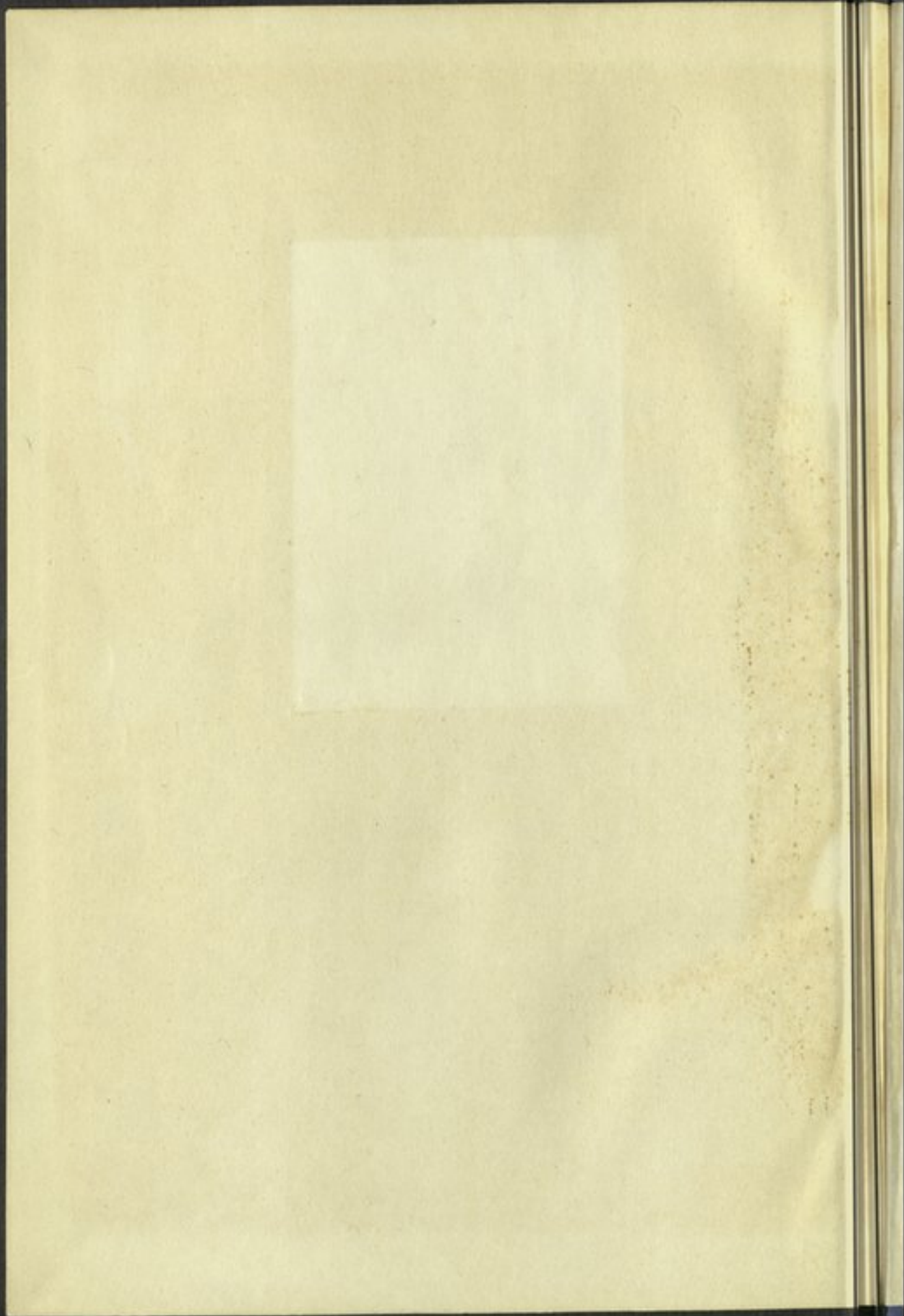
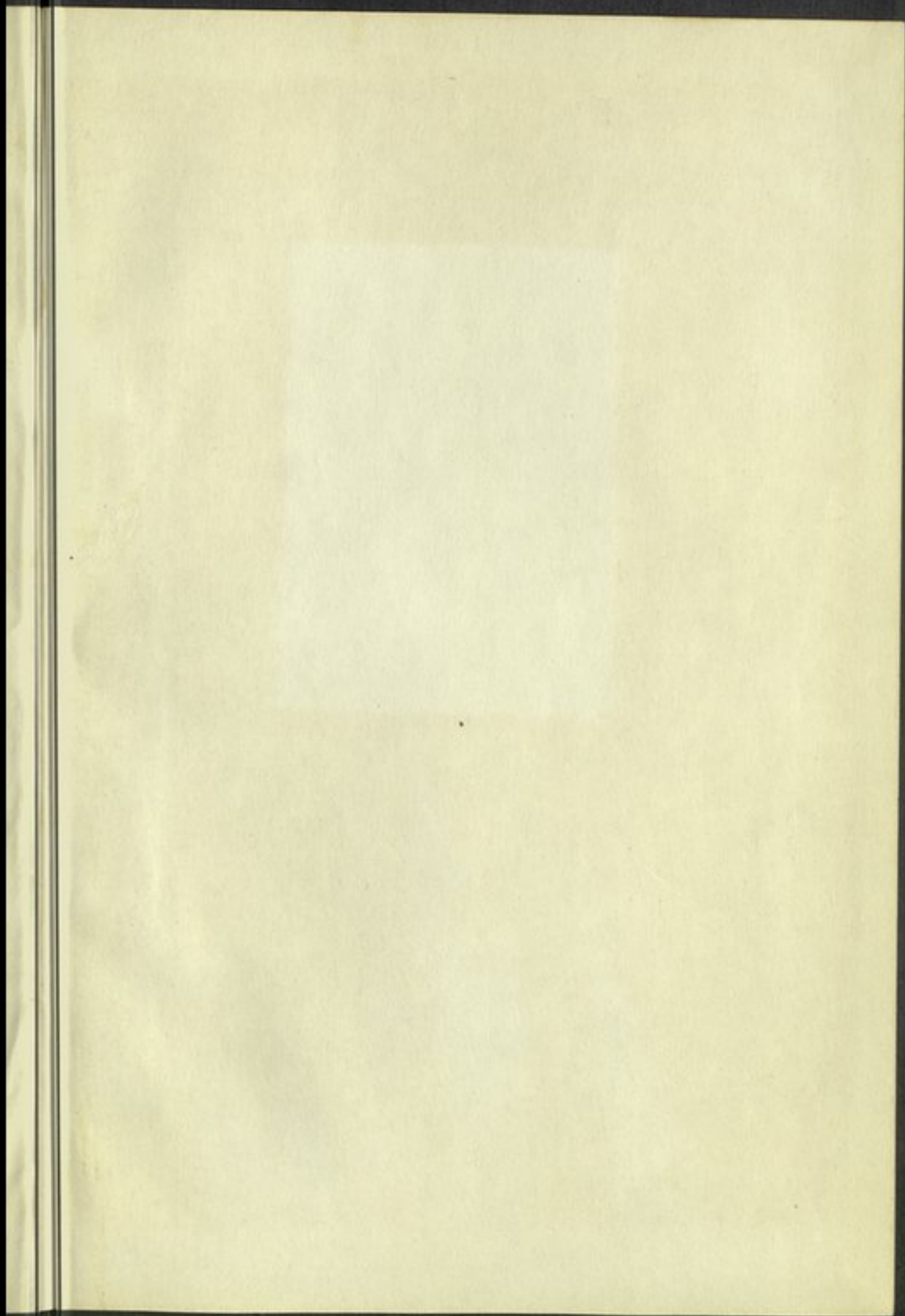


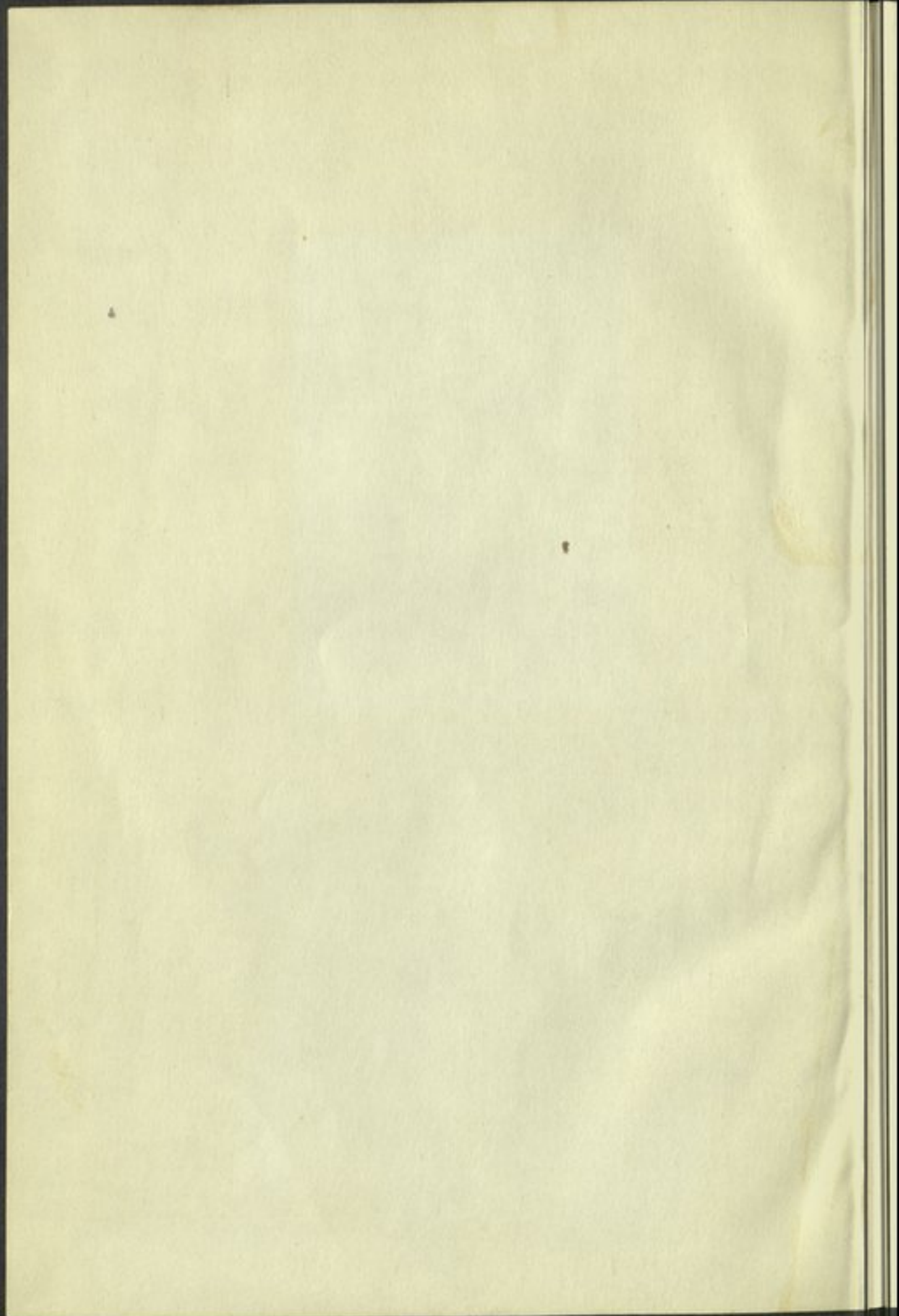


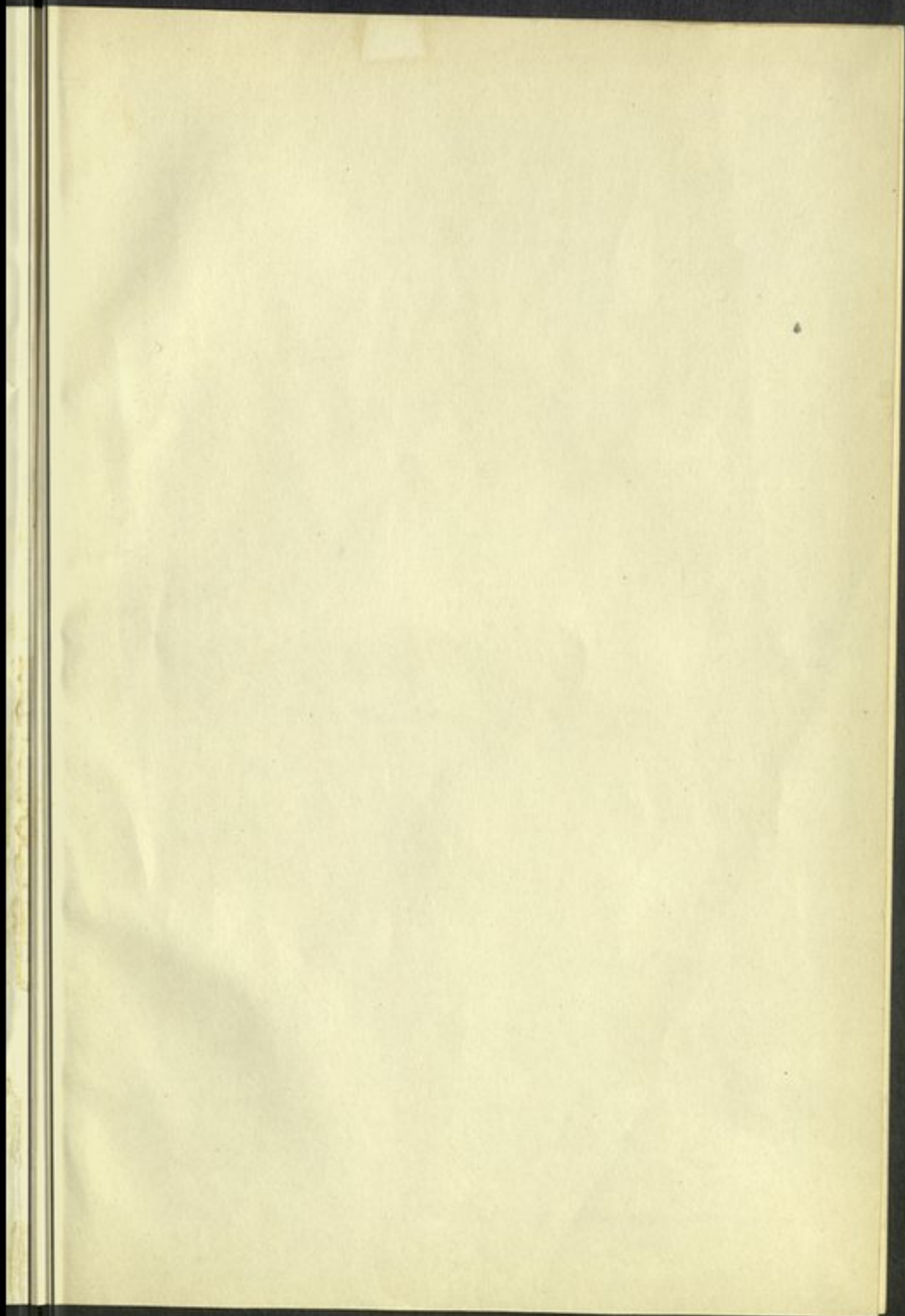
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT













809
R162FA
من الشرق والغرب

809
R162FA
c. 1

فصول مقارنة

بين أدبي الشرق والغرب

للكاتب جمال الدين الرمادي



مذكرة

بموجب

بموجب



مقدمة

هذه دراسات مقارنة بين أدبي الشرق والغرب ، وفصول منها في هذا الكتاب الذي أرجو أن يلقي قبولا حسنا لدى القراء ، إذ انه لون جديد من البحث والمقارنة حتى نستطيع ان نتبين مكانة أدبنا بين الآداب الغربية، ونقارن بين المذاهب المختلفة التي طرقتها الأدباء والشعراء في الشرق والغرب ، كما تناولت فيه جهود علماء الغرب في الشرق ، واثر علماء الشرق في الغرب .

والكتاب يضم فصولا في الاجتماع فضلا عن فصول الأدب ، غير ان الاطار الذي تترأى فيه هذه الفصول هو اطار المقارنة بين الشرق والغرب ، حتى يمكن تحديد مكانة العرب في المجتمع البشرى كله .

ولقد كان النقاد يعتقدون ولا يزالون يعتقدون حتى الآن ان انجح الوسائل لتوضيح مكانة الادب هي مقارنته بالآداب الأخرى ، وحينئذ تتجلى قيمته ، وتتضح لنا مكانته .

هذا هو هدفي من هذا الكتاب ، لهذا جعلته زاخرا بالمقارنات ، حافلا بالمساجلات لنعرف مالنا وما علينا .

وقد قامت الجامعات في اوربا بتخصيص كراسي الأستاذية للأدب المقارن ونهض كليمان وفيلاريت شاسل ، وبنلو ، وتكست بتدريس هذا الأدب في فرنسا وانجلترا ، كما قام دي سانكييتس بتدريسه في نابلي وارنوروجراف بتدريسه في تورين ومارك مونييه بتدريسه في جنيف ، وكانت الدروس الافتتاحية لهذه المحاضرات لا تقتصر على الجامعات فحسب ، بل كانت تنشر في الصحف والمجلات ، وظهرت عقب ذلك - الدراسات التفصيلية والقوائم الاجمالية والكتب الوافية ورسائل الدكتوراه في هذا الأدب .

ولم تكن هناك دراسة اجتماعية تخلو من هذا اللون من المقارنات. والدراسة المقارنة تدرس في الغالب عن طريق علاقات ثنائية اي علاقات بين عنصرين فحسب سواء كان هذان العنصران كتابين أو كاتبين أو طائفتين من الكتب أو الكتاب أو اديبين كاملين أو وضعين اجتماعيين متشابهين .

والله اسأل ان يجعل هذا الكتاب يحقق هدفه وعلى الله التوفيق.



Titel

Faint, mostly illegible text in German, appearing to be a handwritten title or description of a manuscript. The text is arranged in several paragraphs and is significantly faded and blurry.

حديث في الشتاء بين الشرق والغرب

نظم الشعراء العرب الشعر في الفصول جميعا ، ولكنهم وجهوا جل اهتمامهم الى الربيع ولم يفز الخريف ولا الشتاء الا بقسط ضئيل . . . ولكننا سنحاول في هذا الحديث أن نعرض لما ذكره العرب في الشتاء فقد قيل : انه في يوم ٢١ من ديسمبر تكون أشعة الشمس عمودية على درجة عرض ٢٣١/٢ جنوب خط الاستواء او على مدار الجدي بتعبير أدق ، فيحدث الانقلاب الشتوي ، وفي الشتاء يشتد البرد ، ويخشن الهواء ، وتتساقط أوراق الشجر ، وتدخل الحيوانات الى الجحور ، ويظلم الجو وتصير الدنيا كأنها عجوز هرمة قد دنا منها الموت .

والشتاء كما تعرف موسم النشاط والحركة والعمل المتصل الذي لا يعرف التواني ولا الكسل ، ففيه ينفذ اغلب المشروعات وأكثر الرغبات وهو يختلف بين قطر وقطر وبين أرض وأرض ، ولكنه عند الاوربيين يتخذ طابعا جميلا ، فالصقيع يتساقط ، والجليد يغمر الأرض كأنه مرآة ناصعة ، والطبيعة ساحرة فاتنة برغم عبوسها وظلمتها وبرغم أن الشمس لا تشرق على تلك الاماكن الا لماما ، وأن الشتاء يعقل الاحياء في ديارهم ، ويمنع الاحباب من مزارهم في بعض الأحيان ، ويدفعهم الى ترك المغاني التي كانوا يأنسون بها ، ويتجمعون فيها ، ويسكنون اليها .

وقد كان شعور العرب منذ العصر الجاهلي نحو الشتاء شعورا حسنا جميلا ، فهو الذي كان يجمعهم حول النار يتجادبون اطراف الحديث ويتطارحون فنون الكلام ، وهو الذي يجعلهم يقنون ويرقصون ويهرجون ويعطربون حول هذه النار . وهو الذي يدفعهم الى السخاء والكرم والجود ، وفي هذا يقول شاعرهم :

نحن في المشتاة ندمر الجفلى لا ترى الادب فينا ينتقر

فهم يدعون في الشتاء الناس الى موائدهم ومجالسهم ، وهم ينتهزون هذه الفرصة ليظهروا كرمهم وسخاءهم وجودهم ، ولقد ظل هذا الشعور نحو الشتاء ماثلا في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي والعصر الاسلامي حتى العصر الحديث .

ففضل الشتاء اذن عند العرب فصل الجود والكرم وفصل السخاء والوفاء وقد وصف بعض شعرائهم برودته وزمهريره ، وقال بعض

الادباء : ان له برودة تغير الالوان وتكشف الابدان وتجفف الريق في
الاشداق والدمع في الاماق ، وهو الذي يحول بين الكلب وهريره
والاسد وزئيره والظير وصفيره والماء وخريره وقال ابن المعتز :

قد منع الماء من اللمس وامكن الجمر من المس
فليس تلقى غير ذي رعدة ومسلم يسجد للشمس

والواقع اننا اذا ما اردنا ان نتلمس بعض الصور الفنية والأدبية
التي قبلت في الشتاء وجدناها صورا طريفة حقا غريبة حقا :

فهذا شاعر يدعو شاعرا ان يحرك عودا ويحرق عودا ، يحرك عودا
لسماع اشجى الانغام واعذب الالحان ، ويحرق عودا ليستمتع بالدفء
وينعم بالهناء

وهذا شاعر غيره وهو أبو سعيد المخزومي يعرض علينا صورا عن
الشتاء اكبر الظن اننا لمسناها في حياتنا العامة كثيرا ، وتمثلت أمام
عيوننا جميعا فيقول :

اذا كنت في بلدة نازلا وحل الشتاء حول المقيم
فلا تبرزن الى ان ترى من الصحو يوما صحيح الاديم
فكم زلقة في حواشي الطريق ترد الثياب بخزى عظيم

وهكذا وجدنا الشعراء العرب يعتبرون الشتاء فصل الجود والكرم
كما يعتبرونه فصل البرد القارس والزمهرير الشديد والذي تأخذ فيه
الطبيعة صورا جديدة لم يألها العرب من قبل .

والشتاء في بلاد العرب فصل قصير الابد وامد واحساس شعراء العرب
بالحر ورمضاء الصحراء أكثر من شعورهم ببرد الشتاء .

ونحن اذا ما اردنا ان نقارن بين موقف الشعراء العرب وموقف
شعراء الفرنجة استطعنا ان نقول : ان شعراء الفرنجة كانوا أشد احساسا
واعمق شعورا من الشعراء العرب بالنسبة للشتاء للأسباب الجغرافية
المعروفة : فالشتاء عند الفرنجة فصل طويل الابد ، والشمس لا تشرق
فيه الا لاما ، والشمس زائرة في القرب على عكس الحال في الشرق ، فهي
محركة شديدة الوقدة .

والشعراء الفرنجة يجتمعون في الشتاء على النحو الذي يفعله
الشعراء العرب الا أنهم يكثرون من الحديث عن المدفأة مثل الشاعر
الانجليزى شيللى والشاعر الفرنسى فرانسوا كوبيه الذي قال : في المساء
في حمى المدفأة .

فكرت عدة مرات في صوت عصفور

كان يفرد بين الغاف الغابية في ايام الشتاء

ذات الاوقات الناعسة والروح الخاملة

وكانت الأعشاب المهجورة

تميل بهاماتها في عرض الغناء

تحت القبة الساكنة للسماء

اواه ! كم تمنى العاصف ان يبقى الشتاء .

فالشاعر الفرنسي فرانسوا كوبيه في هذه القطعة يصور جالسته في حمى المدفأة في الشتاء ويصور مشاعر الطيور الشاردة في الفضاء ، وكذلك كان يفعل الشاعر الانجليزي المشهور وليم شكسبير من قبل ، اذ صور شكسبير في احدى مقطوعاته موقفه مع صاحبتة حين قال :

ما اشبه فراقى عنك بفصل الشتاء

ولت مسراتي مع سنتي الهاربة

فكم لظلمات قارسة احس بها

واى جذب لديسمبر العتيد في كل مكان

وهكذا كان الشتاء مليها لشعراء العرب والفرنجة ، ولم يكن الالهام مقصورا على فصل الربيع وهو فصل الخضرة والنضرة والبهاء ، انما كان ممتدا الى الفصول جميعا ، ولكنه ظهر في كل فصل بطابعه الخاص وسماته المميزة .

فاذا كان الربيع تحدث الشعراء عن الازهار اليانعة والاوراق المورقة والاطيار الصادحة والطبيعة الباسمة والامال المتفتحة ومفاني الحب والهوى ومواطن الجمال وتباريح الود والجوى .

واذا كان الخريف تحدث الشعراء عن الاوراق الذابلة والازهار المصوحة والامال النائية والاحلام الضائعة .

واذا كان الصيف تحدث الشعراء عن الحر اللافت والقيظ الشديد والبحر والشاطئ والغيد الحسان والكواعب الملاح ، وتحدث الشعراء عن المدفأة والنار والدخان والاحلام والامال المكبوتة والاماني المكتومة والنفس المحترقة وقد قال ابو تمام :

ضربت الشتاء في اخدعيه ضربا غادرته عودا ركوبا

وكان ابن المعتز يعيب على ابي تمام هذه الصورة ويقول في كتابه « البديع » انها من الاستعارات الرديئة التي استخدمها ابو تمام .

وقد تآثر الشاعر الانجليزي المعروف بيرس شيللي بالشتاء فنظم قصيدة من درر قصائده في الشتاء جاء فيها :

جثم الطائر ينتحب على حبيبه الراحل

فوق فنن رطيب

وكانت الريح الباردة تزحف في الاعالي

والجدول المتجمد يرسخ في الوادي

ولم تكن هنالك ورقة في الغابة العارية

ولا زهرة منشورة فوق الأديم
ولم تكن هناك حركة للهواء
إلا جمعجة عجلة الطاحون تدوى في الفضاء
فهذه صورة طريفة من الأدب الغربي يمكن أن تقارنها بصورة
أخرى شرقية كقول الشاعر العربي :

حتى إذا ما أقبل الشتاء
جاءتك منه غمة عمياء
لو أنه روح لكان قدما
أو أنه شخص لكان جهما
يا تبيك في أيامه رياح
ليس على لاعنها جناح
حراكها ليس إلا سكونا
تضرب الأسماع والعيونا
يحدث من أفعالها الزكام
هذا إذا ما فأنك الصدام
ثم يا تبيك مطر مداوم
كانه خصم لنا ملازم

هذه صور جميلة من الشتاء في الآداب وهي صور باهرة مجلوة
في معارض الجمال والخيال بديعة المناظر حلوة الأطارات .
وهكذا كانت فصول الطبيعة دائما وأبدا وحيا موحيا والهاما ملهما
للادباء والشعراء والفنانين على مر العصور وتوالى الأيام .

الخريف فى الأدب الانجليزى

قسم كثير من نقاد الأدب الانجليزى وغيره من الآداب الاجنبية الطبيعة
تسمين : طبيعة هامة وطبيعة حية ، والطبيعة الهامة كل ما فى السماء
والارض مما ليس له روح وليس له قلب يخفق وعرق ينض . فزهرة
السوسن طبيعة هامة وشجرة اللبلاب ودوحة البلوط طبيعة
هامة والبحر والنهر والفدبر طبيعة هامة والربيع والخريف
والصيف والشتاء طبيعة هامة اما الطبيعة الحية فتشمل
الحيوان المستانس والطير الأليف وغير الأليف . . . وكل موجود ذى روح
سواء كان مما يعيش على الأرض ويطعم من رزقها . . . وبأكل من
حشائشها أو كان من نسج الخيال ، ووهم الاساطير . . .

فنظرة الشعراء الى الخريف اذن كانت على انه اثر من آثار الطبيعة
الهامة ومظهر من مظاهر الحياة الطبيعية وقد اختلف الشعراء فى
احساسهم به :

فمنهم من يحس الطبيعة احساسا عميقا جارفا يخالط دمه
ويمزج روحه . . . ويسرى فى أعصابه فاذا بحواسه متنبهة ، واذا
بمشاعره متيقظة . . . فلا تفوته حركة عصفور ولا هديل حمام ولا تغريد
طائر ، ولا يفوته مذاق تفاحة ، ولا عبير زهرة ، ولا نامة ولا نهمة
ولا حركة ، ولا سكنة . . .

ومنهم من يمزج العواطف بنفسه ويسكب على الطبيعة افراحه
ومزاحه . . وأشجانه . . واتراحه . . .

ومنهم من يصور الناس بين اكناف الطبيعة متنعمين بخيراتنا . .
متنعمين بأفضالها بين جدول جار ، ونهر عذب سلسال ، ويخرج من
ذلك بحكمة الهية . . ونزعة صوفية تمتلك نفسه امتلاكا وتستحوذ
على روحه استحوادا . . .

بهذه العواطف المتباينة وبهذه المشاعر المتفاوتة يستقبل الشعراء
والكتاب فى الأدب الانجليزى الخريف ولا يزالون يستقبلونه حتى اليوم
. . . . فهو مبعث الهام كثير منهم ومهبط وحيهم . . . ومنبع أفكارهم
. . . وملاذ خواطرهم .

وقد رمز بعض الشعراء الى الخريف بالشيخوخة كما رمزوا الى
الربيع بصفوان العمر وشرح الشباب ، ورمزوا الى الأمل بالخضرة
والى الحب بالوردة والى العفة والظهر باللون الأبيض الجميل .

ولقد استهوت صفرة الشمس في الخريف وقلّة الضوء وخفوت
النور ... وذبول الزهر ونضوج العشب وتساقط الاوراق الجافة على
الارض ... واوبة الاطيار الى الأوكار .. والضواري الى الأوجار ...
والناس الى الديار ... استهوى ذلك كله في الخريف انظار الكتاب
والشعراء فاذا بأماهم تصفر وتشعب ... ويخيم عليها ظلام مقبت
وكآبة موجعة ... واذا بأحلامهم تدبل وتدوى وتتبعثر على الارض
وتذروها يد الريح في وجه الفضاء ... واذا بهم ينظمون القصائد
الرقية والمقطوعات العذبة الجميلة التي تنضح رقة وجمالا ... وتقطر
لوعة ودموعا على العمر الداهب ، والشباب الغائب ، والخريف المنصرم
الذي لا يحمل شيئا ولا يبقى على شيء .

وكان شعر الشعراء في الخريف في العصر الكلاسيكي تقليدا ...
وتمثيلا لشعراء اليونان والرومان مثل ثيوفريطس اليوناني احد ادباء
الاسكندرية القدماء ومن الذين وضعوا اساس الشعر الريفى ، وفرجيل
الرومانى الذى نظم اغاني الرعاة فكتب لها الخلود ... وترنم بها فغر
الزمان ...

والملاحظ في ادب الخريف وغيره من شعر الفصول في العصر
الكلاسيكي انه ممزوج بذكر آلهة الطبيعة وارباب الخصب والجمال
واساطير الاغريق والرومان : فعروس الجمال (اكو) بارعة الجمال تفرم
يشاب وسيم الطلعة جميل الشكل يسمى (ناريس) او النرجس
فتغازله وتشرع في ملاطفته ولكنها لا تستطيع من ذلك شيئا ولا تجد
الى ذلك سبيلا لانها فقدت المرونة في الكلام والقدرة على التعبير ، واتى
عليها الخريف فدوت كما تدوى الزهرة ولم يبق لها الا الصوت الذى
لقتنها اياه آلهة القمر .

وقد كتب ادمند سينسر في القرن السادس عشر تقويم الراعى
وهو قصيدة طويلة تشتمل على شهور السنة جميعا . وقد خص شهور
الخريف بكثير من روائع وصفه وبدائع قصصه ، فدعم بذلك الأدب
الريفى في انجلترا الذى ازدهر في ايطاليا على يد (بترارك) وفي فرنسا
على يد (دوديه) .

وتستهل قصيدة تقويم الراعى بنشيد حزين او اغنية متاوهة
ينشدها كولون كلوت في شهر يناير ليشكو حبيبته روزالند ، ثم يتلو
شهر يناير شهر فبراير حيث يقص علينا سينسر قصة السندبانة
والعوسج حتى اذا ما وصل الى شهر اغسطس تحدث سينسر عن الفناء
والطرب والايقاع والابداع ، وشكا في سبتمبر نوم القساوسة في الكنيسة
الرومانية حتى اذا ما وصل سينسر الى شهر اكتوبر عاد الى اناشيد
الرعاة ، وظل بين انغامها حتى يتم الحول وينتهى العام . ومثله في ذلك
كله - كما يقول وليم وردزورث - مثل القمر يشق طريقه في السماء
الفائمة في ثقة وخطوات وثيدة .

ومن الشعراء الذين مجدوا الخريف الشاعر الانجليزى الكسندروبوب
في نهاية القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر .

وقد أنشد قصائده عن الخريف والربيع والصيف والشتاء وهو في العشرين من عمره بعد ما أنشد وهو في الخامسة عشرة من عمره ملحمة شعرية ضمنها كثيرا من خواطره وافكاره واحلامه واوهامه في هذه السن ولم يلبث ان مزقها وقدمها غداء للنار .

والواقع ان شعر بوب في الخريف لا يخلو من روعة وجمال وقد كتبه على نسق الشعاع الرومانى فرجيل ، غير ان الصنعة ظهرت في أسلوبه في كثير من المواضع ظهورا واضحا .. متعمدا ، فهو يهتم بمتانة التراكيب ، و بانتقاء الالفاظ .. واختيار التعابير كما يهتم بالانسجام والانسجام .. والاصباغ والالوان . وهذا الاهتمام قد يقلقه ويؤرقه في بعض الاحيان .. فاذا بأسلوبه باهت شاحب لا اثر عايه من جمال .. ولا مظهر عليه من حسن . واذا ببوب نفسه لا يدوق من اجل ذلك النوم الا غرارا .. واذا هو يجلس في بستانه .. أو يسير بين المروج أو على ضفة جدول أو غدير . ينظم قلائد أسلوبه .. ويحوك طراز شعره .. لا يكاد يدرك أو يعي ماحوله .. ومن حوله من الاحياء والاشياء ..

وكتب جيمس تومسون James Thomson قصيدته في الخريف وهو في الرابعة والستين من عمره في القرن الثامن وتشيع بين قصيدة تومسون برغم ما بها من وصف دقيق لمظاهر الطبيعة رنة حزن عميقة وصدى شجن دفين ، ولعل هذا يرجع الى ان تومسون كان ميالا الى الحزن والتشاؤم مسرفا في اليأس والقنوط .. فقد حبيبته أنضرت ماتكون شبابا وأروع ماتكون جمالا واخلم ماتكون فتنة وهو يحمل لها بين جوانحه الحب العميق .. والهيام الشديد .. وفقد أخاه الذى كان صفيه ومعينه على صروف الزمان .

وبرغم هذا الحزن وهذا الالم الذى يشيع في شعر تومسون نجد في قصيدة الخريف نزعة جارفة نحو الطبيعة ووداعا صادقا حارا للتعلق بأهدابها ولوعة مفرطة خالصة على تغيرها وامحالتها ، وقد نفى تومسون بهذه القصيدة مازعمه الكسندر بوب من قبل وهو ان ما يجب ان يدرسه الانسان هو الانسان ! ..

والخريف المثقل بالثمرات الشهية والخيرات الناضجة اشبه شيء في عين تومسون بالرجل الذى أثقلته الخبرة وحنكته التجارب وربته الحياة ، اسمعه يقول :

عندما ينشر الخريف اشعته المتفرقة

التي يندرها مقدم الشتاء

تمرح الخيرات في آفاق رحبية

وتلتف بين جنبات السماء الساكنة

وينساب تيار الماء هادئا رقيقا

قبل ان يحين الشتاء ..

وتشيع الجلبة والضوضاء في الضفة الآمنة

ايه أيتها الطبيعة التى تزخر بكل شيء !

امنحني بعضا من اسرارك الخفية
 واجدبيني الى السماء .. الى هذا العالم اللانهائي
 ودعيني ارقد بجوار الجدول الخفيض واناغى احلامي
 فمنك تبدأ وفيك تعيش واليك تنتهي انغامي !
 ثم تأمله مرة ثانية وهو يخاطب الخريف :
 يا فضلا يجثم فيه الضباب وينضج الثمر
 يا صديقا حميما للشمس التي تهب الازهار والحياة والاشراق
 كأنما دبرت مع الشمس مصير الكروم التي تغطي السقوف
 واتفقت معها لتفمرها بالثمر والخير والبركات
 كما اتفقتما ان تثقلا بالتفاح اشجار الكوخ
 التي يفشى جذوعها نبات الطحلب
 وتحمل النضج الى لباب الفاكهة الجميلة
 من ذا الذي لم يرك يا خريف بين خزائن محصولاتك
 وشعرك تعبت به الريح حتى اوشكت ان تدرره
 اين انغام الربيع ... اين ؟
 دع عنك انغام الربيع فلك يا خريف انغامك !

وعندما قامت الحركة الرومانتيكية في انجلترا ، وقدمت الالتر
 الرومانتيكي او الفن الذي يحدث اكبر متعة ممكنة للشعوب على حد
 تعبير ستندال Stendhal لم يفغل الشعراء ولا الكتاب الاصول
 القديمة في الادب الريفى ، ولكنهم أصبحوا افرادا يعبرون عن ذواتهم
 بأدق معاني هذا اللفظ ولم يسجل الشاعر منهم الا تجربته الفردية ..
 ومشاعره الذاتية .. وخلجات حسه ونبضات شعوره دون ان يعبا
 بالمجتمع ولا بأوضاع المجتمع .. ودون ان يرى الا قلبه على حد تعبير
 مايشو ارنولد ولا ينعكس الا على « الأنا » كما يقول علماء النفس وهي
 التي تحركه كيفما هوت وحيثما شاءت .

واذا كان جيمس تومسون رجلا متشائما حزينا فان لورد بيرون
 كان كما يقول اميل فاجيه Emil Faguet أقوى من ساهم في وضع
 نموذج للرجل الرومانتيكي او « الرجل المكتئب الجبرى » اسمه
 يقول : -

لقد طفقت يد الحاصد

- تحصد الثبت الرمادى الناضج ..
- والكن صوت النامى ..
- أخذ ينتحب على الشباب الداهب ..
- واقبل الخريف فى اندفاع
- يحمل بين طياته الاوراق الجفاف ..

ولكن زهرة حبنا لا تزال يانعة الاشرار
برغم دنو شبح الجفاف الذريع ..
وكقطرة النداء فوق الجبل ..
وكزبدة الامواج بين البحر ..
وكانبثاق الماء بين المعين الدفاق ..
ولى شبابي الى الأبد ..

والى جانب لورد بيرون يقف الشاعر الحالم بيرس شيللى وقصيدته
الحالة « زكا » التى استهلها بقوله :

« مات الصيف واخولق الخريف يتنفس » وفى فقرة اخرى
يقول : « مات الصيف وعشت انا لآبكي وأغرق فى بلبلة من النحيب »

والى جانب هؤلاء جميعا يقف شاعر الحب والجمال جون كيتس
John Keats الذى بهرته مجالى الطبيعة واستهوته مفانن الخريف
فكتب بعض القصائد العذبة بتفننى بوجهه الجميل وطلعت الساحة .

الصيف

في الأدب الانجليزي

الفرق في الحديث بين الربيع والصيف كالفرق بين الطبيعة المزخرفة ذات الزهر المتفتح واورد المتألق والمروج الخضراء وبين الطبيعة السافرة المجلوة التي تبدى كما خلقها الخلاق العظيم .

فصل الصيف فصل الحرية والانطلاق ، وسماء الصيف ناصعة لا يعمرها سحب ولا يطمسها ضباب ، وارض الصيف واضحة لا يفرقها مطر ولا يعرقها ثلج ولا برد، ووجه الصيف فرحة مستبشرة تستقبل النور والضياء، وتستمتع برحن الهواء لا يكباها قيد ولا يسترها حجاب .

وإذا كان الجغرافيون والفلكيون يقولون ان الفصول أربعة : الصيف والخريف والشتاء والربيع ، فاننا لانكاد نميز هذه الفصول في مصر تمييزا ظاهرا ، انما نجدتها تختلط اختلاطا وتمتزج امتزاجا ليس بينها الا فروق ضئيلة تزداد كلما دنونا من الصيف أو قربنا من الشتاء .

أما في أوروبا بوجه عام وفي إنجلترا بوجه خاص فان الامر يختلف عن مصر كثيرا : فالفصول واضحة ظاهرة ، والشتاء شديد البرودة ممتد الجليد غزير المطر ، والصيف معتدل جميل ، ولذلك كان احتفال الشعراء والادباء من الانجليز بالصيف عظيما كما كان احتفالهم بالشتاء عظيما كذلك .

وقد اخرجت الدكتورة اديث ستبول كتابا سمته كتاب الشتاء جمعت فيه القصائد التي قيلت في الشتاء ونظمها شعراء كثيرون من مختلفى البلاد سواء في الأدب الانجليزي أو الأدب الفرنسي ، وعرجت على الأدب الصيني والياباني فذكرت لنا مجموعة من القصائد العذبة والمقطوعات الرقيقة .

أما الصيف فقد عده الانجليز فصل المتعة والحرية والانطلاق فلا يكاد يقبل الصيف حتى يدع الناس البيوت ليذهبوا الى سواحل البحار أو سفوح الجبال ، وتكون ربة البيت الانجليزي في هذه الفترة كما يقول « لي ستامب » قد فرغت من تنظيف بيتها من بقايا الفحم في الشتاء ، فقدا منعشا مبهجا يبعث على الراحة والاطمئنان .

وهناك من يقضون الصيف على سواحل البحار بين مرح ولهو ولعب وقصف ، ويتهادون متباطئين متشددين يخطرون في مختلف الملابس والازياء ، وهناك من يقضونه على سفوح الجبال بين صعود وهبوط

محتدين احديتهم السميقة ، سائرين في شعاب الجبال المتعرجة ، او ممسكين بالامراس القوية والجبال المتينة المتدليلة .

وقد سجل كثير من الشعراء هذه المظاهر الجميلة والمباهج اللطيفة في اشعارهم ، وامتاز الادب الانجليزي بتلك القصص الموسيقية القصيرة المسماة « بالاد » Ballads ، وهي التي تناقلها الخلف عن السلف ، وسرت عبر السنين من افواه الشيوخ الى افواه الشبان ، وتضمنت بعض هذه الاقاصيص الموسيقية او « بالاد » مغامرات كثيرة حدثت في الصيف مثل بالاد ابنة ايرل مار The daughter of Earl Mar وهي قصة فتاة خرجت ذات يوم في الصيف تنزه بين المروج الخضراء والزهور المائسة فالفت طائرا جميلا يفرد على فنن ، فدعته الى ان يعيش معها ويرتع بين اكناف قصرها والفاف حديقتها ، ولكن ما ان جن الليل وهبط الظلام حتى غدا هذا الطائر الجميل شابا وسيم المظهر حلو القسماات في شرح العمر وعنفوان الشباب ، فاشتدت دهشتها وازدادت حيرتها ، غير انه لم يلبث الشاب الوسيم ان انقلب الى طائر مفرد كما كان ، وانطلق الى قفصه الذهبي .

وتقدم الخاطبون الى الملك يطلبون يد ابنته الفتاة ، ولكنها كانت تردهم واحدا تلو الآخر ، وتأبى عليهم ذلك اباء شديدا ، فانه بصحبة هذا الطير الجميل الذي تانس بجواره ، فاقسم الاب قسما غليظا ان يقتل ذلك الطائر ، وان ينتقم منه شر انتقام ، غير ان الطائر علم بما اعتزم عليه الملك فذهب الى مهبط راسه ، واحضر بفاث الطير وخلصوا العروس من الخاطبين .

وهذه « بالاد » Ballad او القصة الموسيقية خرافة مافي هذا شك ، ولكنها تعطينا صورة واضحة عن ذلك اللون من القصص في الادب الانجليزي الذي طار صيته في الافاق ، وتندر به الموسيقيون الجوالون في شتى البلاد ، كما تصور هذه القصة الموسيقية احدي مغامرات الصيف عندما تخلص الطبيعة من اغلال الشتاء وقبود الجليد .

ولم يكن احتفال شكسبير بالصيف اقل من احتفال غيره من الشعراء ، فقد ضمن مقطوعاته المسماة « السونات » Sonnets كثيرا من الاحلام التي تراوده والهواجس التي تنازع قلبه عندما يقبل الصيف كما كتب مسرحية « حلم ليلة في منتصف الصيف » وهي مسرحية ابداعية من نوع الماهة يغمرها ضوء الشمس وينسكب فوقها ضوء القمر تجيش بالعواطف الرقيقة والاحاسيس الجميلة والاشجان الانسانية ، وضمن بعض مسرحياته الاخرى اشعارا رقيقة عن جمال الطبيعة في الصيف فوق شطآن فينسيا .

وقد صور شعراء البحيرة في الادب الانجليزي مثل كوليردج ووليم وردزورث بهجة الطبيعة في الصيف واصطفاق الموج مع الشاطئ في صخب وجلبة او في خفوت وهمس كما صوروا الزبد وهو يتسائر كالقطن المنذوف ويترامى تحت اقدام الصخور الشامخة .

حتى اذا ما ادبر الصيف وحل الخريف ثارت في نفوس الشعراء
عواطف جديدة واحاسيس اخرى كالشاعر الرومانتيكي لورد بيرون او
الشاعر الحالم بيرس شيللي الذي قال :

مات الصيف وعشت انا لابيكي
واغرق في بليلة من النحيب
ان العالم يفرق في دنيا الرؤى
وكم انا تعب مكدود
لاني اجول من غيرك
كانت لدي فرحة دائمة
في صوتك الحنون وبسمتك الضحوك
ولكنها تولت الى الابد وساذهب في اثرها !

الربيع

فى الأدب الانجليزى

ليس الاعجاب بالطبيعة وقفا على شعب من الشعوب ولا لغة من اللغات ولا أدب من الآداب ، وليس الاعجاب بالطبيعة مقصورا على زمن دون زمن ولا عصر دون عصر ، ولكن الاعجاب بالطبيعة وجد منذ وجد الانسان ووجدت الطبيعة ، فألهمت الشعراء والكتاب والفنانين ، وستظل تلهم الشعراء والكتاب والفنانين حتى يرث الله الارض ومن عليها وما عليها

ومن مظاهر الطبيعة فصل الربيع حيث يعتدل الجو ، ويرق النسيم ، وتصفو السماء ، وينضج الزرع ، وتفتح آكام الأزهار ، وتترنم الاطيوار بأعذب الاغاريذ واشجى الانغام .

واذا كان الادب الانجليزى يعتمد فى أصول كثيرة على الادب الاغريقى والادب الرومانى فينبغى أن نقرر حقيقة لا محيص عنها ولا مفر منها وهى أن الادب الكلاسيكى القديم حافل بوصف مظاهر الطبيعة ، وبوصف الربيع .

وقد ذكر جوته ان الطبيعة عند اليونان قد بلغت أوج الجمال فى شعرهم وأبعد مراحل الفتنة والبهاء . . وقد أسس ثيوقريطس فى القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة فى الشعر الريفى ووصف المروج والمرعى وأعياد الربيع .

وهذا فرجيل حدا حدو ثيوقريطس فالف اغانى الرعاة .

وهكذا نما الادب الريفى والشعر الريفى أو ما يطلق عليه الانجليز دورال بويترى Rurol Poetry

وأخذ أدب الطبيعة ينمو فى عصور الادب الانجليزى المختلفة حتى جاء شكسبير فى القرن السادس عشر فصور مجالى الطبيعة وفتنتها وصور صخب الطبيعة وقسوتها فى أدبه الذاتى وأدبه الموضوعى .

وان من يقرأ مقطوعات شكسبير وأغاريديه يجد وصفا رائعا للربيع بين ثناياها ، وقد أهدي شكسبير المقطوعات الاولى الى نبيل مجهول الاسم اختطف منه معشوقته وحرمه جمال الطبيعة ورونق الربيع وبهجته الصيف وفتنة الحريف ، وأهدى المقطوعات الباقية الى فتاته وهى ذات شعر أسود واهاب أسمر ، فخالفه بذلك عادة الشعراء الذين كانوا يرون عرائس أحلامهم وملهمات فنهم فتيات ذوات شعور شقراء وبشرة بيضاء

وحوت مقطوعات شكسبير جملة من أوصاف الطبيعة ومباهج الربيع
وفرق شكسبير بين الطبيعة والحب فكتب جنون الحب ويأس الحب والهوى
والشباب حتى أن الشعراء الرومانتيكيين استمدوا أصول فهم ومقومات
مذهبهم من هذه المقطوعات الرائعة التي دمجتها براعة شكسبير .

اسمعه يقول :

- تعالى واحيي معي وكوني حبيبة فؤادي ...
- فسوف تنبت لنا مسرات الحياة ...
- ان التلال والوديان والمروج ...
- والجبال السماء تبدي لنا الرضوخ ...
- هنالك سوف نجلس في الربيع فوق الصخور ...
- حيث يتراى الرعيان يطعمون الاغنام ...
- وتتجلى الاطيوار الصوادح فوق الغدران ...
- تترنم سكرى بأعنب الالحان ...
- هنالك سأصنع لك سريرا من ورود ...
- ومن نوار آلاف الازاهير
- سأصنع لك قبة وثوبا ..
- موشى بأوراق من الزهر بيضاء ...

وقد الف الشاعر الانجليزي جون دن John Downe في نهاية
القرن السادس عشر ومستهل القرن السابع عشر مدرسة شعرية كانت
تهتم كل الاهتمام بالناحية الميتافيزيقية في الشعر وكلفت بما بعد
الطبيعة كلفا شديدا ، وقد شاع مذهبها في جميع اغراض الشعر حتى
شمل الغزل والحب ووصف الربيع فقال جورج هربرت George Herbert
من أتباع هذه المدرسة :

- أيها النهار الصبوح الذي لانسمع فيه ركزا ...
- وغمره الاشراق ورخي النسيم ...
- كانك يوم عرس للسموات والارض
- ان الظل سيحزن عليك عندما يهبط المساء ...
- لانك ستلفظ أنفاسك الاخيرة ...
- أيها الربيع الطيب الباسم اليوم المتفتح الورد ...
- كانك الصندوق امتلا بصنوف الحلوى الشهية ...

ان الحانى تخبرنى ان لا يامك نهاية محدودة ..

ولا بد لكل شىء حينئذ ان يموت ...

فجورج هربرت ينظر الى الربيع على انه جمال زائل وحسن لا يدوم ،
ويخرج من ذلك الى حقيقة لا خلاص منها ولا محيص عنها وهى ان كل شىء
ما خلا الله باطل لا يدوم

وقد سبقت المدرسة الرومانتيكية فئة من الشعراء تغنوا بوصف
الطبيعة والريف كان منهم كوبر الذى قضى الجزء الاكبر من حياته فى
بلده على ضفاف أحد الانهار وفى حى الاشجار المتشابكة المتدلية
والمرامى الممتدة الفسيحة فارانا الشمس وهى تشرق على القابة ،
وأسمعنا هديل الحمامة وهى تهدل فى عشها ، وصوت جناح اليمامة
وهى ترفرف فى الاجواء ، وجعلنا نستنشق اريج الزهر وهو يفوح
فيعقب الأرجاء .

كذلك فعل وليم كولنز Collins وبليك Blake الذى وصف
الربيع وصور مفاتنه ولكن تصويره ممزوج بالم دفين وحزن عميق
يعصف بقلبه عصفا ويهز أركان نفسه هزا .

وكتب الشاعر الانجليزى جيمس تومسون James Thomson فى القرن
الثامن عشر قصيدة بعنوان « الفصول » تعد من روائع شعره ، فمهد شعره
لمدرسة الحديقة فى الادب الانجليزى او مدرسة الحالمين الذين يحبون
الطبيعة لما تمثل فيها من جمال وتجل على وجهها من امارات الفتنة والسحر
والرواء ...

ومن الشعراء الذين وصفوا الربيع وتفننوا فى وصفه الشاعر
الاسكتلندى وليم دنبار رب القوافى فى اسكتلندة كما يقول الانجليز .
اسمعه يقول فى قصيدته :

عندما أدبر شهر مارس بعواصفه الهوجاء

وأقبل أبريل مفضض النداء ...

وطلع على الطبيعة الهادئة ..

بريح عاتية آتية من الشرق ...

وأعقبه شهر مايو مشرق الازاهير

طفق الطير يفرد ...

بين الورود العبقرة البيضاء والحمراء والسمرء ...

فقد وقع أنغامها متعة للسامعين ...

كنت هاجعا فى مخدعى حتى تبليج الصباح ...

فخلت فلق النور يطل بأعين من بلور ...

وخلت مايو الصبوح يمثل حيال مخدعى ...

فى ثياب مزخرفة الالوان ...

هادئا رزينا ينبض بالحياة والنشاط

ويتدثر بدثار ناصع متآلف من الازهار اليانعة ..

ذوات الالوان الرائعة بيضاء حمراء سمراء زرقاء ...

يعلوها الظل وتفضضها اشعة الشمس الذهبية ...

واهتم القصاص فى انجلترا بوصف جمال الربيع والمشاعر التى
تنتاب ابطال قصصهم فى الربيع من حب ، كما اهتم الشعراء الرومانتيكيون
فى انجلترا اهتماما بالغا بوصف الربيع وذلك لان الرومانتيكية كان من
مذاهبها الرجوع الى الطبيعة او المعيشة داخل الكل كما يقول الفيلسوف
الالمانى جيته. ان الرومانتيكية حب للاسفار وترنم بالاشعار والاحاسيس
الجياشة والمشاعر الدفاقة .

وكان من اعلام هذه المدرسة الشاعر وليم وردزورث وجون كيتس
والشاعر الحالم شيللى ولورد بيرون ، قد حوت دواوين هؤلاء الشعراء
شعرا عن الربيع ومباهجه والاحاسيس التى تنتاب الشاعر فى ابانه
وغضونه ، فهم يصورون نضرة الطبيعة فى الربيع وتفتح الزهر واخضرار
الزرع وتفريد الطير وهم يتخيلون للربيع وجودا معنويا ويخاطبونه
مخاطبة حسية ويتحدثون اليه حديث القلب الى القلب ونجوى النفس
الى النفس ، ويتفنن الشعراء فى ذلك ماوسعهم التفنن ، فاسمعونا
قاب الربيع واخلجات نفسه كما صوروا الابداع الالهى دون زخرفة ولا
بهرجة بين الفاف الغاب ومجرى العيون والينابيع ، وقمة الصخور ،
واعماق الوديان .

ولم يتمسكوا كل التمسك بالمناسبات الدقيقة بين المشبه والمشبه
به على نحو ما نجد فى الشعر العربى انما غدا شعرهم مشاعر دفاقة
واحاسيس جياشة تناسب فى سهولة وبساطة كما ينساب الجدول
الهادر ، والفدير الرقراق ..

وقد ظهرت نزعة تصوفية فى وصف الربيع كتلك التى نجدها عند
الشاعر الانجليزى كوفنترى باتمور Patmore والشاعر الانجليزى
فوجهان . فليس «فوجهان» شاعرا رومانتيكيا يحب الازهار ويعشق
الورود فى الربيع، وليست الازهار تتجلى حيال عيني «فوجهان» كحسنة
ذات فتنة او ربة من ربوات الجمال نصفها انسجة ونصفها زهرة ، ولكن
«فوجهان» يخرج من الربيع ليلقى ربه ، ويخاطب خالق هذا الجمال
الساحر الحلاب ، فاذا كان كولريديج يتحدث عن الزهرة من جذرها الى
كأسها ، ويصور فتنة الروض ، فان «فوجهان» يصور قدرة الخلاق سائرة
بين البساتين ، مارة عبر المروج ...

وفى الادب الانجليزى الحديث نجد وصفا للربيع عند د . ه .
لورنس ، وت . س . اليوت واوسكار وايلد وغيرهم برغم أن أكثر الادباء
الانجليز فى العصر الحديث يمكن أن نطلق عليهم أدباء الكارثة لعبوسهم
وسخطهم وفقدتهم الامل فى مظاهر الحضارة الحديثة .

بين الربيع والخريف

أوشك الصيف أن يدبر بحره اللافح ، وقيظه الشديد ، وأخذ الخريف يتقدم في اختيال شيئا فشيئا حاملا نسائمه الرخية الناعمة الوادعة الى الدنيا ساكبا روحا حلوة لطيفة في انفوس ، والخريف ككل فصل من فصول السنة له طابعه وسماته وله صبغته ومميزاته ، وان من يتصفح دواوين الشعر العربي يجد أن الشعراء العرب قد تحدثوا كثيرا عن الفصول ، فتحدثوا عن الربيع وتحدثوا عن الخريف وتحدثوا عن الصيف وتحدثوا عن الشتاء ووصفوا مفاتها ومظاهرها ومجالها ، ولكنهم وجهوا جل اهتمامهم الى الربيع منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث وتفننوا في ذلك ماوسعهم الافتنان ، وابتدعوا في ذلك من المعاني ماوسعهم الابتداع ، فالربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد يتكلم ، والدنيا معاش للورى حتى اذا اقبل الربيع فهي منظر ، وتبدو أوراق الشجر حيال الشاعر فى الربيع عذارى ، والنضارة ضحكا ، واهتزاز الفصول مفاصلة ، ويبدو ثمر الربيع يلثم خد الزهور ، ويبدو الروض حيال الشاعر فى الربيع عرسا جمع أنواع السرور ، وما الى ذلك من تأملات رقيقة وتصورات طريفة وخيالات جميلة .

وان الباحث في شعر الربيع يجده في سهولة ويسر ، ولكن الباحث في شعر الخريف يصادف مشقات كثيرة وعقبات أكبر ، ولكنه بعد هذا كله وبرغم هذا كله ينتهي الى أن الشعراء العرب قالوا في الخريف شعرا طريفا ما في هذا شك .

فالطبيعة معلمة المعلمين جميعا كما يقول ليونارد دافنشى والطبيعة ملهمة الفنون . وقد يحب الشاعر الطبيعة ، ويحب الفن بعدها على حد تعبير الشاعر الانجليزى وليام كولنز .

وقد قال العرب في الخريف : انه ربيع النفس ، كما أن الربيع ربيع العين فطبعه بارد يابس، فيه يبرد الهواء ، ويتغير الزمان، وتنضج الثمار ويغير وجه الأرض ويصفر ورق الشجر ، وتهزل البهائم ، وتموت الهوام وتنحجز الحشرات .

وقد ربط كثير من الادباء والشعراء بين الربيع والخريف فقال احدهم كل ما يظهر في الربيع نوار ، وفي الخريف نجنى ثماره فهو الحاجب امامه والمطرقت قدامه .

وقد افتخر شاعر بالخريف على الربيع فقال :

محاسن للخريف بهن فخر على زمن الربيع واى فخر
به صار الزمان امام برد يراقب نوحه وعقيب حر

قلت ان أحد الأدباء قد وصف الخريف بأنه ربيع النفس كما أن الربيع ربيع العين ، وقد حاول بعض شعراء العرب التحدث عن خلجات نفوسهم ونبضات شعورهم وخطوات عقولهم أكثر مما يتحدثون عن مباحجه ومفاتيحه ان كانت له مباحج أو مفاتن .

وقد كان شعور شعراء العرب بالطبيعة على أشده وبالفصول في أوجه ، فمنطقة البحر الأبيض المتوسط لما تمتاز به من مناخ معتدل وتربة خصبة وسهول خضر كان شعور شعراء الشام ومصر والاندلس فيها بالطبيعة والفصول جليا واضحا ، وامتاز شعر الاندلس بوجه خاص بهذا اللون من الأدب على يد ابن خفاجة وابن هانيء وابن زيدون ، وكان بعض الشعراء العرب يشاركون الطبيعة في حليها وعطائها وفي كسانها وعريها ، كما كانت الطبيعة تشاركهم في أفراحهم وأتراحهم وفي غنائهم وبكائهم كتلك المشاركة الوجدانية التي نجدها في الأدب الأوربي والتي عبر عنها الشاعر الفرنسي بول فاليري في قوله :

« انى أعرف هذه الطبيعة وتعرفنى ولم يبق لدى منها شيء مستور
فهى تخفق فى كل نبضة من نبضات قلبى . . . »

وقد عبر عبد الله بن المعتز عن هذه المشاركة بين الطبيعة والشاعر فى قصيدة له عن أيلول أو عن الحريف بمعنى آخر ولكن مشاركة ابن المعتز للطبيعة لم تكن الا لتساقى الراح غداقا وتعاطى كنوس الخمر دهاقا ، ولم تكن الا مشاركة محدودة مختصرة .

طاب شرب الصبوح فى أيلول
برد الظل فى الضحى والاصيل
وخبت جمرة الهواجر عننا
واسترحنا من النهار الطويل
وخرجنا من السوم لبرد
ونسيم وطيب ظل ظليل
وشمال تبشر الارض بالقطر
كذيل الفللة المبالول
فكانما تزداد قربا الى الجنة
فى كل شارق واصيل
ووجوه البقاع تنتظر الفيث
انتظار المحب رد الرسول

وان من يقرأ هذه الابيات يجد فيها مشاركة بين الشاعر والطبيعة ، ولكنه يجد بعد هذا كله وصفا للطبيعة والحريف ولا تطلعنا هذه الابيات على نفسية الشاعر اطلاعا ينقع غلتنا ويروى صدانا ، ونحن يمكن أن نعرف ذلك كل المعرفة اذا قارناها بقصيدة للشاعر الانجليزى (تومسون) فى الحريف ، ذلك الشاعر الذى جمع قصائده فى الشتاء والربيع والصيف والحريف فى مجموعة بعنوان الفصول على النحو الذى فعله الشاعر الفرنسى سان لامبير Saint Lambert ويكفى أن أذكر نبذة من قصيدة لامارتين فى الحريف لنعرف الفرق بين الشعارين :

- سلام أيتها الغابة المتوجة ببقايا الحضرة ...
 وبأيتها الأوراق المصفرة فوق الأعشاب المنثورة ...
 سلام أيتها الأيام الجميلة الأخيرة فبعدك أحزان الطبيعة
 لأنك توافقين حزني وتسرين نظري ...
 أجل اني في أيام الحريف هذه حيث الطبيعة تحتضر
 أجد الجمال الذي أنشده في نظراتها المتحجبة ...
 فهي وداع الصديق وهي الابتسامة الاخيرة ...
 من شفاه سوف يغلقها الموت اغلاقا أبديا ...
 ان الوردة تسقط بعدما تعطى اريجها الهوا ...
 وهنا جثم في الشمس والحياة الوداع ...
 أما أنا فسأموت ، وروحي وقت الغناء ...
 سوف تردد صوتا حزينا رقيق الايقاع ...

فالشاعر الفرنسي لامارتين يصور أثر الحريف في نفسه أكثر مما يصور أثر الحريف في عينه كالشاعر العربي ، ويجاري فكرة الحزن التي كانت مسيطرة على الادب الرومانتيكي في فرنسا وانجلترا ، ويعبر عن ألمه وشجونه على العكس من الشاعر العربي الذي تسيطر على نفسه مشاهد الطبيعة كقول الصنوبري في الخريف :

نحن منه على تلقى شتاء يوجب القصف أو وداع مصيف
 في قميص من الزمان رقيق ورداء من الهوا خفيف
 يردد الماء منه خرقا اذا ما لمست يد النسيم الضعيف

ولكن الخريف مع ذلك لم يكن داعيا الى شعر الوصف فحسب ، بل كان داعيا الى شعر النصح كذلك ، وقد اكتسى ذلك النصح بأسلوب طريف رقيق كقول الشاعر :

خذ بالتوتر في الخريف فانه نصديقها ومن الصديق يخاف
 يجرى مع الايام جرى نفاقها مستوبل ونسيمه خطاف

ومهما يكن من شيء فاننا ينبغي أن نعترب بأن نظرة الشاعر العربي للطبيعة كانت نظرة مكانية أكثر مما كانت نظرة زمانية ، ولم يكن شعور الشاعر العربي بالزمان الا في خطوات قليلة تتناثر كالأزهار هنا وهناك .

المسرح المصرى والمسرح الانجليزى

يلتقيان في حركات تطورهما

ان المتتبع لتاريخ المسرح المصرى يجده قد مر بتطور عظيم منذ نشأته حتى العصر الحديث يشابه الى حد بعيد ما مر به المسرح الانجليزى الا ان نهضته عندنا قد بدأت كليلة ضعيفة منذ الحملة الفرنسية على مصر حتى نظم الخديو اسماعيل علاقاته بالغرب ، فارسل البعث العلمية التى تثقفت بثقافات الغرب المختلفة، وتطبعت بطابع الحضارة المختلفة ومتابعة العلوم والفنون كالمسرح والسينما والنحت والتصوير ، ولم يكن لمصر قبل عهد اسماعيل عهد بالتمثيل الا ما كان من ملاعب فى الاسواق والمواسم والحفلات الخاصة حتى شيد الخديو اسماعيل دار الاوبرا الخديوية بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس الذى حضره كما نعلم ملوك العالم وأمراؤه وكبار رجاله فأحب الخديو اسماعيل أن يرفه عنهم وأن يستقبلهم احسن استقبال .

وكانت اول رواية اخرجت على مسرح الاوبرا رواية (عايدة) من عمل الموسيقي الايطالى الشهير جوزيف فردى ، اشترك فى وضع الرواية وتصوير مناظرها «مارييت» نفسه ، ومثلت فى مساء ٢٤ من ديسمبر سنة ١٨٧١ بحضور كبار القوم واشترك بعض الجنود فى الظهور على المسرح

وهذه الرواية من الروايات التى طالما مثلها المرحوم الشيخ سلامة حجازى بعد أن ترجمها الى العربية الأديب المعروف سليم نقاش ، وقد اشتركت السيدة منيرة المهديّة فى بعض الروايات التى كانت تمثل فى ذلك الوقت فى بعض المسارح المحلية وان كان اشترك المرأة المصرية فى التمثيل محظورا ومقصورا على المرأة الاسرائيلية أو المسيحية السورية .

وهكذا نشأ التمثيل فى مصر ضعيفا فانرا حتى جاء شوقي فالف مسرحياته الرائعة التى كانت - برغم ما يوجه اليها من نقد فنى فى بعض الاحيان من ناحية المسرح - حجرا راسخا فى بناء نهضة المسرح المصرى وتشجيع الكتاب على الخوض فى غمار المسرح والاتيان بشمار قرائحهم والابداع فى حبك المسرحيات ولا نزال حتى الآن نتقدم فى سبيل النهضة المسرحية ، ونرجو ان يستمر تقدمنا حتى نقف تيار السينما الجارف ونجعل الناس يؤمنون برسالة المسرح الخالدة .

وقد مر المسرح الانجليزى كذلك بتطور كبير حتى وصل الى حالته الراهنة، فقد شهد المسرح الانجليزى فى منشئه روايات اللطام والالغاز

وكانت تدور حول أشخاص الكتاب المقدس وأحداثه كما شهد روايات المعجزات التي تعرض لما لا قاه القديسون الصالحون في حياتهم من آلام وأوصاب .

وشهد المسرح في القرن الخامس عشر المسرحية الخلقية . وما جاء العهد الاليزابثي حتى كان المسرح يقام في جنوب التيمز حيث يزدحم بانعو الفواكه والجمعة والجوز ، وكان المسرح نفسه بدائيا يختلف كل الاختلاف عن مظهره في العصر الحديث في بنائه وتقسيمه .

وقد مر المسرح الانجليزي بأزمات عنيفة كل العنف في فترات مختلفة من حياته الفنية ، فأغلق فترة طويلة من الزمان حتى أتى له أن يفتح بعد ذلك وأن يدخل عليه كثير من التحسينات سواء كانت في بنائه وتقسيمه أو كانت في رواياته التي تعرض على خشبته وقد تعددت وتنوعت المسرحيات وأصبحت ذات غرض اجتماعي أو غرض سياسي أو غاية عالية .

ونهضة المسرح الانجليزي في العصر الحديث انما كانت بفضل اعلام كبار حاولوا أن يقتفوا اثر شكسبير ودريدن واضرابهما مثل اوسكار وايلد وبرناردشو ، وسومرست موم وجالزورثي الذي يعد من تلاميذ الكاتب المسرحي المعروف ايسن .

ان من سنة الحياة التطور ، ولقد تطور المسرح الانجليزي كما تطور المسرح المصري حتى وصل الى حالته الراهنة .

وانا لنرجو أن يستمر هذا التطور ، فلا نرجع بحركة الاحياء الى الوراء ، كما نحب أن يقتبس المسرح من المسرح الانجليزي بل من المسرح الغربي بوجه عام محاسنه وفضائله حتى يكون مسرحا عالميا بادق معاني هذه الكلمة .

كشف مسرحى عظيم عن المسرح فى الشرق

اتفق نقاد المسرح أو كادوا على أن العرب لم يعرفوا المسرح أو المسرحيات فى عصورهم القديمة وأنهم تقدموا بعض التقدم فى عصورهم الحديثة ، فعرفوا المسرح والمسرحيات ، وكانت معرفتهم بها قبل شوقى بآمد وجيز ، ولكن أحدا منهم لم يحاول أن يبحث أو يستقصى نصيب هذا القول من الصحة أو الخطأ حتى قام أحد المستشرقين - ولا أقول أحد العرب المعنيين بشئون المسرح - فقدم للعالم تمثيلات عربية مثلت فى القرون الوسطى وضعها محمد بن دانيال الموصلى أيام الظاهر بيبرس فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهذا المستشرق هو البروفسور باول كاولى وقد نقل بعض هذه المسرحيات عن أصلها العربى ، وقد فقد البعض الآخر ، فترجمها عن النص الانجليزى الدكتور محمد تقى الدين الهلالي الحسينى ، وعرف بهذه التمثيلات جميعا الدكتور فؤاد حسنين

وهذا العمل ان دل على شىء فانما يدل على كشف مسرحى عظيم وكسب تاريخى كبير ، وقد ذكر المستشرق الكبير جورج جاكوب محتويات هذه التمثيلات فى كتابه تاريخ مسرح تمثيل الظل وقال : ان ابن دانيال أعظم شاعر ممتع فى العربية ، وقد نبه جاكوب الى هذه المسرحيات البروفسور مركوس جوزيف مولر فوجد هذه المسرحيات فى مكتبة « سكوربال » الاسبانية وقد فهم جاكوب نصوصها بمعاونة نولده وجولدزبهر ودى خووى

وأول هذه المسرحيات مسرحية (طيف الخيال) وهى تعطينا صورة رائعة للحالة السياسية والثقافية فى مصر فى عهد بيبرس ، والذي نلاحظه عليها أنها ليست مسرحية متناسقة الأجزاء متناسبة الأطراف ، ولكنها تصور الحياة تصويرا فريدا ، أما الفاظ هذه المسرحية فهى رائعة ومعانيها رقيقة وشخصياتها متداولة طريفة « كالأمر وصال » الذى زها على الناس بأعماله العظيمة وأمجاده الكبيرة وقد رغب فى الزواج والمعيشة عيشة الاستقامة والهناء ، فطلب من الخاطبة اختيار نصف دينه وانتقاء شريكة حياته

أما ثانية هذه المسرحيات فهى مسرحية « عجيب وغريب » وتصور الحياة المصرية فى الأسواق تصويرا رائعا رائقا ، وتبين المهن المختلفة والصنائع المتعددة وتظهر فيها ضروب مختلفة الألوان من الأخلاق والطباع ، كفى صانع المباح ، وخویش الحساوى ، ومقدام الآسى ، وعجيب الواعظ ؛ ومبارك الفيال الذى يخرج على المسرح قائلا :

انظر الى الفيل في تهويل خلقته
واعجب لاتقان صنع الخالق البارى
كقبة بنيت عمدا على عمد
وقبرت ظاهرا بالزفت والقار
تخال من ورق القلقاس قد نبتت
اذناه حين تراه عاديا « سارى »

وان من يسمع هذ الايات يرى انها رقيقة هزلية ، ويستطيع ان
يستشف جو المسرحية فهو يدعو الى المرح والفكاهة .

اما المسرحية الثالثة فهى « المتيم » وهى تتعلق بعشق المتيم
للبيتم وفيها تحريش الديوك على الكفاح والثيران بقصد الفرجة
والتسلية ، ونرى فى هذه المسرحية الجزار « تعاشير » والكبابجى
« أبو جعران » ، ونرى الوليمة والخمر والعود والند والبخور ونرى
المتيم فى آخر المسرحية يطلب التوبة من الهوى ، فيلتفت الى القبلة
ويموت حيث يفضل ويدفن

واننا نسمع فى هذه المسرحية كثيرا من نعمات العشق والهوى
كهذه التى نسمعها فى مسرحيات مجنون ليلى وقيس لبنى وجميل بثينة
فها هو ذا ابن دانيال يعرض لشخص تيمه الهوى فيقول :

اهل الفرام تجمعوا وتوسلوا وتضرعوا
موتوا تعيشوا فى الهوى وتمزقوا وتقطعوا
وخذوا حديث متيم عم من سواه اودعوا

ولست اكتب هذا الفصل لاتحدث عن القيمة الفنية فى هذه
التمثيلات او عن قوة الحوار وسلاسته او عن جمال العرض ودقته ، وانما
اكتب هذا الفصل لابين قيمة اكتشاف هذه المسرحيات من الوجة
التاريخية فى دراسة فن المسرح عند العرب فليس من شك فى انها هدت
الى تراث كان مجهولا والى حلقة كانت مفقودة فى دراسة المسرح .

وان كانت هناك كلمة يمكن ان يقال فى ختام هذا الفصل فهى اننا
ينبغى ان نبحث عن اصول المسرح عند العرب ، ولا نكتفى بهذه الاحكام
النهائية التى يظن كثير من كتاب المسرح انهم وصلوا اليها ، واننا ينبغى
ان نجد فى بحثنا ونمعن فى دراستنا ، والا نقف مكتوفى الايدى مشلولى
الحركة منتظرين احد المستشرقين كالبروفسور باول كاولى ليقدّم الينا
هذه المسرحيات الثلاث التى الفت فى القرن الثالث عشر الميلادى . !

أمير الشعراء الانجليزي في الأدب العربي الحديث

تصدر جامعة الدول العربية ترجمات جديدة لمسرحيات شكسبير ،
ولسنا في هذا المقام نحب أن نتعرض لهذا المشروع من حيث قيمته وخطره ،
فهذا قول قد فات أوانه ، وأقدم المترجمون على الترجمة منذ سنوات ،
وها هم أولاء قد انتهوا منها ، وها هو ذا الأستاذ عباس محمود العقاد
قد انتهى من تأليف كتابه « التعريف بشكسبير » الذي يعد بمثابة
التمهيد لسلسلة الترجمات التي ستطبع وقد صدرت من المجموعة عدة
كتب .

لسنا نريد أن نتعرض لهذا كله ، إنما نحب أن نقول : ان فضل
شكسبير ليس وفقا على الأدب الانجليزي ، إنما تعداه الى الآداب العالمية
جميعا ، ومنها أدبنا العربي الحديث ، وأثر شكسبير على العربية يمكن
أن نقسمه قسمين : القسم الأول متصل بالنثر وهو الترجمة ، والقسم
الأخر يتصل بآثار في الشعر العربي .

ومسرحيات شكسبير لا يجد فيها المتعة القارية الانجليزي
وحده ، بل يجد فيها هذه المتعة كل قارىء في أى قطر أو مصر ، لأنه
يجد في شخصياتها أناسا يشعرون مثل شعوره ويتحركون في مثل
اتجاهاته في التفكير ، فهي موضوعات انسانية تمس النفس الانسانية
مسا رفيقا رشيقا

وقامت جهود ادبية كبيرة منذ مطلع النهضة الادبية الحديثة
 لترجمة هذه المسرحيات .

ومنذ نصف قرن تقريبا عنى الأستاذ ابراهيم زكى ، من كبار
موظفى وزارة المالية بهذه الترجمة فأصدر كتابا في ١٢٠ صفحة صغيرة
الحجم لخص فيها بعض مسرحيات شكسبير ، ولعله نقل هذه الترجمة
عن كتاب « شارل ، ومارى لام » الذى تقوم دار الهلال بنشره ، ونشرت
منه حتى الآن جزاين يضمن مسرحيات : الزوبعة وحلم ليلة صيف
وقصة الشتاء وضجة بلا طائل و « كيفما تريد » وسيدان من فيرونا
وتاجر البندقية وترويض النمرة وصاع بصاع والليلة الثانية عشرة
ومتاحف أثينا وهاملت وعطيل وبركليس .

وبرغم أن اسماعيل عبد المنعم كان موجزا في ترجمته لبعض
مسرحيات شكسبير أكثر من ترجمة دار الهلال فقد وجد في ترجمته
المتعظمون الى الثقافة الاجنبية شيئا يزيدون به ثقافتهم ، ويلونون به
تفكيرهم ، ولا سيما أنهم كانوا يتوقون الى ابواب جديدة من المعرفة بدلا

من هذه الأساليب الأدبية العقيمة ، التي سيطرت على الفكر الغربي أن ذلك ، وبدلاً من هذه الموضوعات السقيمة التي لا تساير الحياة ، ولا تجارى الزمن ، وأسرف فيها الأدباء والمتادبون في هذه الفترة .

لذلك كان من الجميل أن يقوم اسماعيل عبد المنعم بهذه الترجمة ، التي صدرها بمقدمة وصف فيها هذه الروايات فقال : « وقد اخترنا من رواياته ذلك النوع المعروف بالمأساة لأنه برع فيه وأبدع أيما أبداع وكانه غاص في سويداء القلوب ، ووقف على أخلاق الناس وأظهر ما تكنه الضمائر وباح بما هو في طي الكتمان ، فسطرها من أنفاس العاشقين وعبرات البائسين ، وأرانا فيها أشكالاً متضاربة من الطبائع وصوراً شتى من العادات ، فهذب النفوس وقوم الأخلاق وثل بها عروش الظلم وقوض دعائم الاستبداد » .

وترجم طانيوس عبده رواية هملت . وكان طانيوس شاعراً متأثراً متفنناً في كلتا الصناعتين جيد الملكة لطيف التخيل عصرى المعنى مستعذب اللفظ ، أكسبته رواياته شهرة بعيدة عند قراء العربية ، وأنزله شعره منزلة كريمة بين أوائل الشعراء ، وأمتاز سليمان أفندى القرداحى والشيخ سلامة حجازى ومحمد بهجت بتمثيل دور هملت .

وكانت مسرحية « عطيل » أول رواية مثلت لشكسبير على المسارح العربية في مصر ، وترجمت بإشارة سليمان أفندى القرداحى ومثل فيها سليمان أفندى دور البطل ، وقام بهذا الدور بعد ذلك أحمد فهميم ومحمد بهجت ، كما قام جوق إسكندر فرح بتمثيل هذه المأساة ، فأحرز في تمثيلها نجاحاً منقطع النظير .

وترجم محمد عفت القاضى فى المحاكم الأهلية مسرحية « ماكبث » ، وكان يمتاز إلى جانب عقليته القضائية الممتازة بذكور أدبى رقيق وحس فنى مرهف . فأقبل على ترجمة « ماكبث » بشغف ونهم ، وكان عفت يحسن قرض الشعر ، وله فيه قصائد جيدة فنظم ماكبث بالشعر ، وحاول أن يحافظ على روح النص محافظة دقيقة ، والملاحظ فى ترجمة محمد عفت أنه لم يحذف منها شيئاً إلا إشارات بسيطة جداً كان لابد من حذفها فى النص العربى ، لأنها لا تناسب ذوق القارىء فى البلاد العربية .

ولما عاد الممثل الكبير جورج أبيض من الخارج وتشبع بروح المسرح الأوروبى وأراد أن يقوم بنهضة مسرحية فى مصر ، طلب من الأستاذ خليل مطران أن يقوم بترجمة بعض روائع شكسبير . وفعلاً أقدم مطران على الترجمة وقدم للمسرح المصرى « ماكبث » وهملت وعطيل وتاجر البندقية والعاصفة وربشارد الثالث والملك لير ويوليوس قيصر .

وجدير بالذكر أن « مطران » كان يترجم عن الفرنسية ، ولذلك وجدنا بعض الاختلاف عن النص الانجليزى الاصلى ٠٠٠ كما أن « مطران » حذف كثيراً من المشاهد والتفاصيل فى مسرحياته : ومثال

ذلك انه ادمج فصول هملت الخمسة في اربعة وحذف مشهد الجنائيات في الفصل الاول من مسرحية « ماكبث » ، وبرغم حذف بعض المشاهد وصل الى ذروة الادب الصافي الرفيع ، ولولا ان « مطران » ترجم عن الفرنسية لبلغت ترجمته اعلى درجات الكمال الفنى .

ومن الذين عكفوا على ترجمة مسرحيات شكسبير كذلك ، الأستاذ عوض محمد والأستاذ عوض ابراهيم والأستاذ ابراهيم رمزى والأستاذ محمد حمدى ، وترجم الأستاذ سامى الجريدينى المحامى روايتى يوليوس قيصر وهملت وصدر اولاهما بمقدمة جاء فيها :

« ولم اكن افكر قط في الاقدام على ترجمة هذه الرواية لو لم يكن لى من « عطيل » أكبر مشجع ، ليس لانى ممن يجرون فى مضمار خليل مطران ، ولكن للتشبهه بالكرام ، فخليل مطران على ما اعتقد اقدر عربى يستطيع ترجمة شكسبير ولعله اول من ترجمه ترجمة حقيقية .

ولم يكن اثر شكسبير مقصورا على الترجمة فحسب ، انما شاع فى شعر الشعراء ، واخيلتهم وتصويرهم الفنى بطريق مباشر وغير مباشر ، ولولا ان « شوقى » قد اطلع على انتاج شكسبير المسرحى وتشبع بفنه ما اقدم على تأليف مسرحياته الشعرية ، وما اخرج لنا الروائع من شعره مثل مجنون ليلى ومصرع كليوبترة وغنترة وقمبيز وأميرة الاندلس ، وغيرها ، بل انى لاذهب الى ابعد من هذا فأقول : ان « شوقى » فى « مصرع كليوبترة » حذا حدو شكسبير فى فنه المسرحى فى بعض احداث الرواية ، وفى بعض المشاهد المسرحية وحاول ان يتسم انتاجه بالخصب والتشعب مثل شكسبير .

وقد نظم شوقى قصيدة من عيون شعره فى ذكرى شكسبير . والقصيدة همزية ، استهلها بالمجد الذى نالته انجلترا فى البحار وفوق الجزيرة واخذ يزهو بنظام الانجليز الدستورى ومشاعرهم بشكسبير . فما انجبت انجلترا شاعرا مثله ، وما تفنى طائر باعذب من شعره . وبه وصل مجد الجزيرة الى النجوم الزهر فى السماء . اذ كشف الشاعر عن سرائر النفوس وكوامن القلوب ، وشعره ملهم يصدر عن نفس موحية ، ومعانيه ابيكار عذارى ، ومسرحياته ككتاب الدهر فيها شتى العبر ، وفيها الاضحاك والابكاء ، وفيها الافراح والاتراح ، وفيها الآهات والبسمات تأمله فى قوله :

ما انجبت مثل « شكسبير » حاضرة
ولا نمت من كريم الطير غناء
نالت به وحده انجلترا شرفا
ما لم تنل بالنجوم الكثر جوزاء
لم تكسف الشمس لولاه ولا بلبت
لها سرائر لا تحصى واهواء
شعر من النسق الاعلى يؤيده
من جانب الله الهام وايحاء

وكل معنى كعيسى في محاسنه
جاءت به من بنات الشعر عذراء
او قصة ككتاب الدهر جامعة
كلاهما فيه اضحاك وابكاء

وقد ختم شوقي قصيدته بالدفاع عن شكسبير ، اذ رماه بعض
النقاد بأنه صور الانسان بصورة ذئب متعطش الى الدماء ، واجرى
انهار الدم في مسرحياته ، وملأها بحوادث الاغتتيال والقتل . فقال : ان
هذه الصور ليست الا صورا مستمدة من الحياة ومنزعة من الواقع ،
فانظروا الى العالم كيف تتقاتل الأمم وتتطاحن ، وكيف مشى لؤم الحياة
في الناس كما مشى آدم فيها وحواء .

ودعا شكسبير الى أن ينهض من رقدته حتى يبسط بقلمه دولة
انظلم ، ويحطم صرح الطفيلان في أركان العالم ، وقد سطر لهؤلاء الباغين
صفحة سوداء هي العزاء الوحيد والبلمس الشافي الذي يخفف الآلام .
ويمسح اتراح البائسين في خضم الحياة الرحيب .

ولم يكن اثر شكسبير مقصورا على شوقي فحسب ، انما امتد الى
شعر حافظ ، ولكننا قبل أن نتعرض لهذا الأثر على شعر حافظ نحسب
أن نعرض لآثر شكسبير على شاعر آخر من الشعراء المجيدين ، وهو
الشاعر محمد الهراوي ، الذي نشر منذ سنوات قصيدة عن خنجر
« ماكبث » الذي رفعه للانتقام في مسرحيته الخالدة فقال :

أرى خنجرا يدلى الى بمقبض
أنصلا ترى عيناي أم أنا خائله ؟
فيايها النصل الذي لاح في الدجى
وقد حال دون اللمسلا للمح حائله
ترى أنت نصل أم تخيل وأهم
به خبيل الحمى فخابت دلائله
نعم أنت في عيني تمثلت مثلما
يجرد نصل هذبته صياقله
وقد جئت تهديني طريقا شرعتها
وتشبه نصلي في الذي انا فاعله
اكذب عيني أم اصدق ما رأت
وهل صح حسي أو دهي الحس خابله
والا فما بالي اراك وقد بدا
عليك كما لم يبد من قبل سائله

أما شاعر النيل ، حافظ ابراهيم ، فصور هذا الخنجر في احدى
قصائده الرائعة المنشورة في ديوانه ، صوره وهو يتراءى أمام بصره ،
بعد أن نزعته من غمده في الليل البهيم ، فأخذ يتألق كاللهب اللامع ثم
حملة والرهبة تملأ جوانحه ليجهز على ضيفه الملك « دنكان » ليمتلى
عرشه ويحتفظ بالملك لنفسه ويخضع الرعية لامرته .

صور حافظ خنجر « ماكبت » تصويرا اديبيا خلاقا ، رقى
بقصيدته الى مصاف الشعر الرفيع ، فهي حاوة اللفظ ، جيدة الصوغ ،
رائعة الأسلوب ، واستخدم فيها حافظ كل ملكاته الفنية ليسمو بها الى
فن شكسبير الأسلوبى !

غير ان شكسبير يمتاز على حافظ ابراهيم بالناحية النفسية في
التصوير ، اذ جاءت قصيدته مفعمة بالعواطف ، مصورة للانفعالات
النفسانية التى تساور بطل المسرحية . وقد حاول حافظ ابراهيم ان
يستخدم هذه الاداء الفنية فى شعره ما استطاع الى ذلك سبيلا فوفى
حينا وفشل احيانا ، وقد جاء فى قصيدته :

كانى ارى فى الليل نصلا مجردا	يطير بكتنا صفحتيه شرار
تقلبه للعين كف خفية	ففيه خفوق تارة وقرار
يمائل نصلى فى صفاء فرنده	ويحكيه منه رونق وقرار
أراه فتدنينى اليه شراستى	فينأى وفى نفسى اليه اوار

امارة الشعر

بين شوقى ودریدن

امير الشعر المصرى هو أحمد شوقى بلا منازع ، أما امير الشعر المصرى (مصري) (مصري) (مصري) الانجليزى فقد يظن ظان انه وليم شكسبير ، الذى ترنم بشعره الحادى ، وتفنى بذكره الركبان ولكنه فى الواقع ليس وليم شكسبير ، بل هو جون دريدن الذى منحه الملك شارل الثانى لقب « امير الشعراء » .

وانا لا اذكر « شوقى » فى الادب المصرى الا اذكر دريدن فى الادب الانجليزى ، فقد تربى شوقى فى اكناف القصر الملكى كما تربى دريدن ، وقال عن نفسه : ان جدته ادخلته على الخديو اسماعيل وهو فى الثالثة من عمره ، وكان بصره لا ينزل عن السماء من اختلال اعصابه ، فطلب الخديو بكرة من الذهب ، ثم نشرها على البساط عند قدميه ، فوقع على الذهب يشتغل بجمعه واللعب به ، وقال الخديو لجدته : اصنعى معه مثل هذا ، فانه لا يلبث ان يعتاد النظر الى الارض ، فقالت : هذا دواء لا يخرج الا من صيدليتك يا مولاي ، قال : جئنى الى به متى شئت !

وهكذا تربى شوقى فى اكناف القصر ، ولد بياب اسماعيل ، واسترعت مواهبه الشعرية « الخديو توفيق » فأوفده الى اوربا ثم اتصل بعدئذ بالقصر .

وهكذا كان دريدن : انحدر من أسرة عميقة ، ومدح وهجا من أجل الملكية ونظم قصيدتى ابسالوم واكتيوفل Absalom and Achtiophel التى تعد من اروع قصائد الهجاء فى الادب الانجليزى ، ضد شافيتسبرى الذى اتهم بالخيانة العظمى للملكية ، وانتج كثيرا من المسرحيات التى تالت الرضا السامى كفتح غرناطة التى نال عليها لقب امير الشعراء .

وقد كتب شوقى للمسرح كما كتب دريدن ، والف الاول « مصرع كليوبترة » وانف الأخير « فى سبيل الحب » وهاتان المسرحيتان تمثلان حياة كليوبترة ، الاولى تبرز ناحية المصرع والمأساة ، والاخيرة تبرز ناحية الحب التى تطفئ على كل شىء حتى على الواجب عند بعض الناس .

كان شوقى اميرا للشعراء ، وكان كما يقول خليل مطران « لا يكدر فكره ولا يجهدده فى معنى ولا مبنى » وقال عنه عبد العزيز البشرى : « انه كان من امهر الصاغة فى هذا الزمان » ، ولكنه فى الواقع علا وهيط ، وأبدع وأسف ، وأحيانا كان من هؤلاء الشعراء الذين يقول عنهم شللى : « ليس عليهم الا أن بهزوا بجذع الشجرة فتساقط عليهم ثمارا جنية . »

ويقلب ان تنشأ الأشعار في اذهانهم من تلقاء ذاتها ، ولا دخل لارادتهم فيها ، بل برغم ارادتهم .

اما دريدن فقد كان اميرا للشعراء ، وزعيما للمسرح بلا منازع . ولد سنة ١٦٣١ ، وتعلم في مدرسة وستمنستر ، ويقول بعض النقاد : ان دريدن في سنه الأوى قبل عهد الاصلاح لم يكن يملك اذنا موسيقية ، ولا ذوقا شعريا لقرض الشعر ، ولعل هذا يرجع الى انه قد بدأ شعره متأثرا بالمدرسة الميتافيزيقية التي كان على رأسها الشاعر جون دن John Donne ، ويمتاز شعره بالفموض والابهام والمفارقات ، والاقتصاد في استعمال الكلمات ، وكان من رجال هذه المدرسة جورج هربرت ورتشارد كراشو Richard Crashaw ، ولكن دريدن لم يلبث ان جنح عن هذه المدرسة وهذا المذهب الشعرى .

وقد ساعدت عودة الملكية دريدن على الانتاج الخصب ، فالف عدة مسرحيات - حين امرت الملكة بفتح ابواب المسارح بعد اغلاقها - تعد من روائع المسرح الانجليزى ، ولقد تأثر دريدن بين جونسون احد معاصرى شكسبير ، كما تأثر بشكسبير ، وقال : « انى أعجب بين جونسون ولكنى أحب شكسبير ... »

وقد برع دريدن في تأليف المأساة البطولية Heroic Play كما تابع تأليفه في ملاحى انسخرية Comedy of humow ومسرحيات دريدن متنوعة : ففيها مأساة البطولة ، وفيها ملهاة السخرية ، وفيها الجامعة بين المأساة والمهاة .

وملاحى دريدن قليلة ، ولكن أقوى مناصر لها وهو سكوت يقول : انها « ثقيلة » غير ان هازلت ، وهو احد المدافعين عن ملاحى عهد الاصلاح قد وجد فيها بعض وجوه الحسن ولكنه في شىء من السرف أو القتامة ! ولقد سما بدريدن كثير من النقاد ، فذكر سير والتر راليه مبلغ نبوغه في التهكم السياسى الذى جارى مختلف العصور . وقال كونجريف : « انى اجازف فأقول : انه لم يكتب احد في لغتنا الانجليزية في كثرة دريدن وتنوع فن دريدن ، ووصل الى جودته . ويقول ايضا : ان شعره يحوى بين ثناياه كثيرا من فنون الجمال بل لئن لم يكن له سوى أغنياته أو مقدماته لكفى ان يند بذلك على بنى جنسه .

ويقول سانتسبرى : ان دريدن قد بلغ ذروة الدراما ، او كما يقول الفرنسيون La tête dramatique في مسرحيات « في سبيل الحب » و « الزوج والبدع وأورنج زيب » .

هذا عن دريدن أمير الشعراء الانجليزى ، أما شوقى أمير الشعراء المصرى فقد كتب للمسرح « مصرع كليوبتره » و « مجنون ليلى » ، و « أميرة الاندلس » ، وغير ذلك ، فأضاف الى الشعر فنا مسرحيا جديدا فاستحق لقب أمير الشعراء بلا مرأه .

بين لورد بيرون وعمر بن أبي ربيعة

يجد كثير من النقاد مشابه شتى بين الشاعر العربي المعروف عمر ابن أبي ربيعة والشاعر الانجليزي الذائع الصيت اللورد بيرون ، وترجع تلك المشابه الى اسباب عدة وبواعث مختلفة .

فعمر بن أبي ربيعة انحدر من اصل طيب ومنبت كريم وعاش بين عامي ٢٣ ، ٩٣ هـ في الحجاز ، وكلنا يعرف البيئة الحجازية في ذلك الوقت ويعرف الشباب انحجازيين من ابناء الخلفاء والامراء ووجوه القوم الذين عاشوا في بسطة من العيش وسعة من الرزق .

وقد عكف الشبان على قلوبهم يمتعونها غاية الامتاع ، فأيامهم قنص وطرود واقامة في البادية او لهو ومرح ومزاح في الحضر او اجتماع حول جدول من الجداول المنسابة او غدير من الفدران الصافية ، او في ظل دوحة من الأدواح القارهة او مجرى ينبوع من الينابيع السائفة ، ولياليهم انس وبشر وغناء وطررب .

كان عمر بن أبي ربيعة شابا من اولئك الشبان السراة ، فارع الطول غض الأهاب ، مرح الشباب ، ظاهر الجمال ، وكان يطوف بالكعبة ينسب بالفواني ويترنم بالأغاني ويتشبيب بالجوازي ، ويترقب مواسم الحج ليتفزل بالرائحات والغاديات .

وكذلك كان لورد بيرون فهو ينحدر من اصل طيب ومنبت كريم عاش بين عامي ١٧٨٨ م ، ١٨٢٤ م ونشأ نبيلاً من سلالة اللوردات ، وورث اللوردية وهو لم يزل طفلاً ، ثم أضاف الى مجد الحسب طلعة جميلة لولا ما كان فيه من طلع يسير ، وعرف الحب وهو في الثامنة من عمره ، فانه لما كان طالباً في المدرسة الثانوية أحب فتاة تكبره وتزوجت سواء ، فلم ينقطع تفكيره فيها وأخذ ينشد فيها الشعر .

وعاش بيرون متمتعاً بحقوق النبالة الا انه لم يرعها حق الرعاية، وانطلق متحرراً من الاوضاع الاجتماعية ، فطرده بقوة الرأي العام من انجلترا . وهام في أوروبا ، وتجرع من كل كأس قطرة ، وعاش في اليونان وبين الجنود الاتراك ، وقطع البسفور سباحة ، وتحمس لاهل اليونان الذين يحاربون الاتراك في سبيل حريتهم ، وقصد الى بلادهم يريد القتال في صفوفهم ، فنالت منه حمى الملاريا هناك ومات في أبريل عام ١٨٢٤ .

وكان لورد بيرون على حد تعبير ماتيوارنولد أقوى قوة دافعة في الادب الانجليزي ، نظم الروائع من الشعر والبدايع من الملاحم مثل عرس أيدوس وتشايلد هارولد وما نفرد وغيرها ، وكان الى جانب انتاجه الادبي الممتاز يمتاز بطلاقة وجهه وبشاشة محياه وأطلقت عليه

الناقدة الفرنسية المعروفة مدام دي ستيل « فيرون الحب » كان يغزو
المجتمعات بقامته المديدة فاشتدت الغيرة بين النساء على حبه ، ودبت
الشحناء وعمت البغضاء ، وتحطمت نفوس ، وتقطعت أنفاس .

وهو في ذلك يشبه الشاعر عمر بن أبي ربيعة ، الذي كان يحب
المغامرة والمخاطرة ، فلم يكن الرجل الذي يقف ويصف ويحوم ولا يرد كما
يقول الزبير بن البكار إنما كان رجلاً بليغ القول بالغ العمل ، تارة ينسب
بزئب وتارة ينسب بهند وحيناً يتشبه بالرباب وحيناً بالثريا وغير
ذلك من الأسماء .

فقال في الثريا :

قال لي صاحبي ليعلم ما بي قلت وجدى بها كوجدك بالعد
من رسولى الى الثريا فانى انحب القنول اخت الرباب ؟
ب اذا منعت طيب الشراب ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

وقال في هند :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد واستبت مرة واحدة
وشفت أنفسنا مما نجد انما العاجز من لا يستبد

وقال في عبلة :

أحب لحب عبلة كل صهر ولولا أن تعنفنى قريش
علمت به لعبلة أو صديق وقول الناصح الأدنى الشفيق
لقات اذا التقينا قبلينى ولو كنا على ظهر الطريق

وحدث قدامة بن موسى قال : خرجت باختي زينب الى العمرة ،
فلما كنا نشرف على عشر ليال من مكة لقيني عمر بن أبي ربيعة على فرس ،
فسلم على فقلت له : الى أين أراك متوجها يا أبا الخطاب ؟ فقال :
ذكرت لى امرأة من قومي برزة الجمال ، فأردت الحديث معها ، ثم أخذ
يصفها لى ويصف مكانها ، فقلت هل علمت أنها أختى ؟ فقال : لا
واستحيا وثنى عنق فرسه راجعا الى مكة ! ...

وبينما عمر بن أبي ربيعة منصرف من المزدلفة يريد منى اذ
أبصر بامرأة فى رحال ففتن بها وسمع عجوزا تنادىها : يا نوار استتري
لا يفضحك ابن أبى ربيعة ، فاتبعها عمر وقد شغلت قلبه حتى نزلت
بمنى فى مضرب قد ضرب لها فنزل الى جنب المضرب ، ولم يزل يتلطف
حتى جلس معها وحادثها ، واذا هى أحسن الناس وجهاً ومنطقاً فزاد
ذلك من أعجاب عمر بها ، ثم أراد معاودتها ، فتعذر ذلك عليه وكان ذلك
آخر عهده بها ، فقال فيها :

علق النوار فرؤاده جهلاً وصبا فلم تترك له عقلاً

الى آخر الأبيات . . .

وكذلك كان لورد بيرون يتفضل بالنساء مثل ماري شوارت وماري باركر وسارة صوفيا وكارولين لامب . ولعل اتعس امرأة وقعت في حب بيرون هي اللیدی كارولين لامب التي أحبته حبا ملك فؤادها وقد أهدت له خنجرا مرصعا بالاحجار الكريمة فقدم اليها الخنجر وقال :
تفضلى ... !

وكما كان عمر بن ابي ربيعة جريئا في معاملته للنساء كان لورد بيرون ، وقد تزوج عام ١٨١٥ وهو في السابعة والعشرين من عمره فتاة كان ينتظر ان ترث ثروة طائلة ، ولكنه لم يقم على حياته الزوجية الا ريشما ولدت له بنته ، وبعدئذ ضاقت زوجته بالعيش معه وهجرته الى اهلها ، فلم يستطع بيرون الحياة في انجلترا فازمع الرحيل الى سويسرا حيث التقى بالشاعر الرومانتيكى شيللى في حمي الثلوج هناك .

وقد احب بيرون « اوجستا » فتاة وتزوجها وهي شابة ممثلة الجسم جميلة الوجه هيفاء القد حلوة التقاسيم ، ثم تبين بعد ازواج انها اخته من ابيه . ويقول اندريه موروا انه نقب عن المستندات التي خلفها بيرون فعثر على بعض الرسائل التي كتبها الى اصدقائه واثبت فيها حبه وغرامه باوجستا . وقد اتمر هذا الحب فتاة تدعى « ميدورا » .

وقد برع عمر بن ابي ربيعة في الشعر الفسائي ، غير انه برز في الاسلوب الشعري القصصي الطريف الذي يختلب الالباب اختلابا وينتزع الاعجاب انتزاعا . فانت مضطر حين تقرا قصيدة من قصائده ان تتابع القصيدة لتعرف نهاية قصته فيها ، بل انت مضطر حين تتصفح ديوانه ان تتلوه من اوله الى آخره ، لان عمر يمتاز بجاذبية عنيفة وقدرة على الاسر والاستهواء للقلوب والعقول جميعا .

وقد جاء في الاغاني ان عمر فاق نظراءه بسهولة الشعر وشدة الاسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر واستنطاق الربع وانطلاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وقال نصيب :

كان عمر اوصفنا لربات الجمال . وقال الفرزدق بعد سماع ابيات من شعره ؟ اتق الله يا ابا الخطاب يا اغزل الناس وقال جرير : انكم يا اهل المدينة يعجبكم النسيب وان انسب الناس المخزومي !

اما لورد بيرون فبرغم انه شاعر خرج على التقاليد - مدح النقاد انتاجه الادبي كالتناقد المعروف ماثيو ارنولد الذي عده اقوى قوة دافعة في الادب الانجليزى كما قلت آنفا . اسمعه وهو يقول لماري شوارت التي تزوجت جون ماسترز :

حسنا انك ترفلين في حبل السعادة

وكم اتمنى ان اذوق الهناء ...

فقلبي لا يزال يرنو الى الرفاهية معك كما داب على ذلك من قبل

بورك زوجك! فسوف يستقى الآلام ... كى يكون على مرأى من
حظه السعيد ولكن كم يحمل قلبى له من الشحناء ...

ان لم يحمل لك الحب الاكيد ...
وداعا يا مارى ... فحتم على الرحيل
فكلما كنت هائثة لا اعرف طعم الاشجان
ولكن قربك لا استطيع البقاء
خشية ان يهوى قلبى سريعا فى هواك !

وقد امتاز بيرون الى جانب هذه الناحية الغزلية الرفيعة بوصف
الطبيعة حتى اصبح زعيما من زعماء المدرسة الرومانتيكية فى الادب
الانجليزى ، تلك المدرسة التى قامت على ايدى بيرون وشلى وكتيس
وورد زورث وغيرهم من شعراء الرعيل الاول فى الادب الانجليزى ،
وامتازت هذه المدرسة بمسحة رائعة من الجمال فى وصف الطبيعة
وتصوير الخلجات الانسانية فى أسلوب عذب رقيق بديع .

ويقول الناقد و. ليك :

« ان انتصارات العباقره ، لاعظم شرفا واجل فخرا من تلك
الانتصارات التى تحرزها القوة الجسدية فى المواقع الطاحنة فوق الارض
والمعارك الضروس فوق اليم ! تتخرب من اثرها الممالك وتندمر المدائن
وتزهق حياة الجنود وتنساب الدماء ! ولكن انتصارات العباقره لانسيل
فيها قطرة من الدماء ، وانما تشير كآثار ضخام فوق الخرافات والاساطير
وتهدى الامم الى الكمال ... وان بيرون من هؤلاء العباقره ... ياخذ
سمته الى كل طريق يصل الى شفاف القلوب فالقلوب تفرح عند قراءته
بالافراح ... والعيون تنهل عند تلاوته .. بالدموع .. فربما كان لبيرون
نقاد .. ولكن لم يكن له منافس !... »

وكان عمر بن ابي ربيعة يستمد كثيرا فى شعوره من وحى الاسلام
ويضمن شعره بعض معانى القرآن الكريم ، وقد لقيته صاحبه فى
المسجد ينظر الى نساء وفى يدها خلوقة طيب من خلوقة المسجد ،
فمسحت به ثوبه ومضت تضحك فقال :

ادخل الله رب موسى وعيسى جنة الخلد من ملانى خلوقا
مسحته من كمها بقميصى حين طافت بالبيت مسافريقا
غضبت ان نظرت نحو نساء ليس يعرفننى مرورن الطريقا
وارى بينها وبين نساء كنت اهلى بهن بونا سحيقا

وكذلك كان لورد بيرون يستمد بعض قصائده من الدين فكتب
ملحمة بعنوان « قابيل » استمد بعض اصولها من الدين المسيحى ، صور
فيها سحق قابيل على خطيئة ابيه آدم وعلى خروجه من الجنة فى جو
دينى رهيب تلعب فيه الأرواح والشياطين ، كما كتب ترانيم عبرية عذبة
المعنى رائعة الخيال ، واستمد بعض صورها من الكتب المقدسة القديمة .

الليل بين الشرق والغرب

كان صاحبي أديبا رائق الحس مرهف الشعور ، صادق الوجدان لا يقر شيئا جميلا من الشعر أو النثر حتى أراه يسعى الي ويحدثني عنه ، حديث المعجب المتذوق ، وكنا نتحدث عن بعض الكتب الأدبية التي ظهرت حديثا للغير من الأدباء والشعراء وكنت أعجب بسعة اطلاعه ، ووفرة محصوله ، وتمكنه من الاحاطة بكل شيء جديد غير أني في هذه المرة وجدته ساكتا ساكنا ، وكنا نجلس في حديقة غناء في الهـواء الطلق والليل مرخ سدوله علينا غير أن النجوم كانت تلتصع في السماء ، وتتألق على صفحاتها كالزهر الأبيض المنثور . ولم يلبث صاحبي أن خفض بصره وقال : هذا الليل الساحر الأخاذ بنجومه المتألقة وكواكبه المتلألئة في صفحة السماء ، وهذا القمر المختال على عرشه في أجواز الفضاء ، هذا الليل يسكونه الرهيب ، وصمته المهيب ، وهمسه الرقيق كم ألهم الشعراء ، وكم سكب ذوب السحر في قلوب الفنانين ! قلت : أراك تتحدث بانفعال عن الليل ، تراك هل أمسيت محببا واقعبا ؟ فقال : كلا يا سيدي فانما الليل قد حظي في الآداب العالمية بأهمية كبيرة ومنزلة رفيعة ، وظل يلهم أرباب الشعر ورسل الفن منذ الأزل الى وقتنا هذا ، وأكبر الظن بل أكبر اليقين ، ان كان اليقين يصغر ويكبر ، أنه سيمظل يلهم أرباب الشعر ورسل الفن حتى يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها ، وجدير بك أن تتحدث الى قرائك هذه المرة عن الليل فاني أجد في حديث الليل متعة ليست بعدها متعة وسعادة لا تعدلها سعادة . قلت :

كان الليل في الشعر الجاهلي ملهما للشعراء الذين كانوا يضربون في الصحراء ويهيمون في الفلاة بين الرمال الصفر والسماء الزرقاء ، وقد ذكر امرؤ القيس الليل في معلقته كما ذكره طرفة بن العبد ولبيد وغيرهم من شعراء المعلقات ، وترجم الأعشى صناجة العرب بسجده وفتنته. ولكن الشاعر الجاهلي لم يجد غير « ليل كموج البحر أرخى سدوله عليه بأنواع الهموم ليبتلي » كما هو الحال عند امرئ القيس ، ولم يجد غير « ليل بطي الكواكب » كما هو الحال عند النابغة ولم يجد غير ليل قد مضى عطف منه فرجع كما هو الحال عند سويد بن كاهل البشكري ، وغير ذلك من التشابيه والتصاویر التي يستمددها الشاعر الجاهلي من البيئة العربية والطبيعة الصحراوية وتساير نفسيته الحرة وتجازي خياله الطليق ، فالليل يتمطي بصلبه ويردف أعجازا ، والليل لا يتقدم الا ليتأخر ، ونجومه كأنها دواب يسحبها الليل سحباً ويسوقها النهار سوقا ، كان بها تناقلا من العرج وتباطؤا من الهمز ، فهي لا تتحرك الا بمقدار وهي لا تتقدم الا بمقدار .

الليل في العصر الاسلامي

ولما انقضى العصر الجاهلي وجاء العصر الاسلامي وجدنا العرب يتفننون في وصف الليل تفننا ، ويتنوعون في تصويره تنوعا ، فالليل قد انتصف عمره والليل قد استغرقنا شبابه ، والليل قد شاب رأسه ، وشمطت ذوائبه . وتقوس ظهره ، وتهدم عمره . والليل تقوضت خيامه ، وخلع الأفق ثوب الدجى ، والليل قد تطرز قميصه بغرة الصبح وافتت الفجر عن نواجذه . وما الى ذلك من خيالات جميلة وتأملات طريفة .

ومن الطبيعي أن يتعرض الشعراء لوصف النجوم عند حديثهم عن الليل ، ولعل أطرف ما وصفت به النجوم قول ابن الرومي :

رب ليل كانه الدهر طولا قد تناهى فليس فيه مزيد
ذو نجوم كأنهن نجوم الشيب ليست تزول لكن تزيد

كما تعرض الشعراء لظلمة الليل ولطوله في كثير من المناسبات ، ولكن الفرزدق ذكر العلة في طول الليل حين قال :

يقولون طال الليل والليل لم يطل ولكن من يبكى من الشوق يسهر

وتابعه بشار في هذا المعنى فقال :

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف الم
وأذا قلت لها جودي لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم
نفسى يا عبد عنى واعلمى أننى يا عبد من لحم ودم
أن فى بردى جسا ناحلا لو توکأت عليه لانهدم

وهكذا أكثر الشعراء من الشكوى من طول الليل وتفننوا في ذلك ماوسعهم التفنن : فمنهم من استعدى محبوبه على وحشة الليل ، ومنهم من طال ليله حتى نسي النهار أو سمات النهار ، ومنهم من ظل ساهرا لأن محبوبه ظعن عنه فاذا الكرى يفر عن عينيه فرارا ويزور عن جفنيه ازورارا . وإذا السهد قد امتلكه امتلاكا فيه كثير من الشدة وفيه كثير من الظلم كذلك . وفي هذا يقول العباس بن الاحنف شاعر العفة الاسلامي :

نام من اهلى لى الارقا مستريحا سامنى قاقا
قد يبيت الناس كلهم وسهادى بيض الحادقا
انا لم أرزق مودتكم انما للعبد ما رزقا
كان لى قلب أعيش به فاصطفى فى الحب فاحترقا

شعراء الحرب

وكما أن الليل كان ملهما للعشاق من شعراء الحب كان الليل ملهما لشعراء الحرب كذلك . فهاهو ذا المعتصم يفتح عمورية ويصب عليها جام غضبه صبا ، وها هو ذا أبو تمام يشهد هذه المعارك الطاحنة وهذه الحرب انزروس والمآسى المروعة في الليل ، فيرسل نفثة من أعماق قلبه ، ويبعث زفرة في اغوار نفسه ويقول :

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
يشاه وسطها صبح من اللهب
حتى كان جلاليب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان في ضحى شجب
فالشمس طالعة من ذا وقد اقلت
والشمس واجبة من ذا ولم تجب

وقد وقف أبو العلاء المعري وقفة امام الليل يخالف فيها هؤلاء الشعراء جميعا :

فأبو العلاء رجل مفقود البصر وليس الظلام عنده بغان ، أبو العلاء يرى الليل عروسا من الزنج عليها قلائد من جمان ، ويتخيل أن الهلال والثريا معتنقان ، والواقع أن أبا العلاء كان برغم فقدته بصره شاعرا مرهف الحس رقيق الشعور متفتح المدارك بعيد التأمل .



أما الليل في الاندلس فقد ظفر بمنزلة عظيمة ومكانة سامية ، غير أن الوصف كان يكمله في أغلب الاحوال ، فالسماة بساط أزرق موشى بالزهر الابيض ، والليل تجنى فيه انلذات دهاقا وتفترع فيه المسرات سراعا .

وهكذا شاعت في الادب الاندلسي ظاهرة التزيين والتزويق في الصور والمعاني ، وبرزت النزعة الابيقورية كما يسميها مؤرخو الفلسفة او نزعة المتعة كما يحب أن يسميها مؤرخو الادب .

الليل

فى العصر الحديث

وفى العصر الحديث لم يغفل الشعراء الكتابة عن الليل ، وعند ما تنفى الشاعر محمود سامى البارودى الى جزيرة سرنديب اهاجت الغربة شاعريته وارهمت احساسه ، واخذ ينظم الشعر فى وصف خلجات قلبه ، ونبضات شعوره ، ووصف الليل الذى يخيم على الأدغال والاحراج وصفا ممتعا جميلا ، غير انه تمنى ان يعود الى اهله وبنيه ؛ فهو لا يستطيع ان يتحمل وحده العيش ، ورهبة الليل

اما امير الشعراء احمد شوقى فانه تنقل بين بلدان شتى ، سافر الى الآستانة ، وسافر الى الاندلس ، وجاس خلال دورها وقصورها ، وتعرض للتعبير عن مشاعره فى الليل ، ولكنه استمد من الليل كثيرا من حكمه المشهورة وامثاله المعروفة كقوله :

كم ساهر خائف والدهر فى سنة
وراقد آمن والدهر فى — شهر
فلا تبينن مختالا ولا ضجرا
ان انتدابير لا تفنى عن القدر

وشعر شوقى حافل بليل الاستبداد وليل الظلم ، وما الى ذلك من استعارات ومجازات استدعتها الظروف السياسية المحيطة فى هذه الفترة .

وهذه المجازات والاستعارات تبلغ ذروتها عند شاعر النيل حافظ ابراهيم الذى كان شاعرا شعبيا يعبر عن احساس الشعب الوطنية اصدق تعبير ، ولا تفوته مناسبة قومية دون ان ينظم فيها قصيدة يبين فيها كفاح الشعب المصرى فى سبيل الحرية والاستقلال ، ومن الابيات الطريفة التى نظمها حافظ ابراهيم قوله :

ياساهر النجم هل للصبح من خبر
انى اراك على شىء من الضجر
اظن ليك قد طال المقام به
كالقوم فى مصر لا بنوى على سفر

ففى هذه الابيات يصور حافظ القلق الذى يعتري المصريين لعدم ادراكهم للحرية فى ذلك الوقت ورغبتهم فى نهار الحرية المسفر المشرق الطلق .

أما عبد الرحمن شكري فإنه كان متأثرا إلى حد بعيد بالشعراء الرومانتيكيين في إنجلترا مثل بيرس شللي ، ولورد بيرون ، وجون كيتس وكولريدج وغيرهم ، إذ عكف عبد الرحمن شكري على قراءة الأدب الإنجليزي عكوفاً تاماً ، فبان أثر هذا الأدب في إنتاجه الفني ، وقل مثل ذلك عن الأستاذ عباس محمود العقاد ، وقد نهل من المنهل الذي نهل منه شكري ولا سيما كتاب « الكنز الذهبي » الذي جمعه « بالجريف » وعلى ذلك فالسمة البارزة في شعر شكري والعقاد عن الليل هي استمداد شعرهما من المعين الرومانتيكي الصافي .

أما شاعر الجندول على محمود طه فله قصيدة عذبة في غرفة الشاعر بالليل وهي من اللون الغربي في الشعر ، صور فيها الشاعر ساهداً ساهراً ، تحت ضوء مصباح خافت وهو يفكر ويظلم التفكير ، ويتأمل ويبعد في التأمل ، وهي من أروع ما كتب على محمود طه ، وتشبه إلى حد بعيد قصائد الشاعر الفريد دي موسيه في الغرض نفسه

هذه هي بعض خطوات عن الليل في الأدب العربي

أما في الأدب الغربي فقد كان الليل ملهماً لكثير من الشعراء والفلاسفة ، وصور نيثسه وشوبنهاور رهبته في كثير من حديثهما ، وكان دعامة لكثير من نظريتهما الفكرية وتأملاتهما الميتافيزيقية .

وقل مثل ذلك عن الأدب الألماني كله أو جلّه فهو أدب القوة وأدب العبقرية والخاود .

أما شعراء الرومانتيكية في أوروبا فقد أكبروا الليل في أشعارهم ووجدوا فيه مرتعاً خصيباً لخيالهم ومجالاً فسيحاً لأحلامهم ، وأطيفوا حبيبة لذكرياتهم ، مثل الشاعر شللي وكيتس وبيرون في إنجلترا ، ولامارتيه وفيكتور هوغو والفريد دي فيني ، والفريد دي موسيه في فرنسا . فقال الشاعر شللي في إحدى قصائده :

امض سريعاً أيها الليل فوق أمواج الغرب

وأخرج من الكهف الملبد بالغيوم في الشرق

فعندما يخبو نور النهار الطويل

تنسج أحلام الفرحة والحلال

التي تجعلك رهيباً عزيزاً

جب أيها الليل فوق المدائن والبحر والبر

تلمس كل شيء بعصاك السحرية

فإنه تواق يبحث عنك

فعندما نهضت من نومي رأيت الفجر يتنفس

فأرسلت زفرة من أجلك أيها الليل .

وعندما انتشر الضوء في الفضاء والتمعت الأنداء
انسكب التور على الزهور والشجر
ثم رقد النهار متعبا مكدودا يستريح
يترنح كضيف ثقيل الظل
فارسلت زفرة من أجلك أيها النهار .

الموت يحجم عندما ينقشع النهار سريعا سريعا
والنوم يحل عندما يولى الأديبار
فمن التمس الصنيع وأرجو الجميل ؟
اسألك أيها الليل الحبيب
أن تدنو سريعا .. سريعا .
أما لورد بيرون فانه استمد أوصاف حبيبته من الليل فقال في
قصيدته « تسير في الجمال » :

انها تسير في جمال كأنها الليل المميز
يخطر دون سحائب ، لماع النجوم
وكل شيء أبيض ناصع واسود دامس
يجتمع في أهداب عيونها السوداء
كانما تنتمي الى النور الناعم الوديع
الذي تضن به السماء على الأيام الحالكة
وعندما تبدو في انظلال ينبثق منها شعاع
ذو جمال تعجز عنه الأسماء
يتحرك في الفضاء في وجه الاطيار
أو ينعكس في فتنة على محياها
حيث تتراءى في الافكار عذبة معبرة
فما أجمل حيث تكون هاتيك الأفكار ! . . .

وامتزج الليل عند الشاعر رابندرانات طاغور بنزعة التصوف
الخالصة ، فنراه عندما يتعرض للحديث عن الليل يدرك رهبته وجلاله
وجماله ، ويتطلع الى خالقه كأنه طفل صغير تائه في عالم عظيم محفوف
بالأسرار والأستار ، فاذا هو يتلاشى في هذا الوجود كما تتلاشى القطرة
من الماء في البحر الخضم .

ومن شعره قوله : « أيها الشاعر ، ان الليل قد أرخى سدوله
ورأسك قد اشتعل شيبا ، أفسا رن في أذنك صوت يأتي اليك ليقتحم
عزلتك من الغيب السحيق ؟ بلى لقد هبط الليل وانى لأرهف السمع لعل
أسمع صوتا ينحدر الى من القرية في هذه الساعة المتأخرة !

وانى اتلهف لعلى ارى قلوب الشباب تتلاقى ، او اسمع الموسيقى
تصدح لتقطع وحشة هذا الصمت الرهيب وتعبر عن عواطف المحبين
المكبوتة .

فمن ذا يكون هنالك لينشد بأعذب الألحان اذا ما جلست أنا على
ضفة الحياة أفكر فى الموت وما بعد الموت .



وهكذا كان الليل وحيا لشعراء العرب كما كان وحيا لشعراء الغرب
والشرق فسيبحان من خلق الليل والنهار وأقسم بالليل اذا سجى وأبدع
الكواكب والنجوم . فاذا كل فى فلك يسبحون .

وما ان انتهيت من حديثى حتى وجدت الدموع تتساقط فى عيني
صاحبي بالليل .

البحر

بين الشرق والغرب

منذ وجود البحار في هذا الكون ، وتقسيم الأرض الى ماء ويابس ،
ولكل عنصر من هذين العنصرين جمال خاص ، وسحر معين يبهر العقول ،
ويأخذ بمجامع القلوب .

والفنان الحق هو الذي يستطيع أن يضع أنامله على مواطن الفتنة ،
ومنايات الجمال ، ويتخذ من محاسن الطبيعة ميدانا لفنه ، ووحيا لبناات
أفكاره ، والفنان الحق هو الذي يجد في هذه العناصر مالا تجده عين ،
ويسمع منها مالا تسمعه أذن ، ويجول بخلده مالا يجول في خلد غيره .

والبحر ملهم للأدباء والفنانين على تطاول الأزمان وكر الأيام ، ونواحي
الدهور ، وقد تحدث الله تعالى في كتابه العزيز عن البحر في مواطن شتى
فقال في سورة يونس : « هو الذي يسيركم في البر والبحر (١) » .

وقال في سورة ابراهيم : « وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر
بأمره وسخره لكم الانهار (٢) » .

وقال في سورة الرحمن : « وله الجوار المنشآت في البحر
كالاعلام » (٣) .

وقال في سورة الاسراء : « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر
والبحر (٤) » .

واقسم بالبحر في سورة الطور فقال تعالى : « والبحر المسجور،
ان عذاب ربك لواقع (٥) » .

وروى عن ابن عباس رضي الله عنه انه قال : « لما أراد الله عز وجل
أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ، ووصف من طولها وعرضها وسمكها
ثم نظر اليها بعين الهيبة ، فصارت ماء يترقرق لا يثبت في ضحضاح ، فما
برى من التموج والاضطراب ، انما هو ارتعاده من خشية الله تعالى ، ثم
خلق الريح فوضع الماء على متنه ، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء
وفسر بذلك قوله تعالى : « وكان عرشه على الماء » .

ولم يعرف أغلب الشعراء الجاهليين البحر ، ولم يجر ذكره في
شعرهم اللهم الا الشعراء الذين طوفوا في البلاد ، وتنقلوا بين شتى

(١) آية ٢٢ ، (٢) آية ٣٢ (٣) آية ٢٤ (٤) آية ٧٠ (٥) آيتا ٧،٦ .

الأقطار والأمصار ، وركبوا متن البحار أو دنوا منها ، كالشاعر امرئ القيس أحد أمراء كندة ، الذي رحل الى القسطنطينية وعاش فيها فترة من الزمان ، وشبه الليل بموج البحر .

ولما فتحت بلاد الشام وشاهد العرب سفن الروم تطلعت نفوسهم الى مسابرة أعدائهم في ركوب البحار ، وطلب معاوية بن أبي سفيان من أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، أن يأذن له بغزو بلاد الروم عن طريق البحر ، غير أن عمر بن الخطاب توجس خيفة من هذا العمل ، ولم يشأ أن يتورط في هذه الحملة ، فسأله أن يصف البحر قبل أن يركبه فكتب اليه عمرو بن العاص كتابا ادبيا تاريخيا يصف فيه البحر وجاء فيه .

« يا أمير المؤمنين ، انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركذ احزن . وان ثار ازاع العقول يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود .. »

فلما وافى هذا الكتاب عمر بن الخطاب تبلبلت نفسه ، وعاج خاطره وكتب الى معاوية يقول : « لا والله الذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » .

ولكن كراهية البحر لم تدم في نفوس المسلمين طويلا ، اذ لم يلبثوا بعد ذلك أن أنسوا اليه وركبوا متنه في عهد عثمان ومعاوية بن أبي سفيان ومن أتى بعدهما من الخلفاء ، وفتح العرب كثيرا من الجزر الكبرى في البحر الأبيض المتوسط ، وأهمها صقلية ورودس ، وانتزعهما من يد الدولة البيزنطية ، وشرع الكتاب والشعراء يصفون البحر ، ويعبرون عن شعورهم حياله ، ويقفون على شطآنه وقفات طويلة يستلهمون موجهه ويناجون عظمته .

ورود وصف للبحر في كتاب نفع الطيب للمقرئ جاء فيه .

« والبحر تحتنا كارض تميد بأهلها وتزلزل بوعرها وسهلها ، ونحن بعد دود على عود ، فقد نبت بنا من القلق أمكتتنا ، وخرست من الفرق السننتنا ، والرش يكتنفنا من كل جانب ، ويسيل من أثوابنا سيل المذائب ، فشممنا ريع الموت وطننا التاف والغوت » .

وسرعان ما أصبح البحر موضوعا في أدبهم ، ووحيا لأمثالهم ، ومجالا لتشبيحاتهم وكتاباتهم فقالوا : « أعمق من البحر » « وأندى من البحر » وقال ابن الرومي :

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلا وتعلق فوقه جيفه

وقال أبو نواس :

من قاس غيركمو بكم قاس الثماد الى البحور

وقال ابن رشيق :

البحر مر المذاق صعب لا جعلت حاجتي اليه

أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه
وقال ابن حمد يس :

لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب
طين أنا وهو ماء والطين في الماء ذائب

وقال السلامي :

وميدان تجول به خيول تقود الدارين ولا تقاد
ركبت به الى اللذات طرقا له جسم وليس له فؤاد
جری فظننت أن الارض وجه ودجلة ناظر وهو السواد

ولما استقر الأمر للعرب في الأندلس أواسط القرن الثاني الهجري
تقريبا من سنة ١٤١ هـ ظهر في الأندلس شعراء وأدباء كثيرون ، وأغرم
بعضهم بالبحر غراما شديدا فوصفوا جماله ، وفتنته ، وحكوا ليااليهم
ويبهجتهم بين رحابه ، وعلى ضفافه ، حيث تدور الاقداح وتعزف الأوتار .
وتصطفق المجاديف ، ويحلو الغناء :

فقال السرى يصف شرب ليلة في زورق :

ومعتدل يسعى الى بكاسه وقد كاد ضوء الصبح بالليل يفتك
وقد حجب الغيم السماء كأنما يزر عليها منه ثوب ممسك
ظلمنا نبت الوجد والكأس دائر ونهتسك أستار الهوى فتهتك
ومجلسنا في الماء يهوى ويرتقى وابرقنا في الكأس يبكي ويضحك

وقال ابن دراج الأندلسي المعروف بالقسطلي ، وكان يسكن الأندلس
كالمتنبي يسكن الشام على حد تعبير الحصري القيرواني :

إليك شحنا الفلك تهوى كأنها وقد ذعرت عن مغرب للشمس غربان
على لبح خضر اذا هبت الصبا ترامى بنا فيها ثبير وثيلان
وان سكنت عنا الرياح جرى بنا زفير المنى ذكرى الأحبة حنان
يقلن وموج البحر والهيم والدجا تموج بنا فيها عيون وآذان
الا هل الى الدنيا معاد وهل لنا سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

ففي هذه الابيات نلمح خوف الشاعر من البحر ، ورهبته من موجه ،
وخشيته من ثورته ، ولعلنا نلتمس للشاعر العذر في ذلك ، فإن السفن
البحرية لم تكن ترقى في بنائها وضخامتها ، وفخامتها وأمانها الى مستوى
السفن في العصر الحديث ، وكان ركوب البحر يتطلب شجاعة كافية ،
وثباتا في الجنان .

ويظهر أن ابن الرومي كان يشبه الشاعر القسطلي الأندلسي في هذا
الشعور ، اذ كان يخاف ركوب البحر خوفا شديدا ، ولما ندبه أبو العباس
ابن ثوابة الى الخروج اليه وركوب دجلة توجس خيفة ، وتملكه شعور
عجيب من الرهبة ، وسجل هذا الشعور في أبيات صادقة جاء فيها :

أذاقتني الأسفار ماكره الغنى
لقيت من السبر التباريح بعنما
الى وأغراض برفض المطالب
لقيت من البحر أبيضاض الذوائب
وفى سهر يستغرق الليل واصب
فما زلت في جوع وخوف ووحشة

وقد علل ابن الرومي خوفه من البحر بعدم اجادته السباحة ، فلو
سقط في البحر فهو لابد هالك لأول وهلة بل انه يمر به في الكوز مر
المجانب ، ويخاف أن يجد السم ممزوجا بالماء الذي يشربه فيسلمه الى
الموت فما بالك بالركوب في البحر الحضم ؟

وأما بلاء البحر عندي فانه
ولو ناب عقلي لم أدع ذكر بعضه
طواني على روح من الروح راقب
ولكنه من هوله غير نائب
ولم لاولو القيت فيه وصخرة
لوافيت منه القعر أول راسب
وأيسر اشفاقي من الماء أننى
أمر به فى الكوز مر المجانب

ولما جاء العصر الحديث ، وتقدمت المدنية خطوات واسعة الى الامام ،
وأصبح ركوب البحر أمرا سهلا ميسورا والغى تطور العمران المكان
والزمان الغابرين ، وطفقت السفينة تطوى البحار ، وتصل الى بلد لم
تكونوا بالغية الا بشق الأنفس ، أخذ الشعراء يكثرون من ذكر البحر فى
شعرهم :

فلما نفى محمود سامى البارودى فى جزيرة سرنديب اخذ يصف
وحدته ووحشته ووصف البحر وصفا مشيرا خلايا .

ولما رحل شوقى الى الاندلس مضى يصف رحلته ، ويصف البحر
ورهبته وكذلك فعل عندما سافر الى الاستانة ، وفى كل بقعة من البقاع
عبر فى سبيلها بحرا ، وألقى فيها عصا التسيار ، ونظم حافظ ابراهيم
بعض شعره فى البحر . ولما سافر الى ايطاليا عام ١٩٢٣ نظم هذه
القصيدة التى جاء فيها :

عاصف يرتضى وبحر يغير
فكان الأمواج وهى توالى
أزبدت ثم جرجرت ثم تارت
ثم أوفت مثل الجبال على الفلك
فى ثنايا الأمواج والزبد المنسد
مر يوم وبعض يوم علينا
ثم طافت عناية الله بالفلك
علكت دفة النجاة يد الله
أنا بالله منهما مستجير
محنتات ، أشجان نفس تشور
ثم فارت كما تفور القودور
وللفلك عزيمة لا تخور
وف لاحت أكفاننا والقبور
والمنايا الى النفوس تشير
فزالت عمن تقل الشرور
فسبحان من اليه المصير

وهكذا أخذ حافظ ابراهيم يصف تلك المشاعر المختلفة التى تنتاب
قلب المسافر عندما يركب البحر ، ولا سيما عند ما بصطخب الموج ،
وتميل السفينة يمنة ويسرة فى يد الريح ، فيجثم القلق فى قلوب
المسافرين ، ويلوح الغرق على وجوههم ، وتتردد مصايرهم بين الحياة
والموت ، وبين النجاة والهلاك ، ولم يلبث حافظ ابراهيم بعد ذلك أن
جنح الى فكرة فلسفية فقال :

أيها البحر لا يفرنك حول واتساع ، وانت خلق كبير
انما أنت قطرة قد حوتها ذرة في فضاء ربي تدور
انما أنت قطرة في اناه ليس يدري مداه الا القدير
ووقف شاعر المهجر الكبير ، ايليا أبو ماضي ، امام البحر وقفة
الخيران وتساءل عن أصل الانسان وهل الماء أصله ، كما يقول الفلاسفة
الاغريق أو ماذا ؟ وسأل البحر هل يعلم كم من السنين مرت عليه ؟
وسأل الشاطئ هل يدري انه جاث لديه ؟ وسأل الأنهار هل هي منه اليه ؟
ولكنه لما لم يظفر بجواب يبسدد حيرته ، ويذهب قلقه وشكه ، تملكه
الذهول كل التملك ، قال في تعجب :

ترسل السحب فتسقي أرضنا والشجرا
قد أكلناك وقلنا قد أكلنا الثمرا
وشربناك وقلنا قد شربنا المطرا
أصواب ما زعمنا أم ضلال
لست أدري

يرقص الموج وفي قلبك حرب لن تزولا
تخلق الاسماك لكن تخلق الحوت الأكولا
قد جمعت الموت في صدرك والعيش الجميلا
ليت شعري أنت مهده أم ضريح
لست أدري

فيك مثلي أيها الجبار أصداف ورمل
انما أنت بلا ظل ولي في الأرض ظل
انما أنت بلا عقل ولي يا بحر عقل
فماذا يا ترى أمضى وتبقى
لست أدري

اتنى يا بحر شاطئاه شاطئنا
الغد المجهول والأمس اللذان اكتنفاكا
وكلانا صائر ، يا بحر ، في هذا وذاكا
لا تسألني ما غد ؟ ما أمس ؟ انى
لست أدري

وهكذا كان البحر عند ايليا ابي ماضي موضوعا من موضوعات الفكر
، أعمال العقل والبحث في أصل الانسان ومعرفة حقيقة الوجود، ومناقشة
آراء الفلاسفة في هذا الميدان ، وتطور من الوصف الساذج الى الوصف
الجميل ، ومن الحوف والرعب والسكينة والاطمئنان الى مجال آخر يعمل
فيه الشاعر عقله ويعبر عن شعوره ووجدانه ويضفي على هذا الحضم
الذي يجثم حيال بصره *

وجبران خليل جبران هو أحد أعلام الأدب الحديث ، وقد ابتدع لنفسه طريقة في الكتابة اكتسب بها إعجاب قرائه ، واستطاع أن يصور بعبقريته النفاذة البحر ، وما في البحر تصويرا أخاذا ، فهاهو ذا يصور في حديث له حوار سمكة لأختها ، قالت السمكة لأختها :

« فوق بحرنا هذا بحر آخر وفيه مخلوقات متنوعة ، تعيش وتسبح هنالك كما نعيش هنا ونسبح » فأجابتها أختها وقالت :

« تلك أوهام ، تلك أوهام ، ألا تعلمين أيتها العزيزة أن كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيروط واحد ويبقى خارجا عنه يموت في الحال ؟ .. إذن فما حجتك على وجود أحياء أخرى في بحار أخرى ؟ .. »

كما استطاع جبران خليل جبران أن يدرك بحسه المرهف ، وشعوره الفياض أغنية « التنينة » التي تحرس كهوف البحار السبعة فقال :

سـيأتى قريتى راكبـا على الأمواج
وسيملا الأرض رعبا بهديره العجاج
وستندلع نيران رهيبـة فى أقاصى الفضاء
عند خسوف القمر سـأزف اليه

وعند كسوف الشمس سأل « جورج جوس » آخر فيذبحنى .
ولجبران قصيدة شعرية أخرى غير أغنية « التنينة » تمتلئ بالعواطف
والعواصف كما يمتلئ البحر الحضم المسجور :

نى سـكون الليل لما تنثنى
يصرخ الغاب : أنا الغـرم الذى
غير أن البحر يبقى ساكنا
قائلا فى نفسه : الغـرم لى

ويقول الصخر : ان الدهر قد
غير أن البحر يبقى صامتا
قائلا فى نفسه : الرمز لى

ويقول الريح : ما اغربنى
غير أن البحر يبقى ساكنا
قائلا فى نفسه : الريح لى

ويقول النهر ما أعذبنى
غير أن البحر يبقى صامتا
قائلا فى ذاته : النهـر لى

ويقول الطود : انى قائم
غير أن البحر يبقى مادنا
قائلا فى نفسه : الطود لى

ويقول الفكر : اننى ملك
غير أن البحر يبقى هاجعا
قائلا فى تومه : الكلى لى

هذا هو موقف جبران خليل جبران حيال البحر ، وهو موقف مترع بالفلسفة مملوء بالحكمة ، محوط بالعمق ، وجبران ينتقل فى وصفه من صورة الى صورة ، ويرى الصراع الذى يدور بين الكائنات ولا تشعر به الا النفوس الشاعرة ، ويصور البحر فى شعره بكل ما فى أعماقه ، من الغرائب والعجائب ، والمدافق والأسرار ، وما على سطحه من الامواج المزبدة الغضوب ، المتسارعة ، المتهادية ، والأبخرة المتصاعدة المتبددة المتساقطة : ثم ينظر متأملا فيما وراء البحر فىرى الفضاء غير المتناهى بكل ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس والأقمار .

ولم يقتصر وصف البحر على الأدب العربى فحسب ، بل شاع فى كل آداب العالم ، واستمد منه الكتاب والشعراء قصصهم وقصائدهم ، وفى الأدب المصرى القديم أوصاف جميلة للبحر ، جعله الشعراء مرتعا لحبهم ، ومجالا لقضاء أنسهم ، وانفاق لياليهم ، وما الحياة فى نظر المصريين القدماء الا بحر خضم رحيب رهيب ، وليس لأحد أن يظلم ، وسوف يحاسب كل على عمله ، وسيبعث الانسان حين وصوله الى الشاطئ الآخر أو الى الحياة الأخرى ، وكل نفس بما كسبت رهين ، واستمد شعراء الفراعنة شعرهم من ماء النيل فقال شاعرهم :

« لخير لى أن أركب النيل وأندفع فى تياره ، وأحج الى بيت الله فى ممفيس ، وأضرع اليه أن يوفقنى الى رؤية أختى . . . فاذا قدمت خفى قلبى وطوقتها بذراعى ، وشعرت بالسعادة فى أعماق نفسى ، واذا دنت وفتحت ذراعيها لى شعرت كأن أركب روائح العطور تغمرنى . . . »

وحفل الأدب اليونانى القديم منذ آلاف السنين بكثير من الأساطير عن البحر ووصف سيمونديس الامورجى النساء فى قلبهن بالبحر فى قلبه فقال :

وأخرى خلقت ذات طبيعين

فيوما تراها مشرقة ضاحكة

ان رآها فى دارها غريب لم يدخر ثناء

قائلا ليس على وجه الأرض مثلها ظرفا وسناء

وربما تعبس فلا تقوى على الدنو منها والتطلع اليها !

ونظم ثيوقريطس كثيرا من شعره فى وصف البحر وفى الصيادين وهم يرمون شباكهم فى البحر ، ويخرجون من أكواخهم فى الصباح الباكر من أجل هذا الغرض ، ونظم غير ثيوقريطس من شعراء الاغريق القصائد فى وصف البحر ، وغرائبه ، وحاطوه بكثير من أدب الميثولوجيا الحلاب . ولا أحب أن أختتم هذا البحث دون أن أنوه بمنزلة البحر فى الادب

الانجليزى : فانجلترا جزيرة كبيرة فى البحر ، واهلها قوم يركبون
البحار ، ويعتمدون فى اقتصادهم على ما تاتى اليهم من خيرات تجليها من
الخارج ، ولذلك وجدنا اغلب شعرائهم يتأثرون بالبحر فى شعرهم ،
فوجدت قصص « روبنسون كروزو » ورحلات جوليفر وغيرهما، والشاعر
الرومانى بيرس شلى يركب البحر ، ويطوف بشتى البلاد ، ويصف جمال
البحر ، وسحره ، ولا يزال حبه للبحر يغريه بالجلولان حتى مات غريقا فى
ايطاليا عام ١٨٢٢ وهو فى الثلاثين من عمره ، والشاعر الليريكى
« وتنسون » يعجب بالبحر اعجابا شديدا ويسوق اليه احدى رواثه :

واصخب ايها البحر على الصخور الشهباء الباردة
فليت للسانى قدرة على اننطق بالافكار التى تجيش فى نفسى
جميل أنت للغلام الذى يلتمس الصيد أو يلهو مع شقيقه
والغلام الملاح الذى يشدو فى زورقه على الخليج
وللسفن الضخمة التى تشق الماء الى مراسيها تحت التل

والشاعر الرومانتيكى الحالم « لورد بيرون » الذى اذكى الحركة
الرومانتيكية فى الأدب فألف «مانفرو» و «الكافر» و «عروس أبيدوس»
و « القرصان » و « تشايلد هارولد » وغيرها من الروائع - لم يقف جامد
الحس أمام البحر ، بل ناجاه بقوله :

انى لاستمتع بالغابات الكثيفة الألفاف المنسدة المسالك
وانى لانعم على شاطىء خلا من الخلائق
وهناك أجد سامرا يؤنسنى حيث لا يعكر على الحياة انسان
هنالك الى جوار البحر الخضم الذى يزأر بألحان من الموسيقى
ليس هذا انتقاصا لحبى للانسان ، ولكنه ازدياد فى حبى للطبيعة
وانى لاحبك يا بحر اذ كانت سعادتى
فى ميعة الصبا تحملنى فوق صدرك
فأطوف كانى من حبابك الطافى على الشبح

وهكذا يمضى « لورد بيرون » فى قطعته الخالدة مخاطبا البحر هذا
الخطاب الجميل مستعرضا صورا من الطفولة البريئة والعبث المرح
البهيج ، فوق الماء حتى اذا ماتغير البحر ، واشتد الموج ، وارتفع الأذى ،
غدا مصدر رعب ، ومبعث ذعر ، الا أنه رعب رهيب وذعر حبيب فى نظر
بيرون لا يخلو من مواطن للجمال ، للسحر الشهى الحلال .

ويستعرض بيرون فى قصيدته الخالدة ، مانشا حول البحر من
مدنيات عريقة ، وأمجاد عظيمة ، وما نشب حول البحر من عراك شديد،

وقتل مستمر عنيف ، ويعرج على « الارمادا » ويسرد غنائم الطرف الاغر
وغيرها من المعارك الحربية الحامية الوطيس .

هذه هي نظرات الأدباء والشعراء الى البحر على اختلاف بيناتهم
وهي نظرات تختلف معانيها من شاعر الى آخر ، وتتفاوت بين درجات
الشعور في الخوف والرعب ، أو الهدوء والاطمئنان ، والاقبال أو الاعراض ،
والحب أو الكراهية وذكريات الأنس ، والشراب ، أو ذكريات الموت والهلاك
وصور المدنية أو وهم الأساطير ، وهي نظرات متعددة المعاني ، ومتماثل
مختلفة المصادر ، وطعوم متفاوتة الأذواق .

خليل مطران والفريد دي موسيه

كان خليل مطران على صلة قوية بالثقافة الأوروبية ولا سيما الأدب الفرنسي ، وقد ترجم كثيرا من مسرحيات شكسبير مثل عطيل وماكبث وتاجر البندقية وقيل انه ترجمها عن النسخة الفرنسية لعدم تمكنه من اللغة الانجليزية ، كما ترجم ليوالي الفريد دي موسيه ورواية هرناني Hernani لفكتور هوجو وترجم لكورني مسرحيات السيد Le Cid وسينا Cinna وبوليبيكت Polyeucte وترجم لراسين رواية برنيس Bérenice

وقد كان شاعرنا الكبير مولعا أشد الولع بالأدب الرومانتيكي ولا سيما شعر الفريد دي موسيه وفكتور هوجو وقد نظم كثيرا من القصائد المستوحاة من أدب هذين الشعارين ، ونظم قصيدة أطلق عليها (فيكتور هوجو) سجل فيها إعجابه بهذا الشاعر الذي ترنم بأحلام البشرية وآلامها في أسلوب رقيق ومعنى مبتكر فريد ، كما أعجبه سيرة الشاعر الرومانتيكي الحالم الفريد دي موسيه وقصة حبه مع الكاتبة الذائعة الصيت جورج صاند وقرا ما كان بينهما من مساجلات أدبية - مثل قصته المشهورة (اعتراف فتى من فتیان العصر) confession d'un enfant du Siècle التي مثل فيها جورج صاند في شخصيتين مختلفتين تمام الاختلاف : أولاهما شخصية العشيقة الخائنة المتقلبة ، والآخرى شخصية الصديقة الطاهرة الذليل الأمين على العهد .

كما قرأ قصة جورج صاند التي ردت بها على اعترافاته ، وأطلقت عليها « هي وهو » Elle et lui ثم دخل بول دي موسيه شقيق الفريد شخصا ثالثا في هذا الخصام فكتب قصة ثالثة بعنوان « هو وهي » .

لا شك أن «مطران» قرأ هذه المساجلات جميعا كما قرأ ليلة مايو وليلة أكتوبر وليلة ديسمبر وخطابا إلى لامارتين وإلى أخى بمناسبة عودته من إيطاليا وكل هذه قصائد من أجمل الشعر الفرنسي نظمها موسيه في حبه كما كتب أقصوصة الشحرور الأبيض نشرها :

لاشك أن مطران تأثر بهذا كله حتى قال في إحدى قصائده عن «الفريد دي موسيه مصورا حياته المثلثة وحبه العنيف :

عاش هذا الفتى مجبا شقيا	وقضى نجه مجبا شقيا
وبكى دمع عينه في سطور	جعلته على المدى ميكي
منشد للغرام لم يشد الا	كان انشاده نواحا شجيا
شاعر كان عمره بيت تشبيب	وكان الأنين فيه الرويا
ان في نظمه لحسا لطيفا	بناقيا عنه على السطور خفيا

الفريد دى موسيه يمثل المذهب الرومانتيكى فى الشعر الفرنسى
كما أن « خليل مطران » يمثل المذهب الرومانتيكى فى الشعر العربى .
والرومانتيكيون ما فتئوا يهزون قلوبهم التى بين جوانحهم لانها كما يقول
الفريد دى موسيه هى مصدر العبقريّة .

ومادة الفن عند الرومانتيكيين العاطفة والخيال على مشاهد الطبيعة
ومعالم الشعوب وعادات الماضى وينظرون الى الطبيعة على انها كائن حي
ينبض بالحياة ، فما أروع أزاهير الاقحوان وسط حقول القمح ! وما
أجمل شعاع الشمس يسطع فى الماء ، ولشد ما تأخذنا الغبطة اذ نحلم
ونحن مستلقون على ظهورنا فى مركب صغير ينساب مع الموج عادتنا نحو
الشاطئ ، كما يقول أميل فاجين فى دراسته الأدبية .

نجم المساء لموسيه

وقد كان دى موسيه من هذا الطراز من الشعراء . نطس الى نجم
المساء وأنعم النظر وتأمل وأغرق فى التأمل ثم نظم قصيدة من أروع
قصائده أطلق عليها « نجم المساء » وجاء فيها :

يا نجم المساء الباهت ويا رسول البعد الشاسع . يا من يخرج
جبهته لامعة من بين أستار الغروب ، من قصرك العالى فى هذه السماء
المفروشة بالنجوم ماذا تبصر أنت فى هذا السهل ؟

ان العاصفة تنأى ؛ والهواء بهم بالهدوء ، والغابة التى ترتجف تسقط
دموعها فوق أوراق النباتات ، والفراشة المذهبة تقطع المسافات وتعبّر
الحقول المعطرة بخفتها . . . عم تبحث أنت فوق الأرض الناعسة !

ويمضى الفريد دى موسيه فى تأملاته الرائعة وخیالاته الخالصة وصوره
الجميلة مجسما النجم يتحدث اليه كأنه صاحبه وصديقه وسميره ،
وأنيسه . ويحاول أن يقف على كل خطوة من خطواته وكل حركة من
حركاته فى صفحة السماء الزرقاء . . . فيقول :

آه ! انى الآن قد رأيتك من فوق الجبال تطاطى . أتهرب وأنت
تبسم ؟ وإبتسامتك المرتعشة تقترب من الاختفاء بهذا النجم المنحدر
فوق الهضبة الخضراء . . . انك تغمر بدموعك القضية الحزينة معطف
الليل وأنت تنظر من بعيد الى ذلك الراعى السائر على حين أن قطيعه
الطويل يتبعه خطوة اثر خطوة . . . أيها النجم ، الى أين أنت ذاهب فى
هذا الليل الفسيح ؟ هل تبحث عند الشاطئ على سر بين الغاب ؟ الى أين
أنت ذاهب أيها الجميل فى هذه الساعة الهادئة ؟ أتود السقوط مثل
الجوهرة فى لجة الامواه العميقة ؟

وقد كتب خليل مطران قصيدة فى الليل والكواكب أطلق عليها
(مشاكاة بينى وبين النجم) وقد سجل فيها آلامه المبرحة التى يكابدها
فى سبيل الحب وسأل النجم أن يعذره فى هذا الهوى وقد جاء فى هذه
القصيدة :

أرى مثل سهدى فى الكوكب
يهيم هيامى من وجدده
إذا سرت بحرا أراه به
وان سرت برا يجارى خطاى
رفيق السرى فيه جمى يذيب
أسر هواك الى صاحبى
أما كل ذى كلف متعب
وبى مثل مابك من شاعل

وهكذا كان خليل مطران يناجى النجم كما كان دى موسىه يناجيه .
موسيه تصور النجم حائرا فى السماء كأنما يبحث عن حبيب غائب .
ومطران تصور النجم محبا حائرا مغرقا فى حيرته ينطلق جهة اليمين وجهة
اليسار ، ولا يقر له قرار كحاله .

والمعروف فى الشعر الرومانتيكى انه يمتاز برنة الاسى والاسف
أو مايسميه الفرنسيون « مرض القرن » ويسميه الألمان (فلتشموتز) أى
الضيق بالحياة ويسميه الانجليز الملائكوليا Melancholy

وقد كتب دى موسىه قصيدة من أروع قصائده تسمى « حزن »
Tristesse تصور هذا المذهب اصدق تصوير ، والذي يدقق البحث
فى ديوان خليل مطران يجد هذه النزعة ظاهرة فى أكثر من قصيدة
كقوله فى مطلع قصيدة (العزلة فى الصحراء خير من العيشة فى المدينة)

ولوا المدينة وجهكم ودعونى
عودوا الى البلد الامين وغادروا
تلك الحضارة لا أحب جلالها
ماذا دهانى فى اختبار أهلها
أنا فى هواى وعزلتى وجنونى
بلدا لبعبد الناس غير أمين
وأرى محاسنها شباك فتون
من كذب آمالى وصدق عيونى

هذه لمحات بين الفريد دى موسىه و خليل مطران وانها لمحات متعددة
ممتعة نكتفى بهذا القدر منها .

القمر

في الأدبين العربي والغربي

أطلق العرب على القمر أسماء كثيرة ، فهو تارة يسمى بالواضح وتارة يسمى بالباهر وتارة يسمى بالزمهرير ، كقوله تعالى (لا يرون فيها شمسا ولا زمهيرا) .

ومنذ فجر الشعر العربي تناول الشعراء في شعرهم القمر بكثير من الأوصاف وكثير من التشابيه والتصاویر ، وقد أذكت البيئة الصحراوية شاعرية الشعراء ، فصحراء تمتد امتداد البصر حيث يلتقي خط الرمال الصغراء مع خط السماء الزرقاء ، وقمر ساطع يتألق في السماء ، ويسكب أكواب النور على الأرض في وحشة وسكون وروعة وفتون . وقد كان القمر أنيس السارى والمدلج الحائر الذى طال به السفر وأدركه الكثير من وعناء الطريق .

وقد ضرب العرب الأمثال بالقمر ، فقال قائلهم : أضيع من قمر الشتاء ، وإذا حاولت أن تعرف لماذا كان قمر الشتاء ضائعا أدركت أن قمر الشتاء لا يجلس الناس فيه لكثرة الغيوم والمطر وقال قائلهم أيضا : ان يبع عليك قومك لا يبع عليك القمر .

وإذا حاولت أن تعرف السر في ذلك أدركت أن القمر يرقب الناس من عليائه في خيرهم وشهرهم ، ولكنه لا يستطيع أن يعين الشرير على شره كما لا يعين الخير على خيره ، وقال قائلهم كذلك : أضوا من القمر واتم من البدر ، وأكبر الظن أنك لست في حاجة الى محاولة معرفة سر هذا المثل لأن وضوحه يغنى عن كل بيان .

وقد كانت أوصاف الشعراء الجاهليين للقمر مستمدة من البيئة الجاهلية ، فهو أنيس المدلج السارى . وهو سامر السامرين ، والركب المخب في الصحراء ، ولم تتعد وتتطور أوصاف الشعراء الجاهليين للقمر مثل هذا التعقد والتطور الذى نجده في الأدب الاندلسي مثلا كقول الشاعر :

وكسان الهلال نون بلين غرقت في صحيفة سوداء
وكقول آخر :

وقد الهلال كسطر طوق على لبات زرقاء اللباس

وكقول عبد الله بن علي الكاتب :

كشف البدر وجهه لتمام فوجوه النجوم مستترات

وكان البدر للتمام عروس وكان النجوم منتقيات

وهكذا تعددت صور الشعراء للقمر والذي نلاحظه أن نظرة الشاعر الى القمر تختلف بين فرد وآخر : فبينما نجد شاعرا يفرم برؤية الهلال ويفتن في تصويره كابن المعتز الذي يراه كزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر ، نجد عبد الله الكاتب يفرم برؤية البدر الكامل ، فيعبر في بيتين من الشعر عن منظره الحلاب وسحره الأخاذ في نفسه .

وقد تفنن ابن المعتز في وصف القمر كل التفنن وأحبه حبا جما
مثله في هذا الحب كالشاعر الانجليزي جون كيتس John Keats
الذي اعتبره النقاد في أوربا عاشقا للقمر لكثرة ما نظم فيه من شعر
ولكنني في الواقع أقول هذا القول في كثير من التحفظ ، فلا ابن المعتز
منهج خاص في طراز الشعر ، ولكيتس منهج خاص في أسلوب الشعر
ولم يلتقيا ولا يمكن أن يلتقيا .

ومن المعاني الغربية التي صاغها يحيى بن هذيل في وصف القمر
هذا المعنى :

والثريا دنت من البدر حتى خلقتها دارعا يدير نخبا
أما في باب الغزل فقد تفنن الشعراء العرب في وصف محبوباتهم
بالقمر وسحره ، بل إن بعضهم لم يرقه هذا الوصف ولم يسترح الى هذا
التصوير ، كإبي علي تميم بن المعز صاحب مصر :

شبهتها بالبدر فاستضحكت وسفحت قولي وقالت متي
والبدر لا يرنو بعين كما ولا يميظ المرط عن ناهد
من قاس بالبدر صفاتي فلا
وقابلت قولي بالنكسر
سمجت حتى صرت كالبدر
أرنو ولا يبسم عن ثغر
ولا يشد العقد في نحر
زال أسيرا في يدي هجرى
وكقول أبي اسحاق الصابي :

مانس لا أنس ليلة الاحد
قبلت منه فما حجاجته
كان مجرى سواكه برد
وريقه ذوب ذلك البرد
والبدر ضيفي وأمره بيدي
تجمع بين المنام والشهد

وعندي أن أبيات أبي اسحاق الصابي هذه من أروع ما كتب من
الغزل ، لالبراعة الشاعر في الاستعارة ولا لروعة الشاعر في النظم ، ولكن
لانه صور لنا تصويرا بديعا بهجته في ليلة الاحد مثلما يصور الشعراء
المحدثون هذه البهجة على ضفاف السين أو على ضفاف التيمز أو في بلاد
العم سام .

أبيات الصابي هذه عالمية رائعة ، لولا أن بعض ألفاظها ترد الى الشعر
العربي والبيئة العربية ردا سريعا كلفظ السواك الذي يعتز به
العربي .

وشبه ابن خفاجة الأندلسي القمر بتشابيه كثيرة مستملحة وكان في بعض الأحيان يمهّد لذلك تمهيدا أو يحيط الصورة بهالة من الأجواء الخاصة مثله في ذلك كمثل المصور الذي يعرف مواطن الظلال ومواضع النور ، فوصف ابن خفاجة السرى في طلعة الليل الحالك وما يواجه ذلك السرى من رهبة في النفوس وهلع في القلوب وما يلاقيه السارى في الصحراء من حيوان مفترس وما يأنس إليه من قمر يسكب عليه نوره . اسـمعه يقول :

ومفازة لا نجوم في ظلمائها يسرى ولا فلـك بها دوار
قد لفنى فيها الظلام وطاف بي ذنب يلم مع النجى زوار
والليل يقصر خطوه ولربما طالت ليالى الركب وهى قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق فيه ومن خط الهلال عذار
ومن الأوزان الرقيقة والمعانى الطريفة فى الشعر الأندلسى قول
ابن زيدون :

متى أبشك ما بى يسارحتى وعذابى
ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
الا كوجهك لـا أضواء تحت النقاب

وإذا كان شعراء الأندلس قد برعوا في وصف القمر وتفننوا في عرض صورته ولوحاته كل التفنن ، فإن بعض شعراء المشرق قد استخلصوا من القمر الحكمة واستمدوا منه الموعظة البالغة والرأى السديد كقول الشاعر :

المـرء مـثل هـلال حـين تبصره يبدو ضعيفا ضئيلا ثم يتسق
يزيد حتى إذا ما تم أعقبه كـر الجديدين نقصا ثم ينمحق
وكقول ابى تمام الطائى :

لهفى على تلك الشواهد فيهما لو أخرجت حتى تكون شمائلنا
ان الهلال اذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

كان القمر فى الأدب العربى اذن ولا يزال مصدرا من مصادر الجمال ومبعثا من مبعث الروعة والفتنة فى الأدب . فالشعراء اما أن يستوحوا منه شاعريتهم فيصفوه وصفا جميلا ، واما أن يشبهوا به عرائس أحلامهم وملهفات قريضهم ويتلاعبوا بالمعانى تلاعبا ، ويتضاربوا بالافكار تضاربا ، واما أن يستوحوا منه الحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن بعض الشعراء لم يكفه هذا كله ، بل لجأ الى شىء يناقض هذا كله ، فهجا البدر هجاء مرا ، وقد ذكروا أن أعرابيا رأى رجلا يرقب الهلال ، فقال له :

ما ترقب فيه وفيه عيوب لو كانت فى الحمار أرد عليها ؟ فقال :
ماهى ؟ فقال : انه يهدم العمر ، ويقرب الأجل ، ويحل الدين ، ويقرض
الكتاب ، ويشحب اللون ، ويفسد اللحم ، ويفضح الطارق ، ويدل على

السارق ، ومن عيوبه ان الانسان لو نام في ضوءه حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل ، ويهيج عليه الزكام والصداع .

وقد ضمن الشاعر ابن الرومي قصيدة من قصائده عجايب للقمر فقال :

لو أراد الأديب أن يهجو البد ر رماه بأخطأة الشنعاء
قال يا بدر أنت تغدر بالسنا رى وتزرى بزورة الحسناء
كلف في شحوب وجه يحاكي نكتا فوق وجنة برصاء
يعتريك المحاق ثم يخليك شبيه القلامة الحجناء
ويليك النقصان في آخر الشهر فيمحوك من أديم السماء

لم يسلم القمر من الهجاء في الادب ، ولكن لعل هذا الهجاء تطمئن اليه نفوس كثيرة وترجع اليه ابحت كثيرة أيضا غير أني مع هذا لاطمئن اليه ولا آنس به ، انما اطمئن وآنس الى قول الشاعر حين يقول :

وبدر دجى يمشى به غصن رطب دنا نوره لكن تنساوله صعب
إذا ما بدا أغرى به كل ناظر كان قلوب الناس في حبه قلب

فأيها خير : المدح أم الهجاء ، الحب أم البغض ، المودة أم الكراهية ، بزوغ القمر أم أفول القمر ، انسكاب الضوء أم احتباس الضوء ، حسناوات يخطرن فيملأن القلب حبا وولها ، ناضرات الوجوه ساحرات العيون ، أم قبيحات يملأن القلب غما وبؤسا ويأسأم فناء مريح ليس فيه هذا ولاذاك؟! من يدري !

أما الرفاعي في العصر الحديث فقد كان له خيال طلق نحو القمر ، ووصفه أروع وصف واجلة حين قال : «القمر زاه رفاف من الحسن كأنه اغتسل وخرج من البحر أو كأنه ليس قمرا بل هو فجر طلع في أوائل الليل بخصرته السماء في مكانه ليثمر الليل . فجر لا يوقظ العيون من أحلامها ، ولكنه يوقظ الأرواح لأحلامها»

كما تصور على محمود طه القمر عاشقا والشاعر يغار من حبه للغلالة الرقيقة نفسها .

وفي الأدب الأوربي ظفر القمر بأهمية كبيرة ولا سيما عند شعراء الرومانتيكية في إنجلترا وفرنسا ، فلامارتين في تأملاته التي أصدرها عام ١٨٢٠ وفي إيقاعاته التي أصدرها عام ١٨٣٠ يتغنى بضوء القمر وليالي الحب المتألقة وكذلك الحال بالنسبة الى فيكتور هوجو ، فان قصائده التي تضمنها ديوانه الضخم منذ عام ١٨٢٢ الى عام ١٨٢٦ تزخر بحب القمر والتغنى بجماله .

وقد نشر هوجو أوراق الخريف عام ١٨٣١ وأناشيد الغسق عام ١٨٣٥ والأصوات الداخلية عام ١٨٣٧ والأشعة والظلمات عام ١٨٤٠ وقد مزج فيها حبه بالطبيعة ومنها القمر المتألق في كبد السماء .

فكانت الطبيعة مرتبطة كل الارتباط بقصة حبه ، وكانت تعبيراته
تفصح عن هذا الحب المتأجج بين جوانحه .

وكان الرومانتيكيون لا يصفون الطبيعة بأسلوب موضوعي ولا يشبهون
القمر بالغادة الحسنة أو بالوجه الصبوح على عادة الشعراء العرب وكما
فعل الكلاسيكيون إنما كانوا يرون القمر ومجالى الطبيعة انعكاسا لما
يعتري نفوسهم من حالات ، ولذلك كانوا لا يقدمون لنا منهم أو أدبهم
الا من خلال ذواتهم ، فالطبيعة ثائرة مع ثورتهم وهادئة مع هدوتهم وهى
عارية فى كآبتهم وناضرة فى انشراحهم . وكذلك القمر تتراعى على وجهه
أمارات الفرح والحزن وتضطرم فيه أحاسيس الشجن أو النشوة .

والرومانتيكيون كانوا يرون فى ظواهر الطبيعة المتعددة رموزا لحياة
الانسان ، ولكن أعظم ما اجتذبهم فى هذه الطبيعة الجمال الخلاب الخالد
بتجدده الأبدى ورأوا جمال الطبيعة جزءا من الكمال الكلى الذى يميز
عالم المثل .

وعلى هذا النحو تأملوا القمر وتغنوا بالليالى العذاب تحت اضواءه
الساحرة حتى كانت أشعارهم مجموعة من الاحلام وموكبا من الرؤى التى
تلم بجفون النائمين .

وقد كانت قصائد دى موسيه « الليالى » من أروع القصائد التى تغنى
فيها الشاعر بحب القمر وانعكست مشاعره عليه وهو يتالق فى عرشه
النورانى البديع .

وقد كان القمر فى الأدب الانجليزى وحيا لكثير من الشعراء نذكر
منهم الشاعر كيتس الذى نظم قصيدة من أروع قصائده بعنوان « كل ما هو
جميل » وقد وصف فيها الجمال بأنه كنز لا يفنى ومصدر لسعادة دائمة .
وكل يوم يمر علينا وننعم فيه بالحياة فى ظل خميلة جميلة واحلام هانئة .
وصحة وسلام نصنع منه رباطا من الزهر يربطنا إلى الأرض برغم اليأس
والحزن .

ومضى كيتس يصور مجالى الجمال فى الشمس والقمر والاشجار فهى
تنشر ظلالها على الأرض جميلة رائعة على حين تكون الاقاصيص الحلوة التى
سمعناها ينبوعا عذبا من شراب خالد ، وكذلك القمر والشعر وكل ما هو
جميل يبقى معنا حتى يصبح نورا يضىء النفس مهما كانت الظلمة أو قلة
الضوء من حولنا ، فهو معنا لا يفترق عنا الى ساعة الموت .

أما الشاعر شللى فانه اعتقد أننا كالسحب التى تحجب القمر فى
منتصف الليل ، فهى تسرع وتلمع وتومض فى حركة مستمرة وتضىء
الظلمة من حولها ، ولكن سرعان ما يحيط بها الليل وتختفى الى الأبد .

وفى قصيدته الى قبره تراه يشبه صوتها الجميل الذى ينبعث منها
بالكوكب الفضى الذى يذوى سراجة الوهاج كلما وضع من الفجر الضياء ،
كما أن الأرض كلها والهواء تدوى بصوتها مثل القمر حين يتعرى الليل
فلا تحجبه سحابة واحدة وتتدفق أشعته فتترع بها جفاف السماء .

وكان القمر في الادب الغربي وسيلة الى الرغبة في المعرفة واستطلاع
المجهول واستكناه الغيب ، وقد ظهر هذا واضحا جليا عند لورد بيرون
الرومانتيكي الظامي الى حب المعرفة ، كما ظهر عند الاديب الشاعر
الالماني جوته الذي تحلق روحه دائما في اجواء خياله ، متطلعا الى الظفر
بأشهر متاع الدنيا وبأجمل نجوم المساء . ويريد أن ينزع حجب أسرار
الطبيعة ولكن لاشيء يملأ رغباته في هذا العالم .

وإذا تظن « فاوست » الى القمر أثار في نفسه مشاعر شتى وخواطر
كثيرة ، وتمنى أن يفتق حجب الغيب للتعرف على المجهول من الأمر
والمغيب من الاحداث فيقول :

أيها الكوكب ذا الضوء الفضي ، أيها القمر الصامت ! طالما سهرت
الليل على مقربة من هذه المنظدة ، وطالما تجليت لي وقت ذاك ، أيها
الصديق الحزين ، فوق اكوام الكتب والاوراق ، آه لو أستطيع أن أتسلق
على ضونك الوديع شامخ الجبال ، وان أضرب في الكهوف مع الارواح وان
أحلق فوق المروج تحت فيض نورك الباهت ناسيا كل مافى العالم من
اناس .

وهكذا كان القمر وحيا لفاوست في الادب الالماني ، وبابا يفتح عن
عالم بعيد كله غموض وابهام وكله تساؤل واستفهام !

الموت

في الأدبين العربي والغربي

لما يمت الأدب العربي ، وهيهات له أن يموت ، بل انه يتقدم شيئاً فشيئاً نحو الحياة والحياة النشيطة الموفورة ، انما أريد أن أبحث في هذا الفصل ، كيف تناول الشعراء الموت ، وكيف وقفوا حيال هذه الظاهرة الطبيعية التي لا بد أن تدرك كل حي .

ليس من شك في أن شعراء العرب قد استمدوا جل أفكارهم من الديانات المختلفة السائدة في جزيرتهم وفي الأقاليم المتاخمة لها ، وان من يتصفح الشعر الجاهلي يجد لبعض الشعراء خواطر في الحياة وخطرات في الموت ، ولكنها لا تتبع نظرية من النظريات ، ولا تسير وفق فلسفة من الفلسفات ، بيد انها برغم هذا كله تضم كثيراً من الحكمة وفيها كثير من الصواب كقول عدى بن زيد من شعراء الجاهلية :

ان أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بعدهم وثمود
بينما هم على الأسرة والانماط أفضت الى التراب الخدود
ثم لم ينقض الحديث ولكن بعد ذا - الوعد كله والوعيد
وأطبأء بعدهم لحقوهم ضل عنهم صديقهم واللدود
وصحيح اضحى يعود مريضاً وهو أدنى للموت ممن يعود

ومن أمثلة العصر الجاهلي كذلك ما قاله عبدة الصفار عن أمية بن أبي الصلت الشاعر الجاهلي الذي قال عنه الرسول الكريم : آمن شعره وكفر قلبه . فقد ذكر أن أمية بن أبي الصلت أغمى عليه طويلاً عند وفاته ، ثم أفاق ورفع رأسه الى سقف البيت وقال : ليكما ليكما ، هانذا لديكما ، لا عشيرتي تحميني ، ولا مالي يفديني ، ثم أغمى عليه طويلاً وقال :

كل عيش وان تطاول دهرًا صائر مرة الى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رهوس الجبال أرعى الوعولا

ولما جاء الدين الاسلامي تناول كتابه العزيز الموت بين ثناياه ، فقال عز وجل : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » (١) وقال تعالى : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاکرام » (٢) وقال أيضاً : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (٣) .

(١) سورة النساء (٧٧) (٢) سورة الرحمن (٢٦ ، ٢٧) (٣) سورة الملك (٢)

وقد جاء في التوزاة كثير من الآيات التي تدعو الى الرهيد وذم الدنيا واستحقار الحياة

وقد تناول الشعراء الاسلاميون الموت في شعرهم وذموا الدنيا ، وطلبوا التهجد والتعبد والورع والتقوى وتصوف نفر من المسلمين ، ونظروا الى الحياة نظرة استخفاف واستهجان كما ظهر نفر من الشعراء الزهاد كابى العتاهية . ولعل هذا النفر من القوم تمثل بقول عبد الله بن مسعود (الدنيا كلها غموم ، فما كان منها سرورا فهو ربح) وقد تناول شاعر عربى الحياة والموت فى بيتين فقال :

نراع لذكر الموت ساعة ذكره وتعرض الدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنى الدنيا خلقنا لغيرها وماكنت منه فهو منى محجب

وقيل ان محمد بن كعب دخل على عمر بن عبد العزيز فحذق النظر اليه فقال له عمر : ما تنظر يا محمد ؟ قال : انظر الى ما ابيض من شعرك ونحل من جسمك وتغير من لونك . فقال : اما والله لو رايتنى فى القبر ، وقد سالت حدقتاى على وجنتى وسال منخرأى صديدا ودودا لكنت اشد نكرا .

وعند ما تناول ابو العلاء المعرى الموت فى شعره كانت له نظرة خاصة فيه ، فهو يعتقد ان الحياة لون من السخف الذى لا طائل تحته ، ويعتقد ان كل ذى روح ينبغى ان يعيش ، فحرم على نفسه اكل كل ذى روح . وقد ضم ديوانه « لزوم ما لا يلزم » كثيرا من آرائه فى الحياة ، فما الدنيا فى نظره الا ميثه وما الناس حوالها الا كلاب نوابح ، غير ان الخاسر من ياكل منها كثيرا ، والكاسب من لا ياكل منها شيئا ، والدنيا دار لا ينبغى للعقلاء ان يبكوا على غيابها ، فما الظافرون بعزها ويسارها الا قريبو الحال من خيابها ، فقال ابو العلاء :

ان حزنا فى ساعة الموت اضعا ف سرور فى ساعة الميلاد
خاق الناس للبقاء فضلت امة يحسبونهم للنقاد
انما ينقلون من دار اعمسا ل الى دار شقوة او رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح ال جسم فيها والعيش مثل السهاد

واذا مات الانسان لم يحفل بجسمه ابو العلاء ولم يرض تكريمه ، بل يرى ان يوارى فى التراب او يفعل به اى شىء ، فانه لا يحس ولا يتالم ، وقد ضمن هذا المعنى فى قوله :

تكرم اوصال الفتى بعد موته وهن اذا طال الزمان هيباء

وقد ذكر الدكتور طه حسين فى كتابه تجديد ذكرى ابي العلاء هذه الملاحظة كما اضاف اليها ان ابا العلاء استحسنت غير مرة تحريق الهند موتاهم فقال :

والنار اطيب من كافور ميتينا غبا واذهب للسكراء والريح
وهكذا زخر الادب العربى بشعر الموت وكثر الرثاء فى الشعر ، وقد

قيل : ان الرثاء أجود شعر ان عرب لانه اصدق عاطفة ولانهم يقولونه
ونفوسهم مفجوعة .

وقد ذكر ابن رشيق في كتاب (العمدة) ص ١١ انه ليس هنالك
فرق بين الرثاء والمدح الا ان يخلط بالرثاء شيء يدل على ان المقصود به-
الميت ، مثل كان او عدمنا به كبت وكبت او مايشاكل هذا ليعلم انه-
ميت .

وسبيل الرثاء ان يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلطف-
والاسف والاستعظام ان كان الميت ملكا او رئيسا كبيرا كما قال النابغة-
في حصن بن حذيفة :

يقولون حصن ثم تآبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح:
ولم تالظ الموتى القبور ولم تنزل نجوم السماء والاديم صحيح !

وابو تمام من المجيدين في الرثاء ومثله عبد السلام بن رغبان
المعروف بديك الجن ، وهو اشد في هذا من حبيب وله فيه طريق
انفرد به .

ومن عادة القدماء ان يضربوا الامثال في المرثي بالملوك الاعزة والامم
السالفة والوعول الممتنعة في قلل الجبال والاسود الخادرة في الفياض
وبحمر الوحش المنصرفه بين القفار والانسور والعقبان والحيات لباسها
وطول اعمارها ، وذلك في اشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر .

اما المحدثون فهم الى غير هذه الطريقة اميل ، وربما اتوا بالجديد
الى جانب اخذهم بالتقليد ، ومن افضل الرثاء في نظر ابن رشيق قول
حسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

فيا قبر معن كنت اول حفرة من الارض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده لقد كان منه البر والبحر مترعا
فتى عيش في معرفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مترعا

هذا وقد مزج كثير من الشعراء الحب بالموت على النحو الذي
يفعله شعراء الفرنجة حيث تزخر بعض دواوينهم بهذا الموضوع كفن
مستقل قائم بذاته ، ومن هذا الضرب في ادب « البالاد » الانجليزى
قصيدة الشاعر يوليوس ميكل المسماة « قاعة كمنر » التى تصور فيها
علاقة ايمى روزيبات بالشريف لستر وكيف انه اثر الملكة اليزابيث عليها
بدافع من الطموح فى المجد والرغبة فى السيادة وكيف تمثل الموت حياه-
بعد ذلك .

وكان ممن تناول الحب والموت فى الادب العربى الشاعر الغزلى
جميل بثينة الذى قال فى احدى قصائده :

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى بيثنة في ادنى حياتي ولا حشري
وجاور إذا ما مت بيني وبينها فيا حبذا موتي إذا جاورت قبوري
هدمتك من حب أما منك راحة وما بك عنى من توان ولا فتر

كما تناول جميل بيثنة الحب والموت في أبيات أخرى :

من حبهـا أتمنى أن يلاقينى من نحو بلدتها ناع فينعـاها
كيما أقول فراق لا لقاء له وتضمر النفس ياسا ثم تسلاها
ولو تموت لراعنتى وقلت إلا يا يؤس للموت ليت أبقاها

وقال ابن رشيـق : ومن جيد ما رثى به النساء وأشجاء وأشده
تأثيرا في القلب واثارة للحزن قول محمد بن عبد الملك الزيات في أم وندة:

الا من رأى العطلـ المـفـارق أمه بعيد الكرى عيناه تبـتـدران
رأى كل أم وابنهـا غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا في الفراش تحثه بلابل قلب دائم الخفقان

هذا وقد ذكر صاحب العقد الفريد أنه كان لمعلـى الطائى جارية
يقال لها (وصف) وكانت أديبة شاعرة باعها المعلى في مصر بأربعة آلاف
دينار ، ودخل عليها فقالت له : بعتنى يا معلى ؟ قال نعم ، قالت :
والله لو ملكت منك مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيا وما فيها ، فرد
الدنانير واستقال صاحبه ، ثم أصيب بها بعد ثمانية أيام ، فرثاها أنجع
رثاء وبكاها أشد بكاء :

يا موت كيف سلبتنى « وصفا » قدمتها وتركتنى خلفا
هلا ذهبت بنا معا فقد ظفرت يدك فسمتنى خلفا

وهكذا تناول الشعراء الموت في الأدب العربى ، وكان ذكـرهم للموت
مستمدا من الدين الاسلامى حيث جاء في الحديث المرفوع (الموت راحة)
كما قال بعض السلف : ما من مؤمن إلا والموت خير له من الحياة ، لأنه
ان كان محسنا فالله يقول : « ما عند الله خير للأبرار » وان كان سيئا
فانه تعالى يقول : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لانفسهم ،
انما نملى لهم ليزدادوا اثما »

غير أن هناك شعراء قلائل عـرفوا بمذهب خاص في الموت كـأبى
العلاء المعرى

ويعد شعر الرثاء في الأدب العربى من أهم الأبواب التى ذكرها
المصنفون والنقاد كأبى تمام في ديوان الحماسة ، وقد مزج بعض الشعراء
الحب بالموت على النحو الذى يلجأ اليه شعراء الفرنجة ، فكان هذا اللون
من أحب ألوان الشعر الى النفوس وأوقع ألوان الشعر في القلوب .

أما الموت في الأدب الغربى فكان ماثرا لفلسفة المتفلسفين وحيرة
الشعراء ، وقد صور الشاعر الانجليزى وليم ترنر تحلل الروح البشرية

على صخر الحياة الحديثة المقفر ، يسقط فوق الحس ، فيبلى كما يبلى الجو
يفعل الماء . فقال في قصيدة بعنوان « كما يتاكل الصخر » :

كالصخر تتاكل روح الانسان

تتاكل وتتفتت مع الزمن

الحس يسقط على سطح بال

جرس بعد جرس

كقطرات الندى تتمتم

أو قطرات المطر ترسم

أو الريح تهب وتصفى

في كل طريق أو منحرج

ناعمة كالأحجار قائمة

بالية بفعل المساء

أو بلاها الليل وأبلاها النهار

وحيدة مهجورة

كالصخر تتاكل روح الانسان

تتاكل وتتفتت مع الزمن

دون أن يسمع لتاكلها صوت

أعلى من صوت المطر

يتساقط على النهر

جرس بعد جرس

تذبل وتنطوي كما

تذبل الزهور

أما الشاعر توماس شيرن البيوت فقد كان له حبال الموت موقوف
عجيب ، وكان يعتقد أن الحياة الجديدة قد جرت على الدنيا الشقاء
كما أن الآلة الجديدة لم تخلف للناس إلا البلاء ، وقد ثار في وجه
الآلة ، وفي وجه تيار المدنية الجبار حتى أنه وصل إلى حد التصوف
في الإيمان بالروح والنفوس من الآلة

وكان البيوت يحن إلى يوم صلاحه وتحطيم بيت الصلصال الذي
يؤويه ، وكان يقول : « بين التصور والخلق يسقط الفل بين القلب ،
والقلب يسقط الفل ما أطول الحياة » كما كان يقول : « قلت لروحي
اهدني يا روح ، فالأمل الذي تأملين أمل الباطل ، وقلت لروحي اهدني
يا روح فالحب الذي تحملين حب للباطل ، لم يبق إلا الإيمان يا روعي ،
ولكن الأمل والحب والإيمان كلها في الانتظار » .

وتعد قصيدة : ت. س. البيوت ، « الرجال الجوف » من أروع

قصائده وتشيع فيها الحسرة ، وينطق بين سطورها الألام ، وتفشيها
سحابة قاتمة من الأحزان ، وغائمة داكنة من الأشجان .

وقال فيها : « نحن الرجال الجوف بالقش حشينا ، وبالقش
حشيت رءوسنا يتوكأ بعضنا على البعض الآخر ، فوا أسفاه كلما
همسنا خرجت أصواتنا الجافة هادئة خالية من كل معنى كأنها صوت
الريح على الحشائش اليابسة أو دبيب أقدام الجرذان وهي تمشي على
الزجاج المكسور في مخابئ الخمر ببيوتنا .

أما أولئك الذين انتقلوا الى مملكة الموت الأخرى بلا تردد
فلا يذكرنا ، فان ذكرنا لم يذكرنا أننا ارواح هاجعة ضائعة بل
ذكرنا أننا الرجال الجوف .

نحن أشكال بلا قوالب - نحن ظلال بلا ألوان - نحن قوى
مشلولة - نحن اشارات بلا حركة .

تلك العيون التي لا أجسر على مواجهتها في أحلامي لا تظهر في
مملكة الموت ، مملكة الأحلام ، فالعيون هناك شعاع من الشمس ،
يشرق على عمود محطم .

وهناك شجرة تتأرجع وأصوات تسمع - في غنساء الريح -
بعيدة رهيبة أشد بعدا ورهبة من نجم يخبو .

أما الشاعر الأمريكي هنري وارزورث لونغفلو ١٧٨٠ - ١٨٨٢ م
فانه كان صاحب نزعة دينية واضحة في شعره ، وكان أبرز حادثة في
حياته كلها موت زوجته الثانية محروقة بعد أن ماتت زوجته الأولى
إبان رحلته الثانية الى أوربا ، وقد تجلى في شعره الإيمان بأدق معاني
هذه الكلمة ، وكانت له فلسفة خاصة في الموت تتراهى بين سطور
أبياته :

ليس هناك موت وما يعد موتا ان هو الا انتقال
هذه الحياة المحدودة الأنفاس
ان هي الا ضاحية من حياة الخلود
التي اطلقنا على مدخلها اسم « الموت »

وقد قال الشاعر الأمريكي ادجار الن بو : « لا ريب ان موت
امراة جميلة خير موضوع شعري في العالم » لأنه كان يعتقد ان الجمال
والموت تقيضان ، وان انشعر لا بد ان يكون مليئا بالخسرة متسرعا
بالشجو والشجن حتى يصل الى شفاف القلوب وهو يشفق الى
الموت لانه باب الى عالم الكمال والجمال ، وفي قصيدة رائعة من
قصائده بعنوان « الى واحدة في الفردوس » يتحدث عن الحبيبة التي
عدت عليها المنون وكثر لها الموت عن أتيايه :

« اما انا واحسرتاه ! واحسرتاه !

فقد خبا منى ضوء الحياة

ابدا ابدا لن

لن تورق الشجرة التي حطمتها الصاعقة .

ولن يحوم النسر المبيض الجناح

ومثل هذا القول يربط البحر

الوقور الى رمال الشاطئ

كل ايامي غيبوبة اثر غيبوبة

وكل احلامي في الليل تسير

الى حيث تلمح عينك السوداء

وحيث تلمح خطواتك

في كل رقصة اثيرية

وعند كل ساقية خالدة !

وقد كانت هذه النزعة التشاؤمية مظهرا من مظاهر الادب الرومانتيكي في اوربا ، وبرزت في شعر الفريد دي موسيه والفريد دي فيني وفيكتور هوجو في فرنسا كما تجلت في شعر بيرون وكيتس وشالي في انجلترا .

فكتب لامارتين في قصيدة « الشاعر يموت » يقول :

تحطمت كأس ايامي ومازالت مترعة

وهذي حياتي تهرب في تنهدات طويلة مع كل نهمة

لا الدمع يستطيع أن يوقفها ولا الندم

وجناح الموت يقرع الناقوس الذي يبكي

ويعلن بضربات متقطعة ساعتى الأخيرة

هل يجب النحيب أو يجب الفناء ؟

أما كيتس ففي قصيدة « الى البلبل » تتسلل الرغبة الى الموت وهو ينصت الى صوت البلبل وهو ينطلق في الفضاء العريض ويتمنى أن يفتنى في أصداؤه النشوى الرخيمة فيقول :

في الظلام انصت وكثيرا ماكنت

كنت نصف هائم بالموج المريح

ادعوه بأسماء لطيفة في أشعار تأملية

كي يأخذ الى الهواء نفسى الهادى

وأكثر من اى وقت مضى يبدو لى أن من الممتع أن أموت

واننى في منتصف الليل بلا ألم

على حين تصب أنت روحك صبا من الخارج

تمثل هذا الجدل النشوان

وستظل تفرد بلا جدوى وقد فقدت اذناى السمع
وغدتا قبرا لانشودتك الجنائزية المرتفعة .

وهكذا تصور جون كيتس الموت فى الصوت الحلو الرخيم الذى
ينساب فى مسمعه رقيقا رقيقا لانه كان يشعر بالحيرة والالام ويحس
بالشجو والشجن ، فانعكست هذه المشاعر الساخطة على الدنيا ،
«الساخرة من الدنيا وزينتها وزخرفها ، على هذا الصوت الجميل
المنطلق .

وهكذا كان شعور الرومانتيكيين جميعا - يرجعون الى ذواتهم
ويعكسون - عواطفهم واحاسيسهم على صور الطبيعة المختلفة .

وفى قصيدة شللى « عند ما ينكر المصباح نلمس هذه الظاهرة
نفسها ظاهرة انعكاس الشاعر على صور الطبيعة ومجالها .

بل ان اوراق الورد عند ما تذوى وتتصوح وتلفظ الوردة انفاسها
«الاخيرة تجمع فراشها للحبيب فى نظر شللى ، وكذلك افكار الحبيبة
يبعد ذهابها يتخذ الحب منها مهذا وفراشا .

وهي الزهرة التي تشبه باقة زهور كورنثوسية
تنتجها من البساتين في بلاد الشام والهند

لغة زهور

بين الشرق والغرب

إن أجمل هدية يمكن أن تهدي إلى الحبيب فتتلج قلبه وتشرح صدره ، وتجعل حياته باسمه ضاحكة - باقة الزهر ، وباقه الزهر تجمع البوانا مختلفة من الزهور : ففيها الورد والياسمين ، وفيها البنفسج والياس ، وفيها الزنبق والأقحوان ، وفيها النوار والريحان ، وفيها الغل والترجس ، وغير ذلك من الزهور التي تشرح الصدر وتفرح القلب ، وتبهج النفس .

وقد فطن الأدباء منذ العصور الأدبية الأولى إلى لغة الزهور فقالوا : إن البنفسج معناه « أفديك بنفسى » وأن الورد الأحمر معناه الحب ، وأن الزنبق الأبيض معناه الصفاء ، وأن الأقحوان الأصفر معناه الغيرة وما إلى ذلك من معان ابتدعها خيال الشعراء ، وتعلق بها المحبون على مر الأيام .

والأزهار نفحة من نفحات الإله عز وجل الذي أبدع خلقه ، وأحكم صنعه وكل زهرة من الأزهار تحمل معنى رقيقا ، وهدفا رفيعا ، وآية ناطقة على قدرته وجماله ، فالله جميل يحب الجمال .

وفي هذا يقول الشاعر خليل مطران الذي أغرم غراما شديدا بالزهر حتى يمكن أن نعتبره شاعر الزهر فضلا عن أنه شاعر القطرين بل الأقطار العربية :

يارب اعظم بما وضعنا
في الكون من آيك العظام
أدق شيء مما صنعنا
كجملة الخلق بالتمام
نشرت نثرا فجاء نظما
بديعة جلية البيان
وكل بيت به استتما
قصيدة تخب الجنان
لكن في صنعك الجليل
أحب شيء لنا الزهر

خلقته بهجة العقول

ومرتع النحت والفكر

تكاد من خلقه الجميل

تستجمع النفس في البصر

وبعض الناس يحب ان يهدى الى احبائه باقة من الورد ، والورد دليل على الحب والخجل لانه يجمع طابع الحب المشتعل والفرام المتقد حينما كما يحمل حياء العذارى الذي يضرع بحمرته وجناتهن . والورد أمير بين الزهور (على حد تعبير الخليل) :

طوائف هذه الأزاهر وكل حذب له أمير

مليكما الورد لم يكابر مناظر فيه أو نظير

تقلد التاج من جواهر وقام للحكم على السرير

أما الفل فآية على نقاء النفس وصفاء الطوية ، وكذلك الزنبق الأبيض الذي يكلل هامات الرياض والربى ، ويحلو لكثير من الفتيات ان يصنعن من الفل عقدا نضيدا ، يحلين به صدورهن أو تاجا نظيما يزين به رؤوسهن ، وما أجمل هذه الأبيات التي نظمها الشاعر في وصف حسناء زانت رأسها بطاقة من الفل الأبيض الناصع :

زانت الرأس بفل هو بالراس تحلى

مارات قبلك عيني وردة تحمل فلا

والنرجس إنما هو ابتسامة الفجر ثم بعد هبوط الظلام ، وتحقق الرجاء بعد انقطاع الأمل وهو أشبه شيء بالروح المقبل من الملائكة الأضواء في نوب الملائكة الأظهار لا في نوب البشر الذين يعيشون على الأرض :

إنما النرجس ابتسامة فجر

الطفت نسجها يد الرحمن

قام في كلة البياض فكانت

ثوب روح لا ثوب جسم فاني

زنبق ناصع البياض تقى

ترتوى من بياضه العينان

وجفون من نرجس داخلتها

صفرة الداء في محاجر عاني

وورد كأنها ملكات

برزت في غلال الأرجوان

وأفانين من شقيق ومن فل «م»

ومن مضعف ومن ريحان

والترجس له قلب اصفر اللون كالذهب النضار ، وحوله غلائل
مشرقة ناصعة البياض ، ومن هنا كان وحياً والهاما للشعراء ، فقلبه
«أشبه ما يكون بالذهب ، وغلائله أشبه ما تكون بالأنامل أو الأصابع
البيضاء ، وفي ذلك يقول الشاعر :

كأنما نرجسنا وقد تبدى من كذب
أنامل من فضة يحملن كاسا من ذهب

وما احلى الترجس وقد بلله الندى فبدا كأنه يسكب الدموع مع
«أن وجهه مشرق ونفوره باسم تتلألا عليه الإبتسامة ، ويشرق منه النور
فقال ابن الرومي :

ونرجس كالثفور مبتسم
له دموع المحدث الشاكي

ابكاه قطر الندى وأضحكه
فهو من القطر ضاحك باكي !

وأغلب الشعراء يشبهون العيون الجميلة الواسعة بزهر الترجس
لما يشع منها من بريق ساحر وسحر أخاذ :

وأحسن ما في الوجوه العيون
وأشبه شيء بها الترجس

أما شقائق النعمان فهي أشبه بالورود الحمراء في لونها وسحرها
وجاذبيتها ، وهي تبدو وسط المروج الخضراء تبهر العين وتسحر القلب ،
ولا سيما عند ما تميل في يد الريح ذات اليمين وذات الشمال ، وقد
وصفها شاعر فقال : (القاضي عياض) :

انظر الى الزرع وخاماته
تحكى وقد مالت امام الرياح

كتيبة خضراء مهزومة
شقائق النعمان فيها جراح

أما البنفسج فقد شبهه بعض الشعراء بزرقه اليواقيت او بالكحل
في الحاظ الملاح المراض الصحاح ، الفاترات الفاتنات ، المحييات القاتلات
او كالمحب المهجور ينطوى على قلب مسجور على حد تعبير ابي العلاء
السندي في رسالته عن البنفسج .

ومن الطف الأوصاف التي أطلقها الشعراء على زهر البنفسج انه
يبدو كأثر القرص في خدود العذارى وفي هذا يقول الشاعر ابن الرومي
أو الحسن الشاطبي :

أشرب على زهر البنف سج قبل تأنيب الحسود
فكأنما أوراقه آثار قرص في الخدود

كما قال شاعر آخر : (ابو هلال العسكري) :
وبحافاتها البنفسج يحكى اثر القرص في حدود العذارى
أما الياسمين فيبدو في تجمعه وبياضه كأنه اكليل العروس ،
يحمل معنى السعادة والهناء والخير والرخاء ، غير أنه في نظر بعض
الشعراء كالانامل البيضاء والعجيب أنها انامل من غير اكف :

وروضة نورها يرف مثل عروس اذا تزف
كانما الياسمين فيها انامل ما لها اكف
أما السوسن فيحمل عند الشعراء طابع الزهو والاعتداد ، وهو
عندهم أشبه بأذنان الطواويس حيناً أو بملاعق من ذهب حيناً آخر
أو نحو ذلك غير أنه يحمل في جميع الأحوال بشير الربيع الطلق الضاحك:

ان كان وجه الربيع مبتسماً
فالسوسن اعجبتي ثنياه
يا حسنه ضاحكا له عقب
كطيب ريح الحبيب رياه
وقال شاعر آخر :

انظر الى السوسن في منبته
فانه نبت عجيب المنظر
كانه ملاعق من ذهب
قد خط فيها نقط من عنبر

وهذه هي بعض أنواع الزهور في نظر اصحاب الشعر وأرباب
الخيال فتبارك الله خالق الاشجار والازهار ومبدع الليل والنهار .
وما اجمل هذه الباقة حينما تحملها الى هؤلاء الذين الم بهم الداء
فتكون بشير براء وشفاء ، فانما الازهار لا تعيش الا للخير ولا تحيا الا من
اجل التضحية والفداء :

انما الزهرة خلق عجيب
فطرة سمحاء سمو الفطرا
خلقت للخير خلقا صافيا
جاوز الضيم وفاق الفيرا
شانها تضحية النفس ولا
شيء غير النفع تبغى وطرا

وهذه الازهار تكون في مجموعها طاقة ناضرة ، وطاقت الزهر هدايا
المحبين الى احبابهم حول الاسرة البيضاء ، وفوق كل طاقة بطاقة تحمل
اسم مرسلها وهي تعبر عن شعوره واحساسه ولكنها في الوقت نفسه
رمز لا أكثر ولا اقل لما في نفسه من طاقة حب واعزاز ، وفي هذا المعنى
يقول الشاعر :

لو أن ما نتمنى يكون منا بطاقة !
أهديت جنة ورد وما رضيت بطاقة !
لكننى من دمائى نظمت هذى البطاقة !

أما فى الغرب فإن الزهور كذلك دليل على الحب ، وآية على الهيام
ووسيلة الى التهادى بين المحبين ، وكانت الأزهار على اختلاف أنواعها
وتباين ألوانها تحمل مشاعر خاصة للشعراء ولا سيما الشعراء الوالهيين
المتدلحين !

ولقد تولدت فى الأدب القديم قصص كثيرة تدور حول هذه الأزهار
منها أسطورة الصدى والترجس *Echo and Narcissus*
وخلصتها أن « أكو » عروس الجيسال كانت بأهرة الجمال ، وكانت
تسرف فى الحديث عن نفسها اسرافا ممتدا الى أن الالهة دبانا
حرمتها النطق اللهم الا الرجوع الاخير من الكلمات وشاء القدر أن تقع
« أكو » فى غرام شاب جميل يدعى نارسيس وهو الترجس ، وهمت
بمفازلته الا انها عجزت عن ذلك فأوت الى الصخور حزينة أسيفة .

وتشاء الظروف أن تنتقم من نارسيس ، فرأى يوما صورته
معكوسة على الماء فأحبها بعدما رفض أن يحب أكو فى وضعها المزدري ،
ولكن لا سبيل الى ضم الحبيب فاعتزل فى حزنه حتى مات ، فأرادت
العرائس أن توارى جسده فى قبر من القبور يليق به ، ولكنها لم تجد من
جسده الا زهرة تحمل اسمه وهى زهرة الترجس ، ولعلها رمز الى
زهرة الترجس التى تنمو على حافة المياه وضفاف الغدران .

كما ظهرت فى الأدب الفرنسى فى القرون الوسطى قصة الورد من
القرن الثالث عشر وكتب الجزء الثانى من القصة جان دى مونج بعد
ذلك بنصف قرن تقريبا ، ثم أتى بعد ذلك جوفرى تشوسر فى القرن
الرابع عشر ، فترجم قصة الورد من أصلها الفرنسى الى الانجليزية .

وتدور هذه القصة حول مقاومة طافت بجفن وسنان فرأى فى بئر
بلورية منظر الروض الزاخر بالحسن ، ووجد فى قاع البئر شجرة ورد
وارفة الاغصان تتوجها وردة كبيرة مفتحة الاكمام رشق بسحرها
بخمسة من سهام الحب فى وقت واحد .

ولم تكن الأساطير هى كل ما يميز الأدب الغربى حول الأزهار
والورود ، انما كانت أداة من أدوات الخيال والجمال فى العصر الرومانتيكى
وكانت البساتين مرتعا لخيال الرومانتيكيين .

وكان الشاعر وليم وردزورث شاعر الطبيعة المرموق فى الأدب
الانجليزى قد التقى بالشاعر كولريدج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) واشتركا
فى ديوان القصائد الغنائية *Syreca Ballads* وبعد هذا الديوان
من أعظم الوثائق فى الأدب الرومانتيكى والتغنى بالحب والجمال والأزهار
والرياحين .

وقد جعل الرومانتيكيون الأزهار تحب وتعشق ، وتحن وتنال ،

بل أن بعض الشعراء مثل هايني في الأدب الألماني جعل شجرة الصنوبر تحلم والزهور تعشق وصور شجرة الصنوبر وهي تفف وحيدة تنام ملتفة في كساء أبيض من جلد ولنج ، وتحلم بشجرة نخيل بعيدة في بلاد الشرق .

وديوانه « أناشيد الليل » الذي ظهر عام ١٨٠٠ ملئ بالصورة الشعرية الجميلة حول الأزهار العاشقة والورود المتدللة بالحب والجمال .

أما بيرون فقد أطلق خياله في ذلك كل منطلق حتى أنه كان يقول : « اننى لا أعيش في ذاتي ، ولكنني أصبحت قطعة من كل ما يحيط بي ، حتى أن الجبال العالية تبدو في نظري كأنها عاطفة » .

ويعتلىء ديوانه « ساعات الكسل » بصور طريفة حول نفسه التي تتفتح للحب كما تتفتح الوردة عن اكمامها تستقبل الربيع ، وحول الأزهار الذابلة الداوية المتناثرة على الأرض ، وحول الغابات المتجردة من أوراقها التي تاهت فيها طفولته ، وكان بيرون يقول : « لكني يصبح المرء شاعرا يجب أن يكون محبا أو شقيا وقد كنت الاثنين حين كتبت « ساعات الكسل » .

وبهذه الروح مضى بيرون يصور الزهور المتصوحة ويعكس مشاعره على جمالها وهو يجوس خلال الروابي المعشوشبة .

وقد استمد الرومانتيكيون خيالاتهم من ذواتهم ومن تلك الصور الشعرية الأخاذة التي لاحت في شعر شكسبير الذي كان وحيا وملاذا للرومانتيكيين الأوائل ، ومن شعر غيره من الشعراء الذين عبروا عن خلجات نفوسهم ونبضات أحاسيسهم كالشاعر المعروف روبرت هرك الذي قال في الترجس :

أيها الترجس اننا لنبكي إذ نراك
تمضي الى الغناء وشيكا
هانتذا تمضي والشمس التي بكرت في شروقها
لم تبلغ بعد في السماء أوجها
قف ! قف !

حتى نرى النهار المسرع في خطاه
قد انقضى

قف حتى تغنى انشودة المساء

.. فاذا ما أدبنا الصلاة معا

فسنمضي معك الى حيث تريد

ويطرب الشاعر تشارلز سوينبرن ١٩٢٧ - ١٩٠٩

من الورود Charles Swinburne

ويكتب «بالاد» بعنوان : Ballad of Dream land

« منطلومة أرض الأحلام » جاء فيها :

أخفيت قلبي في عش من ورد
أخفيته هنالك من أشعة الشمس
أرقدته على فراش أندى من القطن المندوف
تحت الورود أخفيت قلبي
لماذا لا يأخذه النعاس ؟ لماذا ينتفض وهو يقظان ؟
وليس على شجرة الورد ورقة تتحرك
ما الذى جعل الكرى يرف بجناحيه بعيدا عنى ؟
لعلها انشودة طائر خفى !

فشارلز سوينبر يجد مثواه في عش الورد ، حتى يدوق طعم
الكرى ، بيد أنه يظل ساهدا ساهما يفكر وقد اتخذ مقره في عالم الأحلام .

أما الشاعر الأمريكى روبرت فاوست فإنه اتخذ من منظر رآه
على زهرة من الزهور وسيلة الى الفلسفة والنظرة في الحياة فقال في
قصيدة «خطة» :

رأيت عنكبوا ابيض سجيننا ذا رصعات
على زهرة بيضاء يحمل فراشه
كقطعة بيضاء من الساتان
مزيجا من أشخاص الموت والا محال
اختلفوا من أجل الابتداء عند الصباح كما ينبغى
كالعناصر الخليطة في قدر ساحرة العين
عنكبوا كندفة الثلج وزهرة كالزبد
وأجنحة ميتة مشرعة كطيارة من ورق
لم كانت الزهرة تلك بيضاء ؟
وكانت كهمدى بها على جوانب الطريق زرقاء بربرة
وما الذى أتى بالعنكب السيبى الى ذاك العلو ،
ثم اقتاد الفراشة البيضاء هناك ليلاً ؟
خطة من الظلام مروعة لا غير !

وتصور هذه القصيدة النزعة النشأومية أصدق تصوير غير
أنها صورة من التفكير المذبذوب المكروب الذى يعتبر الحياة خطة من الظلام
مروعة ، وحجبا من الطلاسم وضروبا من الألغاز .

كما تثير التساؤل من طرف خفى حول تصرف المقادير وكيف
وأين ومتى ؟

وكتب فيكتور هوغو قصيدة بعنوان « القبر والوردة » صور فيها
حوارا بين القبر والوردة جاء فيه :

قال القبر للوردة :
ماذا صنعت يا زهرة العشاق

بقطر به الفجر رواد ؟

فقال الورد للقبير :

وانت ماذا صنعت بالاولئ الذين هبطوا

جوفك الذي لا ينى عن التقام الاجساد ؟

وقالت الوردة :

ايها القبر البهيم

من ذلك القطر اصنع

شهدا شهيا وعنبرا

فقال القبر :

« يا وردة شائكة

كل روح هنا قدم

صيرته من ملائكة السماء !

وهكذا كان ذكر الازهار والورود في الأدب الغربي لونا من الوان الجمال البديع ، والحسن الرفيع كما كان لونا من الوان الفلسفة الجادة والتأمل في الحياة والاحياء ، وفي البقاء والفناء ، وفي الدثور والخلود ، ولم يكن اثر الازهار متوقفا على التشابيه الرقيقة والتصاوير الجميلة والخيالات المنطلقة والتأملات السابحة .

ولم يكن الجمال في نظر اغلب الشعراء الغربيين شيئا جزئيا ملموسا محسوسا ، انما كان جمالا كليا شاملا كاملا ، وكان صورة متناسبة متناسقة توحى بالمشاعر وتلهم الأفكار ، وتبعث التأمل ، وتحمل المشاعر المعكوسة والاحاسيس الانسانية في هدوئها وسكونها وفي حركاتها وخطواتها في يد الريح ذات اليمين وذات الشمال .

حديث في القصة

بين الشرق والغرب

نشأت القصة منذ فجر التاريخ ، وذاعت وشاعت على الألسنة منذ أن كون الإنسان المجتمع ، ولقد امتزجت القصة عند الإغريق بالثيولوجي والخرافات والاساطير ، كهذه القصص الخرافية التي نجدها عند هزبود ، وقد استمد هوميروس قصصه من الحرب التي نشبت بين الإغريق والطوراديين وحلفائهم ، وهي تلك الحرب التي دامت عشر سنين ، كما استمد الأوديسة مما جرى لأحد أبطال الإغريق وهو أوديسيوس بعد سقوط طروادة .

وقد وضع هوميروس بهذا أساس الشعر القصصي في الأدب الأوربي ، فنشأت الملاحم التي ألفت على غرارها ، مثل الياذة فرجيل ، وكوميديا دانتي ، وفردوس ملتون ، وملحمة أرلندو الغاضب لأريستو ، وغيرها من الملاحم .

وقد تفرع من هذا الشعر القصصي لون آخر من الأدب وهو فن القصص ، وقد تقدم على مر الأزمنة حتى أصبح فنا قائما بذاته في الآداب الأوربية .

ولم يعرف التاريخ قصة أقدم من القصة المصرية ، وذلك لأن المجتمع المصري كان أول مجتمع عرفه التاريخ ، فهناك قصة السحرة الثلاثة التي ترجع إلى ألفي سنة قبل الميلاد .

وقد عرفت مصر في عهد الدولة الوسطى في تاريخ مصر القديم قصة سنوحى ، وقصة البحار الفريق ، وتنسب كل منهما إلى الأسرة الثانية . أما في عهد الأسرة التاسعة عشرة فقد عادت القصة المصرية إلى الازدهار ، وشغف أدباء هذا العصر بكتابة القصص الفرامية والخيالية . وقد بلغ إعجاب المصريين بالقصص حدا كبيرا ، إلى درجة أنهم وضعوها إلى جوار الميت في قبره لتسليته وإبعاد الوحشة عنه ، وعرف المصريون القدماء كذلك قصص الأسفار والملاحين الذين تاهوا في البحار ، أو الهداة الذين ضلوا في القفار .

وربما عرف الأدب الجاهلي كثيرا من القصص ، ولكن الذي لاشك فيه ولا محيص عنه هو أن الأدب الجاهلي لم يصل إلينا كله وإنما وصل إلينا بعضه ، بل إن قدر ما وصل إلينا من النثر الجاهلي لا يعادل قدر ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي مع ما فقد من التراث الجاهلي .

وحرب عبس وذبيان ، وحرب المهلهل بن ربيعة وسيف ذي يزن ، واجراء النيل من جبال القمر كل ذلك اوحى بتأليف كثير من القصص .

وما أن جاء القرن العاشر للميلاد حتى وجدنا قصص ألف ليلة وليلة قد شغلت الناس فترة طويلة من الزمان ، نجد فيها قصة قمر الزمان ، وابن الملك شهرمان ، والسندباد البحري ، وعجيب وغريب ، وفيروزشاه . وقد ترجم كتاب كليلة ودمنة الى اللغة العربية ، وكان اصله الاول ، هنديا ، فأضاف ذلك العمل الى القصص العربي ثروة كبيرة . ولكن بعض ادباء العرب كانوا يعتبرون كتاب « ألف ليلة وليلة » (كتابا غشا باردا) كما روى ذلك المسعودي في مروج الذهب وابن النديم في الفهرست ، ولكن السواد الاعظم منهم ينظرون اليه ككتاب قيم مفيد وتراث ادبي كبير ، وقد تمنى الكاتب الفرنسي ستندال أن ينساها ليقرأها مرة أخرى ويلتذ بقراءتها .

ولقد وجد قصاص في المساجد يقصون على الناس اخبار الامم السابقة ، ويعظونهم ويرشدونهم الى الطريق السوي المستقيم ، كعبد الله ابن سلام ، والحسن البصري ، ووهب بن منبه ، وتميم الداري ، بل لقد اضاف بعض المفسرين في تفسير القرآن عنصر الاسرائيليات وهو الذي قام به بعض اليهود الذين أسلموا ، ككعب الاحبار ، ووهب بن منبه ، كما يقول المستشرق الالماني (جولد تسهر) وقد ذكر ابن الاثير أن ابن ورقاء في حوادث سنة ٧٧ سار في أصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ، ولما لم ير القصاص التفت وقال : أين القصاص فلم يجبه احد ، فقال : أين من يروي شعر عنتره ؟ فلم يجبه احد .

وقد شاعت الوان اخرى من القصص في الادب العربي ، كمقامات الحريري والهمداني ، ولكن هذه المقامات كانت تعنى في الغالب باظهار البراعة في الاسلوب ، والسجع في التعبير ، وتلجأ الى التزويق اللفظي والتنميق اللفوي .

ولقد نهضت القصة في الادب العربي في العصر الحديث وتخلصت من هذه المظاهر وتنوعت وتعددت ، فالفت القصة التاريخية ، والفت القصة الواقعية والقصة الخيالية ، والفت المسرحية . وقد لقيت القصة المصرية على يد الدكتور طه حسين وتيمور وتوفيق الحكيم خيرا كثيرا وتقدما كبيرا . واوشكت أن تطفئ علم الشعر طغيانا عظيما ، وحذت حذو القصة الأوربية في مناهجها وطرائقها وطرق عرضها ، ولا عجب في هذا ، فالقصة في الآداب الأوربية الحديثة اهم انواع النثر الانشائي وأكثرها ذبوعا ، وقد شاعت على أيدي سكوت وذاكري وديكنز وهاردي في الأدب الانجليزي ، وبلزاك وأميل زولا وآناتول فرانس وموبسان في الأدب الفرنسي .

وقد تعددت أنواع القصة ، فهناك الاقصوصة ويسمياها الفرنسيون anecdote وهناك القصة القصيرة ويسمياها الفرنسيون Conte والرواية ويسمياها الفرنسيون Nouvelle

وقد قال سارتر في احدى مقدمات كتبه : « اننا يمكن ان نقول -
بعض التحفظ - ان القصص الجميلة تصبح مشابهة تماما للظواهر
الطبيعية ، فنسى انها من تأليف مؤلف ونعتبرها كصخرة من الصخور
او شجرة من الاشجار ولهذا السبب فانها تعيش » .

ونحن اذا ما استعرنا تعبير سارتر وجدنا كثيرا من القصص
والروايات الخالدة بين ظهرانينا خلود هذه الصخرة الشماء التي
لا تدركها يد البلى ، او هذه الدوحة الفارحة التي لم تصل اليها يد
الفناء . واني لأذكر ان مستر د.س. سافج Savage قد كتب منذ
عهد قريب كتابا عن القصة الحديثة عنوانه : « دراسات ست في القصة
العصرية » وقد تحدث فيه عن القصة عند ارنست همنج ، وفورستر ،
وفرجينيا وولفي ، ومارجيايد ايفانز ، والدس هكسلي ، وجيمس جويس ،
ولكن سافج قبل ان يبدأ حديثه عن هؤلاء القصاصين تساءل : ما الفكرة ؟
واستطرد قائلا : ما القصة ؟ بل ما الفن ؟

وهكذا كان سافج مثله كمثل الذي يقف على المسرح قبل ان
يرفع الستار ليقول دعونا ننسى هل تعجب هذه المسرحية او لا تعجب ؟
ودعونا نعرف اولاً لماذا جئتم الى هنا ؟ !

والواقع ان سافج Savage قد اضطر الى ذلك اضطرارا ،
فهو يعتقد ان للفن تأثيرا شديدا واعتمادا كبيرا على الحياة وعلى
التجربة الانسانية ، فالعمل الأدبي يحمل بين ثناياه تصحيحا وتوازنا
بين الشخصيات الدائبة والموضوعية وبين الكلى والجزئى ، والدائبة
تلتقى دائما مع الموضوعية ، فنجم عن ذلك عنصر جديد هو عنصر
الصدق التام في الأداء .

ويضيف مستر سافج الى هذا قوله : ان القصاص يقدم الحياة
كفن من الفنون كما ان الفنان يقدم الفن كفكرة من الفكر ، راسما
معانيها الخفية ، متتبعا اياها حتى الظهور .

أما فورستر Forster فيقول عن « سافج » انه من الطائفة
الثانية من الكتاب والطائفة الاولى عنده هم هؤلاء الكتاب الذين
يستمدون مؤلفاتهم من واقع الحياة ، أما الطائفة « الثانية » عنده
فهم هؤلاء الذين يتخذون قصصهم من صراع داخلى في النفوس .

وصافج Savage يعتبر « فرجينيا وولف » قصاصة من
نوع غريب ، فهي لا تقسم الحياة الا كتقسيم دقائق الساعة فقصة
« مسز دالوى » مثلا قصة رمزية رائعة تصور تاريخ بيت على شاطئ
البحر ، واحلام طفل في سبيل الوصول الى المنار الذى يتالق نوره في
وسط البحر ، وتاريخ حياة رجل يصل الى هذه الحقيقة عندما يترك
مرحلة الطفولة والشباب فاذا هي حقيقة سقيمة عقيمة .

أما جيمس جويس James Joyce ففي روايته بوليس قد
برع في تحليل الاحساسات المكبوتة والرغبات المكتومة وقصة بوليس
عبارة عن تاريخ يوم من ايام مستر بلوم والناس الذين يتنزهون في

المدينة في ذلك اليوم ، وقد عدتها مسز « فرجينيا وولف » فضيحة هائلة وجريمة منكرة ، وذلك لأنها تنتهى بليلة فاجرة .

وقد ظهرت الرواية التاريخية عند موريس هيوليت Hewlett في كتابه عشاق الغابة كما ظهرت عند ستانلي ويمن Stanley weyman في قصته (بيت الذئب) ، وقد حاول ستانلي هذا منافسة الكسندر ديماس الكبير ، فكتب تاريخ فرنسا في شكل روايات .

وقد ظهرت القصة النفسية على ايدى كتاب كثيرين ، اهمهم د. ه . لورنس D.H. Laurence الذى تلمذ على يد سيجموند فرويد وموريس بارنج Baring صاحب القصص النفسية الكثيرة .

اما القصة الاجتماعية ، فقد ظهرت عند اسراييل زانجويل Zangwill الذى وصف حياة اليهود في كثير من قصصه ، وجولزورثى Galsworthy ، والكاتبة الامريكية هاريت ستو Harriet Stowe التى وصفت حياة الرقيق في كثير من قصصها ، كقصة (كوخ عم توم) .

وليس من شك في ان القصة - سواء كانت تاريخية ام نفسية ام اجتماعية - تحتاج الى فن في تأليفها ، والى قواعد في تنظيمها ، فينبغى ان تكون للقصة وحدة متينة يحاول الكاتب دائما ان يبرزها في اطار واضح مبين ، وينبغى له ان يخضع اسلوبه لموضوعه لا موضوعه لاسلوبه ، كما ينبغى له ان يحسن رسم الشخصيات ، ويحلل مشاعرها ، ويحكم اقوالها وافعالها ، فلا يصدر عمله الا عن صدق ، ولا يبني كلامه الا على معنى ولا ترسم شخصياته الا عن فكرة ، كما ان الكاتب انقصى ينبغى ان يعتنى بأسلوب قصته ولغتها والا ينقلب الى واعظ يعظ الناس ، بل يتخذ من الوسائل في عرضه ومعالجته ما يجعل الأذان مصفية اليه ، والاسماع مشوقة الى شخصياته . وأن يفرق بين القصة والاقصاصة وبين الحكاية والرواية .

وتتردد القصة بين القصر والطول على حد تعبير شارلتون ، فالقصر لأنها تصور افعالا مقصودة ، وقد تقف منها وقفة طويلة محللة مفصلة ، وليس فيها قصر الرواية المسرحية مثلا في التصوير ، فالكاتب المسرحي يكتفى بالإشارة ، فاذا صور وليمة مثلا كوليمة شكسبير في ماكبث ، أو حفلة عشاء أو سمر كما فعل البيوت في حفلة كوكتيل في مستهل الرواية اكتفى بالمنظر دون مقدماته وباعثه . اما الكاتب المسرحي فانه يمهّد لهذه الحفلات بأسلوبه ولا ينزع الأفعال ليجسمها تجسيما على المسرح كما يفعل الكاتب المسرحي .

ويقسم بعض نقاد الأدب القصة قسمين : القسم الأول الخيالى كقصص رحلات جوليفر وروبنسن كروزو وغيرها ، والقسم الواقعى . ومن اقصص الواقعية قصة بلزاك « جلد الاحزان La peau de chagrire » وهى قصة رجل يملك جلد احزان وقد جمع قوة سحرية عجيبة تمكنه من تحقيق رغائبه ، ولكن الجلد اخذ يتقلص الى

ان استنفد الرجل جميع رغباته فاستنفد حياته ، ورواية كندية
لفولتير اقصوصة فلسفية تسخر من التفاؤل والمتفائلين ومن الفلاسوف
الالماني لبيتز الذي يقول : اننى على خير حال في خير عالم ممكن ، وهى
قصة رجل طيب ساذج يدور مع استاذة بنجيليوس ، فيلاقى مايلقى في
من محن وقرصنة وعذاب .

وقد صور جوستاف فلوبير في قصته « سلامب » الحرب التى
كانت بين قرطاجنة ورومة . ويعد اميل زولا زعيم الروائيين الطبيعيين
في فرنسا ، وقد ظهر المذهب الواقعى في منتصف القرن التاسع عشر في
لوحات ميليه وكورييه وروايات فلوبير والفونس دوديه .

اما المذهب الطبيعى فزعيمه موباسان وزولا اللذان كانا يريان
تطبيق مبادئ العلم ومناهجه التى بسطها كلود برنار في كتابه الشهير
« مقدمة لعلم الطب التجريبي على الأدب والقصة » .

لغتنا أمنا الكبرى

ووسيلتنا الى نهضة الشرق

ان اللغة العربية هي امنا الكبرى في شتى الاقطار والامصار ، ويجب ان نصونها ونرعاهما ونحرص عليها لا ان نجعلها عرضة لتيارات مختلفة توهن من قوتها وتفت في عضدها ، لانها لغة القرآن الكريم الذي لا ياتي به الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولانها لغة التراث الادبي الرصين الذي انحدر اليها منذ ابعد الحقب وغابر الازمان .

فهناك ظاهرة واضحة تسيطر على الادب في هذه الفترة ، وهي انسياق الكتاب نحو الاسلوب العامي وايتارهم لهجة المحلية في حوار القصص والمسرحية بحجة الدفاع عن لغة الشعب ، والواقع ان هذا ليس من الحق في شيء فليس الادب الشعبي هو المكتوب بلغة العامة انما الادب الشعبي هو الذي يستلهمه الفنان من روح الشعب ومن مختلف بيئاته فيعبر به عن مشاعر هذه الامواج المتدفقة من الناس في خضم الحياة ، وان هذا الادب الشعبي ليمثل الجانب الاكبر من الادب الحي الحالد في كل امة من الامم وفي كل عصر من العصور .

ومما لاشك فيه ان استخدام اللغات العامية يضعف من العري والشائج بين البلاد العربية لاننا عندئذ سنكون حيال سبيل متلاطم من الالفاظ والعبارات والاساليب المحلية التي هي كالعلمات الخاصة لا تصرف الا في مواطنها ولا تستطيع ان تحيا في غيرها من الامم والبلاد .

فمن الالفاظ التي تستخدم في اساليبنا العربية كلمة يصفق فهي تستعمل في اللهجة المصرية على نحو « ساف » وهي كلمة متحولة اجتمع فيها القلب والابدال ، وفي سورية يقولون (يسفا) بقلب القاف همزة ، وفي العراق يقولون « يصفق » بنطق القاف كافا فارسية ومثل ذلك في كلمة « اول » التي تلفظ بفتح الواو في العراق على حين تقال في اللهجة المصرية اول بكسر الواو ، وكذلك الحال في كلمة اضرب فتلفظ في بعض البلاد العربية بكسر الراء ، اما في اللهجة المصرية فيقولون « اضرب » بفتح الراء مع قلب الضاد دالا .

وغير خاف ان الاختلاف في النطق فضلا عن الاختلاف في التركيب في كثير من الالفاظ والاساليب يقودنا الى الغموض ، ويحيل العبارة العربية الى لون من الطلاسم مما يبعث التفكك بين الامم العربية ويشير الاضطراب بين شعوبها .

ان لغتنا العربية لغة ممتازة فيجب أن نحرص عليها ونصونها
ونرعى تاريخها الحافل المجيد حتى نقوم بتوثيق الروابط بين البلاد
العربية : ومما يروى في هذا الصدد أن القائد الألماني بسمارك قال ذات
يوم « ان اهم حقيقة يجب أن نسجلها في القرن التاسع عشر هي قيام
الوحدة اللغوية بين بريطانيا وأمريكا ، وقد سار بسمارك على هذا النهج
في توحيد الولايات الألمانية » .

كما خطب تشرشل في أمريكا ذات يوم وقال في جموع الأمريكيين
في واشنطن « يجب أن نعمل في القرن العشرين على تحقيق ما قاله بسمارك
في القرن التاسع عشر » .

وان من يرجع الى تاريخ اللغة العربية يجد أن لغتنا هي أم اللغات ،
وقد اشتقت منها لغات كثيرة الفاظا عدة . وقد تمكن الاب العلامة
أنستانس ماري الكرمل الى الوصل الى كثير من الحقائق عن هذه اللغة
بعد كثير من أعمال الروية والبحث والتنقيب فكلمة Habere
وبالفرنسية Avoir وبالانجليزية to have من اصل عربي هو حوى .

ويقول الاب أنستانس الكرمل : « أما كيف اهتديت الى أصلها
العبراني فكان نتيجة عملي هذا وهو أنني حذف من آخر Habele
الحرفين الاخيرين *le* الدالين على كاسعة Suffix تكسح بها أواخر
أفعالهم فبقي منها Habe ولما كانت الواو العربية في القديم تصور
بالباء ولم يكن لهم هاء بل يصرف منها الهاء أي H برز لنا فعل «حوى»
وهو معنى الفعل اللاتيني ، ومن هذا الاصل اخذت الانجليزية To have
والفرنسية Avoir وغيرهما من الكلم التي تعد بالعشرات بل
بالمئات وهذا الفعل كما تعلم أساس مركبات أفعال كثيرة في الالسنة
العربية الأوربية » .

والفعل الثاني يكثر في السنتم *Esse* وبالفرنسية *Etre*
وباليونانية الدورية والإبولية *Essi* أي (أنت موجود) فانظر كيف
تنتقل اللفظة من حالة الى حالة ومن لغة الى لغة والاصل واحد وهو
العربي « آيس » فاذا لفظتها بحركتها كانت لاتينية أو كالاتينية أي *Esse*
نعم ان كلمة آيس لا وجود لها في لغتنا الحالية لكنها كانت في سابق
العهد ، وقد انتبه لها علماءنا اللغويون الاقدمون قال في تاج العروس :
« ليس .. أصلها لايس طرحت الهمزة والنتت اللام « بالياء » وهو قول
الخليل والفراء والدليل على ذلك قولهم أي العرب : اثتنى به من حيث آيس
وليس أي من حيث هو ولا هو وكذلك قولهم : جىء به من آيس وليس
أي من حيث هو ولا هو وكذلك قولهم جىء به من آيس وليس أو معناه
من حيث وجد أو آيس أي موجود ولا آيس أي لا موجودا فخفوا .

وفاكهة «الموز» عرفها العرب في الأندلس فأطلقوا عليها اسم البنان
أي الاصبغ ، فأطلق عليها هذا الاسم في كل اللغات الأوربية *Banane*

وقد اخذت بعض اللغات الشرقية من العربية جملة من الالفاظ
بيد انها لم تستطع النطق بالحروف العربية التي ليست في لهجاتها ،

فالفرس لم ينطقوا بهذه الحروف « ث. ح. ص. ض. ظ. ع. ق » وكذلك المتعلمون باللغة الاردية ، والترك نطقوا من هذه الحروف بالقاف لانها في لغتهم وتركوا الحروف الاخرى وحذفوا في بعض الاحيان ، اداة التعريف من الكلمات العربية الا في كلمات قليلة وجعلوا هاء التانيث تاء : زحمت وعصمت وفطرت ، وانحرفت بعض الالفاظ العربية عن معناها في اللغة العربية كما قيل في الفارسية صحبت بمعنى محادثة وزحمت بمعنى مشقة وقيل في التركية معصوم بمعنى برىء ومحجوب بمعنى خجل .

ولكن اللغة العربية في اثناء ذلك كله كانت الاساس الاول في اصول هذه الالفاظ والتي انجب عنها الابناء .

والمستفاد من هذه الشواهد ان اللغة العربية اثرت في كثير من اللغات . فلها ظل ممتد اصيل ومجد ائيل يجب ان نحرص عليه ونصونه في اعيننا وقلوبنا .

ومن ميزات اللغة العربية التي تمتاز بها على غيرها من اللغات عنايتها بالاعراب ، اذ تتغير اواخر كلماتها بتغير العوامل الداخلة عليها بانزاع والنصب والجر والسكون ، ولا يشاركها في هذه الميزة الا اللغة الالمانية والحبشية ، وكل هذه اللغات امتازت شعوبها بمدنية عظيمة منذ فجر التاريخ . وليس من شك في ان الاعراب يساعد على تفهم المعنى والتخير بين الاساليب .

كما تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير بالفاظها وتراكيبها . ولكل معنى لفظ خاص وهناك الفاظ لتأدية فروع المعاني او جزئياتها. فلكل ساعة من ساعات النهار اسم خاص : فالساعة الاولى الذرور ثم الزووع ثم الضحى ثم الفزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم العصر ثم الاصيل ثم الصبوب ثم الحدود ثم الفروب ، ويقال فيها ايضا البكور ثم الشروق فالاشراق فالراد ، فالضحى ، فالمتوع ، فالهاجرة ، فالاصيل ، فالعصر ، فالطفل والحدود فالفروب .

وكذلك في اللغة العربية تفرعات للافعال كتفرع فعل النظر الى رمق ولمح ، وحلج ، وتوضح ، ورنأ ، واستكف ، واستشف .

ويحكى في معرض نراء اللغة العربية ان الاصمعي حضر يوما مجلس الفضل بن الربيع وجرى الحديث حول الفرس ، فتذاكر الجلوس كتاب ابي عبيدة في الخيل ، فاراد الوزير ان يعلم ما عند الاصمعي في ذلك فقال له قم يا اصمعي وامسك كل عضو من اعضاء هذا الفرس وسمه فاذا سميتها فخذ « فقام وامسك بناصية الفرس وجعل يسميه عضوا عضوا وينشد ما قالت العرب فيه الى ان فرغ منه فاعطاه اياه .

كما تمتاز لغتنا العربية بالاعجاز والايجاز ، ولكل قوم اعجاز في لغتهم ، فيدلون بلفظ قليل على معنى كثير ، ولكن العرب اقدر على ذلك من سواهم لان لغتهم تساعدهم عليه كما تمتاز اللغة العربية بالنفوق في المترادفات والاضداد ففي لغتهم ١٢٤ اسما ، وللنور ٢١ اسما ، وللظلام ٥٢ اسما ، وللمشمس ١٢٩ اسما ، وللشباب ٥٠

أسماء ، وللماء ١٧. أسماء ، وفيها مئات من الألفاظ يدل كل منها على معنيين متضادين مثل قولهم « قعد » للقيام والجلوس « ونضج » للعطش والرى . ونحو ذلك .

كما ان بها كثيرا من الالفاظ يدل اللفظ الواحد منها على معان كثيرة فضلا عن أن كثرة المترادفات في اللغة وتعداد المعاني للفظ الواحد جعلتها واسعة التعبير وسهلت على أصحابها السجع الذي عرفته العربية منذ اغوار العصر الجاهلي في سجع الكهان وحطب الخطباء

وكذلك تمتاز اللغة العربية بحلاوة الإيقاع ، وجمال النغم بين الالفاظ . ورسالة الجرس ، وهذه الظاهرة تتجلى بوضوح في أشعار الحماسة ، وأشعار الفزل ، اذ تمتاز بعض أشعار الحماسة بانتقاء الالفاظ المجلجلة والمدوية التي تهب كأنها العاصفة الهوجاء كما تمتاز بعض أشعار الفزل بالرفقة والتناغم الموسيقي الجميل . ومثال الاول بعض شعر ابي تمام والمنتنبي ومثال الآخر بعض شعر البحتري وبشار .

هذه هي بفتنا مناط آمالنا ولسان حالنا تلقى على عاتقنا مسئوليات كبيرة وتبعات جساما ، وليس من الانصاف في شيء ان ندعى ما يجده من اختلاف في اللهجات صراعا بين الاصول والعروض اما هو في حقيقته الامر انحراف وشدود نستطيع اصلاحه وبيع جماحه اذا ما آمننا بقضيتنا واحلصنا في مسعانا ، وحرصنا على التمسك بهذه اللغة .

واننا لا نبالغ اذا قلنا ان الكويتي ربما لا يفهم المصري في بعض عباراته كما ان العربي ربما لا يفهم اللبناني او السوري ونحو ذلك بل ربما كان الصعيدي المصري لا يفهم لهجة الفلاح في الدلتا في الوجه البحري من الاقليم المصري وهلم جرا .

ولكننا نستطيع برغم كل هذا ان نمحو هذه الفوارق اذا ما آمن اناس بقيمة هذه اللغة وشعروا بوجودها في حياتهم الخاصة والعامه فيما ينشر لهم من كتب او صحف وفيما يذاع عليهم من تمثيلات وبرامج اذاعيه في الاذاعة والتليفزيون وفيما يدور بينهم من نقاش في الندوات والمحاضرات والاجتماعات على اختلاف صورها وتعدد الواهباء . وحينئذ نخلق وعيا عاما نحو اللغة العربية ووجوب التمسك بها .

كما يجب من جانبنا مضاعفة الاهتمام بالعربية في دور التعليم وتهذيب كتب النحو واللغة لان ذلك ينمي ملكة الطالب في اللغة ويفنيه ما امكن عن التراكيب العامية ويمنع اللهجة الاعجمية ان تستحكم في خاطره ، وتقوى على لسانه ، وتمهد له طريق الانشاء ، فلا يشعر كأنه يكتب بلغة غير لفته ولقوم غير قومه ، كما يجب اصلاح طريقة الانشاء بترك الوحشى من الالفاظ والغريب من التراكيب والمعقد من الاساليب واختيار المفردات والجمل التي يمكن العامى فهمها مع فصاحتها .

ولا بد من ان يبدل المسئولون في المجامع اللغوية جهودهم من اجل مساندة اللغة العربية لتطوارات العلم الحديث ، حتى لا نعيش في عزلة عن المجتمع دون ان تدون خصائصه ولا يسجل في صحائفها اسما

الانقلابات الاجتماعية الخطيرة المحيطة بها والتطورات العلمية الجديدة التي تلتف حولنا من كل جانب كالتفتت الذرى والاشعة الكونية وذرات المادة والكهربا والضوء ونحو ذلك ، اذ ان هذه الجهود سوف تضيف الى عمر اللغة العربية اعمارا جديدة ولا تمكن المتطرفين من خنق هذه اللغة ومن خنق لفته فقد خنق نفسه وكم انفاسه وفقد حواسه !

وما اصدق ما قاله بلا كمار العالم الاجتماعى الشهير : « لقد ادت اللغة دائما وظيفه مهمة في التنظيم الاجتماعى ، فقد تولدت بها من حيث انها اداة التفاهم ، الجماعات الصغرى واعتزت ، وكذلك اتحدت جماعات اخرى ، وتتجاذب الشعوب ذات اللغات المتشابهة ، اما الشعوب ذات اللغات المتباينة ففيها ميل الى التنافر ، والصعوبة في اقرار النظام الاجتماعى بين الجماعات المختلفة ذات اللغات المتنوعة والافكار المتنافرة والمساعر المتباينة صعوبة كبيرة جدا حتى انها تلاحظ اليوم في المدن الامريكية ومافيها من اهلين غير متجانسين .

ومع ان اللغة في مثل هذه الاحوال تدعو الى الانقسام كانت في الاصل مدعاة الى الوئام ، واللغة هي وليدة السعى للانصاح عما يخالف النفس من الافكار ، وكل من ينقب منا عن المجتمع البشرى يجد في فعل اللغة وفي رد فعلها سببا من الاسباب الداعية الى حدوثه ونتيجة من النتائج المتولدة عنه . »

وهكذا كانت اللغة دعامة قوية من دعامات المجتمع الصالح على انها رمز المجتمع والى نورها الهادى المتالى تعشو الاقوام الهائمة فى الظلام .

فلنجعل لغتنا العربية نبراسنا الهادى ونعمل على رد عادية المعتدين على لغتنا فانها مهددة بالهجوم كما هددت اشرف بقاعنا ، فان الحرم الذى لا تحميه القوة بابه مفتوح للفارة الشعواء ولنصرن الله من ينصره .

الأدب العربي أدب عالمي

تحت هذا العنوان نشرت جريدة الأهرام انه قد ظهر في بريطانيا اخيرا كتاب جديد بعنوان « الشعر العربي الحديث » وهو مجموعة من الأشعار العربية المترجمة الى الانجليزية وضعتها الدكتورة اريبرى أستاذ اللغة العربية بجامعة كمبردج ومدرسة لندن للدراسات الشرقية والافريقية .

وأحب بهذه المناسبة ان اذكر ان الادب العربي فيه من اللذات القديمة والحديثة ما لو ترجمت الى الآداب الأجنبية لكانت أدبا عالميا راقيا بأدق معاني هذه الكلمة وسأحاول في هذا الفصل أن أشير الى طرف من هذه اللذات التي سبق أن أشاد بها كثير من المستشرقين كمرجليوث وكارليل وكوزان دي برسفال وبردكلمان ونلينو وجولد زيهر وماسينيون وغيرهم واذكر أن المستشرق الانجليزي نيكلسون قد استهوتته هذه الفكرة استهواء شديدا في كتابه « تاريخ الآداب العربية » The literary history of the Arabs كما أن المستشرق ف.ي. جونسون F. E. Johnson قد ترجم المعلقات السبع الى الانجليزية في كتاب أطلق عليه القوائد السبع The Seven poems وعدها من عيون الادب العالمي .

وليس من شك في أن دكتور جونسون قد أصاب الحقيقة في ذلك، فهناك بعض الخطرات الفلسفية والتأملات الروحية في الشعر الجاهلي عند زهير وطرفة تعد من روائع الادب العالمي حتى اليوم .

وقد عد الأستاذ نلينو بعض الآثار الأدبية العربية العالمية وكانت منها رسالة الففران لأبي العلاء المعري ، بل أن الدكتور جورج دلافيد أستاذ الادب العربي بجامعة بنسلفانيا ذكر أن « أبا العلاء وهو شاعر أعمى مثل ملتون وهوميروس يرى فيه العقل العربي ثمرة ما بلغته المدنية الإسلامية في ذروتها من النضج العقلي العظيم والنبوغ الهائل . وقد تكون رسالته من مصادر دانتى في الكوميديا الإلهية ، ولكنه يقف ولا شك في صف واحد مع أسامي ما أنجبت البلدان والاديان جميعا، فهو رجل عربي في نشأته ، ولكنه رجل عالمي لأنه النموذج للنهضة الجديدة للحضارة العربية » .

ويمكن أن نعتبر بعض شعر المتنبي عالما بأدق معاني هذه الكلمة ، فهو يلجأ الى التجربة الشعورية العامة Universal experience ويسوق كثيرا من الحكم في الحياة والأحياء ، وهذا النوع من التجارب الشعورية يعد أرقى أنواع التجارب الإنسانية في الشعر عند كثير من النقاد الاوروبيين كستار ، ولاسل ابروكرومبي في كتابه : الشعر موحيقاه ومعناه Poetry, its music and meaning

وإذا ما صح ما قاله وليم وردزورث من أن الطبيعة تجسيم الروح القدس فإننا نجد عند أبي تمام كثيرا من الصور المجسمة والمعاني الحرة التي يطلق عليها الأوربيون التشخيص Personification

وإذا كان للطبيعة شعر يتشمل في حركة الموج ورجرجة الموج وأريج الزهر على حد تعبير الناقد الإنجليزي وليم هازليت فقد صور ابن الرومي كثيرا من صور الطبيعة التي تعد من أروع الصور العالمية .

وإذا كان الشاعر تصويرا للحياة والواقع كما يقول كلاي Clay في كتابه الناقد الإنجليزي فإننا نجد في الشعر العربي أشعارا تصور الواقع وتصور الحياة لا تعباً بالتحقيق اللفظي والتزويق اللفظي ، بل تحوى المعاني السامية أنتى لا تخدم بالتقدير في الألفاظ التي تشبه الأشخاص المتعبدن على تعبير والتر راليه Walter Raleigh

ونحن إذا ما انتقلنا من ميدان الأدب البحت إلى التاريخ وهو فرع من فروعنا وجدنا بعض الكتب العالمية كتاريخ ابن هشام وابن الأثير والطبري والجبرتي ، أو إلى الجغرافيا وجدنا مترجمات عالمية عن مختصر ابن خرداذبة وقدامة وجزء من الخوارزمي والمقدسي والبستاني، وقد نشر بعض هذه الكتب دي جويه ونللينو ومزيك. وقد نشر البيروني فصلا عن طرق التحقيق الجغرافي في نسخة في مكتبة « جامع محمد الفاتح » باستنبول رقم ٣٢٨٦ وتعد من التحقيقات العالمية .

وإذا انتقلنا إلى الفلسفة اعتبرنا الفارابي وابن سينا والكندي والنظام من مشاهير الفلاسفة في العالم الذين اتخذ بعضهم أسماء أجنبية في المراجع الأوربية .

وقد قال اسكندر فون هومبلد : ان العرب قد نشروا مع دينهم لغتهم الثقيلة بتراث خالد من الشعر لم تبل جدته ولم تتزعزع أصوله وقال ه . ج ويلز H. G. Wells : ان العلوم والآداب الحقيقية لم تدخل أوروبا إلا عن طريق العرب وقال ليبري Libri سان العرب نهضة الآداب في أوروبا مدة طويلة .

ونحن إذا ما انتقلنا إلى أدبنا الحديث وجدنا بعض الآثار الأدبية للدكتور طه حسين ومحمود تيمور والأستاذين الصاوي وتوفيق الحكيم قد ترجمت إلى الآداب الأجنبية واعتبرت آدابا عالمية بأدق معاني هذه الكلمة، وقد صرح نفييل باربر في مجلة « الثقافة الإسلامية Islamic Culture بهذا الرأي من قبل ، وأكبر الظن ان كثيرا من النقاد العرب والغربيين يشاركوننا في هذا الرأي إلى حد بعيد .

المذهب الرومانسي

في الشعر العربي

كلمة الرومانسية من الكلمات التي أتت لنا مع الفكر الغربي ، ولقد طغى المذهب الرومانسي على الأدب في فرنسا وانجلترا فترة طويلة من الزمان وصيغ الآداب الأوربية بصيغة خاصة ، ويمكن أن نجد خصائص هذا المذهب في الأدب العربي وأن لم يتخذ اسم المذهب الرومانسي .

والواقع أن كلمة الرومانسية قد اشتقت من أصل لاتيني ، ولم توجد على حالها المعروفة إلا منذ القرن التاسع عشر ، وقد تباير معناها عند فرلين وتوماس سبرات وتنسون وجيته وستندال ولويس برتران ، فيقول بعضهم :

ان الرومانسية بعد عن الواقع وتحليق في اجواء الخيال وانقياد للمشاعر الخفاقة والاحاسيس الوثابة وتنقل بين الاقطار وحب للأسفار وترنم بالاشعار .

ويقول بعضهم : ان الرومانسية هي الأدب المكتوب باللفة الدارجة او الكلام الذي يطلق العنان لتخيل او الطراز القوطي للشعر ، وقد جاء في قاموس السفوردي أن الرومانسية تطلق على ثلاثة أشياء الفكرة الخيالية والميل الى الخيال والتزام المذهب الرومانسي في الشعر ويطلق عليه الفرنسيون « مرض القرن » والانجليز « الملائكولي » .

ونحن اذا ما تصفحنا تاريخ الشعر العربي صادفنا كثيرا من الشعراء ذوي النزعة الرومانسية بمعنى العكوف على النفس والتعبير عن العواطف الذاتية باسراف واخلاص ، وعندى أن قيس ليلي وقيس لبنى وجميل بثينة كانوا يكونون مدرسة رومانتيكية ، ولكنها كانت اباحية لا تلتمس العشق في السماء ولا بين الخيال ، وانما تلتمسه من الحوادث اليومية والمحادثات الشخصية التي ربما لا يسمح المجال بذكرها .

وان شعراء الأندلس كابن زيدون وابن خفاجة وابن سهل كانوا يكونون مدرسة رومانتيكية ثالثة في الرجوع الى الطبيعة والعودة اليها والتغنى بها والترنم بمجالها ورياضها وانهارها .

وهذه المدارس الرومانتيكية في الأدب العربي تناظر المدرسة الرومانتيكية الفرنسية التي كان من اعلامها الفرد دي موسيه ولامارتين وفكتور هيجو والانجليزية التي كان من اعلامها بيرون وشلي ووردس ورث وسندي وكولروج بل كان من اعلامها الاوائل شكسبير الذي وضع اسس الرومانتيكية في مقطوعاته او سونياته .
Sonnets

بل ان فكرة الملائكة او الحزن التي كانت مسيطرة على شعر بعض الشعراء الانجليز كبيرون وشللي والفرنسيين كموسيه وهيجو قد ظهرت عند جميل بثينة في بعض اشعاره حتى يمكن ان نقبس من شعره بعض مقطوعات نضعها تحت عنوان يتخذه كثير من النقاد الغربيين في اوايه الشعر وهو « الحب والموت » love and death وأن من يقرأ قصيدة موسيه حزن Tristesse او لامارتين « لم روحى حزينة ؟ » .
Pourquoi mon ame est triste

يلمح فيها النزعة الحزينة التي كانت تتمثل في كثير من شعر قيس ابن الملوح وقيس بن ذريح وعباس بن الاحنف .

ولقد استعملها عمر بن ابي ربيعة في شعره القصصي الطريف وصور ما حدث بينه وبين صواجه على حين ان هذه السمة قد تبلورت عند بيرون في صورة اخرى : فلاحم بيرون فضلا عن قصائده وترانيمه مستقاة من حياته ، وافكاره ماكانت تستطيع ان تستقر في عقله على حد تعبيره هو ، وكذلك عمر بن ابي ربيعة لاتستطيع افكاره ان تستقر في عقله فيعبر عمر بطريق مباشر ويعبر بيرون بطريق غير مباشر كعروس ابيدوس وقصيدة الكافر والقرصان وزليخة وسليم تلك الملحمة التي تصور علاقته باوجستا .

اما المدرسة الرومانتيكية الثالثة في الشعر العربي فهي المدرسة الاندلسية التي نلمس فيها ناحية النزوع الى الطبيعة والتفنى بجمالها والمعيشة داخل الكل على حد تعبير الفيلسوف الالماني جيته ومن زعماء هذه المدرسة ابن زيدون وابن خفاجة الذي كان كثير التأمل في المشاهدات وكانت نظراته تقود عقله وترسم له انواع الخيال وضروب البيان ، ويمكن ان نجد في كل من الأدب الفرنسي كقصيدة موسيه « نجم المساء »
l'étoile du Soir والأدب الانجليزي كقصيدة شللي في الليل مايناظرهما في الأدب الاندلسي على حين ان الأدب العربي أقدر في الفوص الى الاعماق الانسانية .

كنوز بين المعرفة

في آداب الشعوب الآسيوية والأفريقية

« العالم حولي يفره السرور ويفعمه الجبور ، والعصافير تفنى في نشوة وبهجة ومراح وهي تنطلق في الجو عبر الفضاء لا يقف في سبيلها حائل ، ولا يعترض طريقها عائق ، ولكنني سيئة الحظ عائرة البخت بأثمة المصير أنني رهينة مجس في قفص من ذهب خائفة واجفة وسط أكداس الأرز يحرقني الظما وينهكني الصدى في بحر العسل .. عمياء لا تدرك سبيلها في رائحة النهار وجاوة الضحى ... أطلقوا سراحي ، فكوا اسارى ... أريد أن أطيّر مع الطيور ... »

شاعرة من الملايو

أتيح لي أن احضر حفلة افتتاح مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الإفريقية ، وأتيح لي أن أستمع الى خطاب الوفود المشتركة في هذا المؤتمر وعلى رأسها خطبة السيد أنور السادات رئيس المؤتمر ورئيس الوفد المصري ، قد سمعته يعلن على الملأ ان سياسة مصر يمثلها خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في بورسعيد حين دعا الى السلام وان هذا المؤتمر تكريم لروح باندونج وتذكير لمفزاها ودفعة أخرى الى الامام ، وان شعوب آسيا وإفريقية التي كانت أرضا مباحة أو غابة تعيش فيها الوحوش الكاسرة قد أصبحت قوة حرة عالية الجبين لها دور حاسم في مستقبل الاسرة كلها ، وتتمنى ان يستخلص من هذا المؤتمر الشعبي أقصى ما يمكن من النتائج الايجابية في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على السواء .

« آداب عظيمة »

وبهذه المناسبة أحب أن أقول : ان لهذه الشعوب الآسيوية الإفريقية آدابا عظيمة وان هذه الآداب في حاجة الى الدرس والبحث وفي حاجة الى الترجمة والنقل والتلخيص والتهديب ، فانا لا أعلم شيئا ادعى الى التقريب بين الشعوب مثل الآداب ، وانا لا أومن بشيء يستطيع ان يأسر النفوس ويهدب القلوب ويصفي الأرواح كما تفعل الآداب ، ونحن اذا كنا جادين في هذا المسعى مضحين من أجل الوصول الى هذه المطالب وهذا ما ليس فيه شك أو مرأ ، فلا بد من ان نحيط علما بهذه الآداب ونقيم التبادل الثقافي بيننا وبين هذه الشعوب على نطاق واسع لا يقف في سبيل ذلك عائق أو حائل بأية حال وحينئذ يتحقق التقارب الذهني بين العقول الذي هو أحد دعائم التقارب السياسي .

ولا يخفى على أحد ان عددا كبيرا من الشعوب الآسيوية والإفريقية

اشتركت في هذا المؤتمر حتى ان عددها بلغ خمسا واربعين دولة ، ولا يخفى على احد كذلك ان لكل شعب من الشعوب التي اشتركت في هذا المؤتمر تاريخا حافلا طويلا وادابا حية باقية على الزمن وعلوما وبحوثا ، وارى من واجبا ان نزيح عنها الستار ونفض عنها الغبار لنجلوها للعيان حتى يفهم بعضنا بعضا ويحيط بعضنا بتاريخ البعض الاخر ويلم بكفاحه ووجوه نشاطه الفكرى .

« الأدب الياباني »

ولا ضرب مثلا بشعب اليابان وهو من الشعوب الآسيوية التي اشتركت في هذا المؤتمر فأقول : ان هنالك كثيرا من المؤرخين اليابانيين الذين فصلوا التاريخ الياباني بصورة عجيبة معجبة مثل المؤرخ « متسوكوني » الذي كتب التاريخ الاكبر لليابان عام ٨٥١ ، فصور نظام العهد الاقطاعى ومظالم الفلاحين ضد اليابانيين ، وقل مثل ذلك عن المؤرخ « اراى هاكوسيكى » الذى كان له دور كبير في تصوير الاحداث التاريخية الكبرى التي امت بشعب اليابان ، كما ان باليابان المسرحيات ، ولا ننسى « شيكاماتو » الذى يقرنه بعض النقاد الغربيين بالكاتب المسرحى ولیم شكسبير في غزارة موضوعاته واساليب مسرحياته .

واليابانيون يهتمون كذلك بالشعر ولهم في ذلك دواوين شتى في شعر الحب والطبيعة والحرب والكفاح وقد جمع الامبراطور « دايجو » مجموعة كبيرة من الاشعار حتى يحفظها من ايدى الفناء بلغ عددها الفا ومائة قصيدة نظمت خلال القرن ونصف القرن الماضيين واطلق عليها « كوكنشو » ومعناها قصائد قديمة وحديثة وساعد في هذا العمل الضخم العظيم الشاعر « تسورا يوكى » الذى قدم هذا الديوان بمقدمة ضافية عن الاشعار التي تضمه فهي اشعار تتناول نغمات الحب ومجالى الطبيعة وتترامى فيها المشاعر النابضة والاحاسيس الجياشة والقلوب عندما تخفق ، والانفاس عندما تتصاعد ، والاناشيد عندما تمتاز بأدب عالية رفيعة منذ فجر التاريخ ، ونحن في مسيس الحاجة الى معرفة القليل ان لم يكن الكثير عنها :

ففى ميدان القصة نجد قصة « هونج لوهن » او حلم الفرقة الحمراء وهي في اربعة وعشرين مجلدا ، ورواية « الممالك الثلاث » وهي في ١٢٠٠ صفحة وكتبها الكاتب الصينى اللامع « لوجوان جونج » وصور فيها الحروب والدسائس التي احاطت ببعض الاسرات الحاكمة فى الصين وغير ذلك من الاقاصيص القصيرة والمسرحيات

ومن اروع كتب التاريخ كتاب السجل التاريخى الذى جمعه « زوفاتشين » ويتناول بالتاريخ حقبة طويلة من الزمن تزيد على ثلاثة الاف عام ، وهناك دواوين مختلفة لكثير من اعلام الشعر الصينى مثل الشاعر « لى تاى يو » والشاعر « روفو » ويقول « ويل ديورانت » نقلا عن « ارتز ويلي » من عادة الذين يكتبون فى الادب الصينى ان يذكروا « تتناجى » وهي اشعار تمثل فضلا عن ذلك جمال الزهر

وأغاريد الطير وترانيم العندليب وقطرات ابرد عندما تتساقط على
ثغور الازاهير في الرياض وقطع الثلج عندما تغطى هامات الجبال
كالقطن المندوف وهي اشعار تصور كذلك مراحل الكفاح ومدارج
الجهاد وتصيح فيها الحرية وتثور الدماء من اجل الدفاع عن الوطن
وسلامة اراضيه .

وذخر الادب الياباني كذلك بالوان مختلفة متباينة من القصة
والاقصوصة ، واذكر ان الكاتبة اليابانية المعروفة « موراساكس » كتبت
قصة طويلة من اروع القصص في اربعة وخمسين جزءا اطلقت عليها قصة
« جونجي » وهي من الآثار الادبية الكبرى التي يعتز بها اليابانيون اعتزازا
عظيما .

والصين وهي دولة مشتركة في هذا ، ومن الانجليز من يقولون :
ان « لى تاى يو » أشهر شعراء الصين ، اما الصينيون أنفسهم فيقولون :
ان « دوفو » هو حامل لواء الشعر الصيني .

وربما كان الادب الهندي اقرب الآداب الآسيوية المعروفة لدى
العرب وترجم الكثير منها في العصر العباسي ، كما نقل ابن المقفع الكتاب
الهندي المشهور « كليلة ودمنة » الذي اظن انه لا يزال يدرس في مدارسنا
ويحفظ في مكتباتها حتى اليوم .

وفي الادب الهندي كثير من القصائد والملاحم ، والقصص
والمسرحيات مثل ملحمة « المهابارتا » التي اعتبرها النقاد أعظم آية من
آيات الجمال التي أنتجتها آسيا وقال عنها « اليوت » : انها قصيدة
أعظم من الالباذة وقد كتبها مائة شاعر وترنم بها ألف منشد ، ولست
أدعو الى ترجمة هذه القصيدة ، انما أقول : اننا لا بد ان نلم بهذا التراث
الهندي الكبير بعض الامام ، لان الرجل العادي في الهند يحفظ الكثير
من آيات هذه الملحمة .

والادب الهندي على العموم حافل بالروحانية العميقة ونحن
بدراستنا هذا الادب نفوس في أعماق الروح ، ونقترب من سرها ونحس
برهبتها ونجلو الكثير من اسرار الطبيعة ، ونعيش في حضنها كما يعيش
الاطفال الأبرياء في حضن امهم الرعوم وفي ذلك يقول الشاعر الانجليزي
« بيرنز » في معرض الحديث عن الشاعر الهندي « طاغور » : نحن نحارب
ونجمع مالا ونملأ رءوسنا بالسياسات وكل ما هو كئيب في فعله على حين
أن مستر طاغور مثل المدينة الهندية نفسها قانع باكتشاف النفس
ومستسلم لذاتيتها .

« ادب الساحل الآسيوي »

وقل مثل ذلك عن ادب بورما وكمبوديا ، وساحل الذهب
واندونيسيا ، وليبيريا ، وتايلاند ، وفيتنام ، والحبشة وغيرها من الدول
الآسيوية والافريقية ، فلا بد من اتخاذ خطوات عملية لتنمية التعاون
الثقافي

والتعريف بأداب هذه الشعوب وتعليم لغاتها وتجديد العلاقات الثقافية القديمة وتنمية صلات جديدة في نطاق العالم الحديث وبذل كل مرتخص وغال في سبيل الوصول الى هذا الغرض ، ولا بأس من عمل ماخصات لأداب هذه الشعوب وترجمة ما يمكن ترجمته من النصوص وتقديم التسهيلات الفعالة للتزاور بين هذه الشعوب وتزويد الطلبة والراغبين في عمل الابحاث بكل الوسائل المعينة على البحث والدراسة، وحينئذ يتحقق المجال الثقافي الذي دعا اليه مؤتمر باندونج وأيده بعد ذلك مؤتمر القاهرة الشعبي ، وأبرزه السيد أنور السادات في خطبة الافتتاح بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة .

« كنوز من المعرفة »

ان في آداب الشعوب الآسيوية الإفريقية كنوزا زاخرة من المعرفة التي تجلو صدا النفس ، وتصقل صفحات العقل سواء في الشعر أو النثر ، وتحضرنى الآن قصيدة رائعة من الشعر من أدب الملايو واضعها نموذجاً لأدب هذه الشعوب الذي يهدف الى الحرية ويدعو الى السلام من انشاد شاعرة من الملايو :

« العالم حولي يغمره السرور ويفعمه الحبور ، والعصافير تفتني في تشوة وبهجة ومراح ، وهي تنطلق في الجو عبر الفضاء ، ولا يقف في سبيلها حائل ولا يعترض طريقها عائق ، ولكنني سيئة الحظ عائرة البخت بأئسة المصير ، انني رهينة محبس في قفص من ذهب خائفة واجفة في وسط اكداس الأرز .. ظمأى يحرقني الظما وينهكني الصدى في بحر العسل .. عمية لا تدرك سبيلها في رائعة النهار وجلوة الضحى ، شقية بأئسة يائسة بين صرح النهار وقصور الرفاهية والبهاء .. مغلولة اليدين بقيود حديدية ومصفدة بقيود قوية .. اطلقوا سراحي .. وفكوا اسارى بين هذه الأسوار .. أريد أن اطير مع الطيور .. واحلق مع العصافير وهي حرة تذهب الى شاطئ السعادة .. »

أحلام البحيرة

بين الشرق والغرب

إنها أحلام البحيرة أو أشعار شعراء البحيرة إن شئت ٠٠٠ ولست أعنى بشعراء البحيرة هؤلاء الشعراء المعروفين في تاريخ الأدب الانجليزي بشعراء البحيرة مثل كمبر لاند وكورد زورث الذي فتق آفاق المذهب الرومانسي لمن أتى بعده كلورد بيرون وجون كيتس وبيرس شلي وسير والتر سكوت وسوزي ذلك الشاعر الثائر الذي تأثر بالشرق وحضارة الشرق ، فجاءت بعض قصائده هائمة في سحره متأثرة بآثاره ، بل إنه قد تأثر بألف ليلة وليلة تأثرا قويا ظهر في كثير من قصائده التي هي أشبه شيء بالخرافات والأساطير ، أو كلوردج ذلك الشاعر القلق الحائر وصاحب القصيدة المعروفة في الادب الانجليزي « كوبلكان » والذي قال عنه بعض النقاد : إن قصائده أحلام ، وإنه حين يكتب يحلم فهو يجوس بك بين دروب ملتوية مسحورة وقصور سحرية معمورة ، ويحوم بك فوق غابات ملتفة ليقابلك بكائنات رهيبة مخيفة .

لست أريد أن أكتب عن هؤلاء الشعراء الثلاثة المعروفين في الادب الانجليزي بشعراء البحيرة الذين كانوا كثيرا ما يقفون أمام البحيرة يملنون أعينهم بضوء الشمس البازغة حينما يمتع الصباح بضوء الشفق الذهبي وحينما يوشك الليل أن يهبط على الدنيا يصوغون من ضوء الشمس ورفيف الماء وهدير الموج الحانا عذبا وترانيم شجية إنما أعنى بشعراء البحيرة ثلاثة شعراء آخرين من بحيرات مختلفة ومن أجناس مختلفة : أحدهم انجليزي وهو ورد زورث ، والآخر فرنسي وهو لامارتين ، والثالث عربي وهو البحترى .

ولم تكن بحيرة البحترى سوى بركة المتوكل ، وقد كانت بركة جميلة مترفة تغني بها الشعراء ، وترنمت حولها القيان وصدحت بين أرجائها النغمات .

وقد بدأ البحترى قصيدته بالميل على الديار والوقوف على الآثار كما كان يفعل الشعراء الجاهليون ، ولجا إلى هذه الطريقة الكلاسيكية أو هذا المذهب الكلاسيكي في مستهل قصيدته فقال :

ميلوا إلى الدار من ليلى نحيبها نعم ونسألها عن بعض أهلها
يارقعة جاذبتها الريح بهجتها تببت تنشرها طورا وتطويها
لازلت في حلل للغيث ضافية ينبرها البرق أحيانا ويسديها

حتى إذا ما انتهى البحترى من هذه المقدمة الكلاسيكية - إن صح

هذا التعبير - لجأ الى الذكري وتراوت خياله صور من الماضي وتمثل امامه طيف الحبيب ، وسبح خياله الذي قيل عنه في الشعر العربي خيال البحتري :

قد اطلق الغادة البيضاء مقتدرا على الشباب فتصبيني واصبيها
في ليلة ما ينال الصبح آخرها علقته بالراح اسقاها واسقيها
عاطيتها غضة الأطراف مرهفة شربت من يدها خمرا ومن فيها

فلما انتهى البحتري في ابيات مختصرة من ذكر الحبيب لجأ الى وصف البحيرة ، بل انه ربما مدحها كأنها شخص من الاشخاص ولجأ الى تفضيلها على غيرها :

ما بال دجلة كالغري تنافسها في الحسن طورا واطوارا تبايها

ويعد وصف البحتري للبحيرة من أرقى شعر الوصف في الادب العربي ، فهو وصف فيه روعة وجمال ولكن قلما تهمس فيه الروح !

فلو تمر بها بلقيس عن عرض قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها
تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من جبل مجريها
كأنما الغضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
اذا عدتها الصبا أبنت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضحكها وريق الغيث أحيانا يباكيها
اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

ويستمر البحتري في وصفه ذلك الوصف الذي اشتهر به في روعة وجمال وخيال ، فكان كما قال ابن رشيق في كتاب العمدة عنه وعن أبي تمام : انهما كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها :

فأما حبيب فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع بين التصنيع المحكم .

أما البحتري فكان أملح صنعة وأحسن مذهبا في الكلام ويسلك منه دماثة وسهولة مع احكام الصنعة وقرب المأخذ لا تظهر عليه كلفة او مشقة .

أما ورد زورث فقد نظم كثيرا من القصائد والاغنيات «والبلاد» في اقليم البحيرة .

وقد بدأ احدي قصائده قائلا :

لقد آذنت الشمس بالمغيب

وأوى طير الماء الى الاوكار

ونشرت الريح الهوجاء الشباك

وهجعت أنفاس النسيم

وظلت كل موجة تكافح الأخرى

دور
تفصيل

عقيد

وبقيت الموجة الآتية من الاعماق .

يالها من أسطورة تحكى

سرعان ما يدركها الرقاد

وينحسر الماء من جراه المد والجزر

ويثور مرة ويهدأ مرة أخرى

ويجتمع النور والظل فى صبح جميل

رائع يوقظ الحيال ويبعث على الأحلام

ولكن شعر وردزورث فى اقليم البحيرة ليس حيا كالبحترى ،
انما هو شاعر مثقف درس بعضا من الفلسفة وعرف شيئا عن الطبيعة
وما بعد الطبيعة ، فقد كان فى - ابان دراسته - فى جامعة كامبردج ، ولكن
تفكيره فى الشعر كان يصرفه عن الدروس صرفا كما يقول كثير من النقاد ،
فترى فى قصيدته بعض اللمحات الروحية والتأملات الفلسفية مثلما
يخاطب الطبيعة فى براءة فيقول :

ما البراءة ! أيتها الرحمة المقنصة !

وهكذا يأخذ وردزورث فى مخاطبة الطبيعة وانتفى بالخير
والرحمة التى تندفق من القلوب الناعمة الى أن يقول :

كل سكون يتعلل فى هذا الكون

وكل تبدل يتبدى على وجه السماء

فالعناية تتمثل ولكن لا تبدى رياء هو السرور

وخيرا ما هو السلام

فاما ترضى حكم العقل وعونه فى اباء

واما تعطى كل شىء فيه خمر وفناء !

وهكذا يتضح الفرق بين طبيعة الشاعرين البحترى وورد زورث :
فقصيدة البحترى وشى جميل فيه موسيقى وفيه الحان حلوة الجرس رقيقة
المعنى وفيها محسنات بديعية رقيقة ، أما قصيدة ورد زورث فلا تحرم
هذه المميزات ، ولكنها أولا وقبل كل شىء تأملات روحية وذكريات حلوة
تترى على ذهنه ليست مديحا أو ما يشبه المديح ، وليست روح
وردزورث هذه تظهر فى هذه القصيدة فحسب ، انما تظهر فى اغلب
شعره ولا سيما فى ديوانه « قصائد غنائية » .

أما لامارتين فقد نظم قصيدته فى بحيرة بورجيه حينما ذهب الى
بحيرة اكس سنة ١٨١٧ ، وأن من يقرأ هذه القطعة الرائعة من ادب
لامارتين يتمثل قوله فى الشعر « انى أغنى يا اصدقائى كما يتغنى المرء
ويغرد الطير ويصفر الهواء ويهدد الماء » . « أهكذا قدر لنا دائما الاندفاع
صوب شطآن جديدة فى هذا الليل الخالد دون أن نملك الرجوع فى خضم
السين المتلاطم الامواج الى يوم نلقى لديه المراس .. »

وياخذ لامارتين يخاطب البحيرة في أسلوب جميل يسيل رقة
وعذوبة وتتضح سلاسته وسهولته ويزدوب لوعة وشوقا :

« أنظري أنتها البحيرة فالعام أوشك ان يفنى وانا وحدي بجانب
أمواجك الغزيرة اجثم على هامه الصخرة التي كنت ترينها جالسة عليها !»

ويمضي لامارتين في قصيدته مصورا ليلة قضاها مع صاحبه جوليا
فوق صفحتها الرقراقة وأمواجهها الدفاقة وأشجارها الطاعنة في عنان
السماء وأطيبارها المترنمة بين الأجواء ، وياخذ لامارتين يخاطب الزمن في
لهجة كبيرة ونبرات حسيرة : « أيها الزمن السارق ويايتها الساعات
العذاب . فقى جريانك وامنعى سريانك ودعينا نتمتع بذاتنا العاجلة
وأجمل أيام حياتنا . . . »

ويسرف لامارتين في نظراته وتأملاته الميتافيزيقية ، فيأخذ في مخاطبة
الأبد والعدم والماضي بعد مخاطبة الزمن الحاقدا الجاحد فيقول :

« حدثني أيها الأبد ! أيها العدم ! أيها الماضي !

ماذا تصنع بهاتيك الأيام التي تطويها !

أما تعطينا أوقاتنا الجميلة التي قيل عليها العفاء . . . !

ثم ينتهي لامارتين في قصيدته بتسجيل محبته الباقية على مسر
الزمان لجوليا ، فتشهد الطبيعة ويشهد النسيم على حبهما وهكذا كان
لامارتين يريد أن يشعر فغنى كما كان يقول القسطنطين ، وصدق تعريفه
للشعر بأنه غناء الباطن ، فقد جاءت هذه القصيدة صورة جلية واضحة
عن نفسيته ووشتها بأبهى اطار ، ولكنها لم تكن مزدحمة بالصور الحية
والمحسنات اللغوية التي نجدها عند البحترى . انما كانت روحا تحلق في
الأجواء تغنى كما يتغنى المرء ويفرد الطير ويصفر الهواء ويهدر الماء !

فلسفة الألوان فى الغرب

أنكر كثير من الفلاسفة المعرفة عن طريق الحواس زاعمين أن الحواس خادعة متغيرة ، فلا يمكن أن تكون مقياساً للأشياء ، فانت تصور أن وراء السراب ماء وليس هنالك ماء وأنت ترى العصا المعتدلة منكسرة فى حوض الماء وليس هنالك انكسار وأنت تخرج من الحجرة الدافئة فتشعر ببرودة أزيد مما هى فى الواقع وليست هنالك برودة ، وعولوا فى حكمهم فى أكثر الأشياء على العقل ، فجعلوه الأساس الأول فى المعرفة .

ومن الحواس التى ينعم بها الانسان حاسة النظر ، ومهما يكن قول الفلاسفة فى هذه الحاسة أو ايمانهم بها أو كفرهم بحكمها فانها موجودة ونحن نرى الأشياء والاحياء كما تتراى لنا .

ويقول كثير من الفلاسفة : ان الألوان التى تراها العين لها تأثير فسيولوجى وسيكولوجى خاص اللهم الا اذا كان المرء مصاباً بالعمى اللونى ، فهذا يخرج باضطرابه عن نطاق حديثنا فانه يرى اللون الاحمر مثلاً أسود بطبيعة عينه وهلم جرا .

ومن القواعد المتفق عليها ان الضوء ليس بسيطاً بل هو مركب واننا يمكن أن نحلله بمنشور زجاجى خاص فتتراى لنا أطيفاه السبعة .

ومن القواعد المتفق عليها كذلك أن لكل لون من هذه الألوان ميزة خاصة لا تقتصر على الانسان، بل تمتد الى الحيوان والنبات، ولعلنا نعرف مبلغ هياج « الديك الرومى » من اللون الأحمر اذا ما رأى طربوشاً أو شيئاً من هذا القبيل ، وذلك لأن اللون الأحمر لون صارخ يبعث على الانتباه والنشاط وربما كان من الاسباب التى تدعو الاطباء الى تصح المرضى ولا سيما المرضى بالجدري والحصبة بارتداء الملابس ذات اللون الاحمر فهو احد الوان الطيف ولا ينفذ فى الاقمشة الحمراء ، وبسبب عدم نفوذه يضعف ميكروب هذا المرض الذى يزداد بتأثير هذا اللون اذا نفذ من الأردية ذات الألوان الأخرى .

وقد ثبت لدى الدكتور بينو أن اللون الاحمر يساعد على التنام الجروح ولعل هذا هو السبب فى اثاره لمحلول الفكسين فى التغيير على الجروح أو فى كون بعض المظهرات ذات لون احمر كالديتول والميكروكروم

ويقول الدكتور سارومان احد اطباء النمسا : انه يمكن تلوين الطيور بأن يضاف الى طعامها شئ من الايثلين وانه جرب ذلك فى الحمام فلون بعضها بالأحمر الزاهى والبعض الآخر بالأزرق السماوى ولون أطيار الكنار بالوان قوس قزح الجميلة .

ويقول الفيلسوف الألماني شينجلر : ان الأزرق والاخضر لونا السماء الصافية والبحر الخضم والسهل المريع فهما لوان جويان في جوهرهما باردان يسابان الاشياء اجسامها ويشيران الشعور بالسامة والابتعد والانهائية .

أما الأزرق فهو لون المنظور على صلة وثيقة بالظل والظلام وأما اللون الاحمر والاصفر فهما لونا المادة وما هو قريب وما هو شعبي يجارى ، فالأزرق اذن لون العمق والبعد ، والاحمر لون السطحية والقرب . . .

الأزرق . . . عدم ساحر . . . كما يقول الفيلسوف الألماني جيته والاحمر جسم نفاذ .

ويرى كثير من العلماء أن اللونين الأزرق والبنفسجي مهدتان للأعصاب ومن هنا أتت فائدة الأشعة البنفسجية التي يصفها كثير من الأطباء للمرضى ولا سيما الاطفال المرضى بالكساح .

هذا وقد أثبت العلماء أن المعرضين للنور القوي من أشعة الشمس التي تحتوى على ألوان متعددة من الضوء يكون لونهم أسمر والمعرضين للنور الضعيف يكون لونهم أبيض وشعورهم شقراء وعيونهم زرقاء كما هو الحال في الجنس النوردي على العكس من الجنس القوقازى أو الزنجى .

ويرجع العلماء السبب في اختلاف اللون الى أن فى بشرة الجلد طبقة من الموصلات الصغيرة فى باطنها مادة ملونة يختلف لونها فى البيض والحمر والسود وهذا اللون يشتد ويضعف باشتداد وضعف أشعة الشمس .

ويعد اللون الابيض آية الطهر والنقاء أما الاسود فدليل الحزن والقتامة وان كان بعض الشعوب يستعملون اللون الابيض عند الاحزان، أما اللون الاخضر فرمز الربيع الاخضر والدوح المورف والشجر المورق، وعند بعض الناس رمز الشيطان المارد والاجواء التي تستحضر فيها الارواح ، ويعد اللون الاصفر عند العشاق رمزا للغيرة لان له خاصية معينة فى اثاره لون معين من المشاعر .

وقد كان الصينيون اذا رغبوا فى التنكيل بأحد سجنوه فى غرفة طلى كل جدرانها وأثاثها بلون واحد لان ذلك يدعو الى ضيق النفس ، وقد ذكر ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى فى كتابه الفخرى فى الآداب السلطانية ان رجلا راف بحال أحد الخلفاء المسجونين فى هذه الصورة عند الأتراك فلبس سروالين أحمرين ودخل خلية بهما على الخليفة وسلمهما له ، لكي ينظر الى لونهما من حين الى حين ، فيخفف ذلك آلامه من النظر الى الغرفة الصفراء التي كان يقيم فيها .

ومن الطريف أن المدارس الأمريكية تعمد الى بعض تجارب لتثبت ميزة أحد الالوان على الآخر لتطلى به غرف مدارسها كما هو الحال فى ليفربول بانجلترا ، ومن الطريف كذلك أن أحد العلماء النفسانيين الأمريكين أجرى استفتاء فى أسباب الحب فخرج بأن الوان أزياء النساء تؤدى دورا خطيرا فى هذا المضمار . . . !

عالم غربي

يضع الوسائل الى السعادة

اندرية موروا

من الكتب الخائذة التي ألفها الكاتب الفرنسي الذائع الصيت
اندرية موروا André Maurois كتاب العواطف والطبائع
Sentiments et Coutumes وقد صور موروا السعادة في هذا الكتاب تصويراً
خلاباً وجذاباً ، وخلق منها فناً من الفنون له سحره وأغراؤه وله رواده
وعشاقه ، ويمكن الانسان أن يحسنه وأن يتقنه بكثير من التجربة وكثير
من المران .

وقد قيل : ان السعادة أن تظفر بشيء حبيب الى نفسك قريب الى
قلبك دون أن تتحول عنه أو يتحول عنك ، ولكن هذا التعريف لا يطابق
الواقع ولا يجارى الحياة ، فاللحن العذب لا يلبث أن ينتهي ، والأغنية
الحلوة لا تلبث أن تسكت ، والشخص الحبيب لا يلبث أن يغيب فكل شيء
يخبئه لك الغد ، فماذا تحمل لك الايام في جمعيتها ؟

ان الايام دول فاترك الأوهام والاحزان واغنم ساعة الصفو فانما
الغيب عند غلام الغيوب .

ويذكر اندرية موروا كذلك ان السعادة لا يمكن ان تجنى بغير العمل
والتفكير الذي لا يسوق الى عمل ينطوي على ضرر ، ومن يفكر لا يعمل ومن
لا يعمل يزرع الفساد ، فالبستاني في الحديقة يعمل في صبر ونشاط
ويعنى بزرعه ويحوطه برعايته ثم يفخر بشجرة محصول تعبته وكده .
واحساس البستاني هذا هو الاحساس الذي يشعر به كل فنان مجيد وكل
مبتكر أو أديب .

ويعتقد موروا أن الحب من أسباب السعادة سواء بدأ بين كائنين
من البشر أو انتهى الى حب الانسانية ، والسعادة لا يمكن أن تمنح انما
تتبادل ، وكلما بادل صاحبك الحب وشاركك في عواطفك كانت سعادتك
جائمة بين يدك ، ولهذا كان الزواج في بعض الاحيان لونا من الوان
السعادة الصادقة ، ومن هنا فطن كثير من الكتاب القصصيين مثل ستندال
الى هذه الحقيقة ، فجعلوا لذة الحب تطفئ على شقاء المحب وتزيل أتراحه
وأشجانته ولو كان الموت قاب قوسين أو أدنى ! كما حدث بين (فابريس)
بطل قصة ستندال وبين (كليلت) التي كانت تزوره في سجنه زيارات
خاطفة .

فنحن اذن يجب ان ننعم النظر في مدلول السعادة ونعلم ان السعادة
ليست هي اللحن ، وليست هي الأغنية وليست هي الشخص الحبيب انما

هي حالة نفسية تطبع الحوادث بطابعها الخاص وتلبسها في اعيننا رداء زاهيا براقا . فاذا تمنينا الدوام لشيء فانما نتمنى الدوام للحالة النفسية لا للحوادث .

ويرى أندريه موروا André Maurois ان الفقر والمرض من اشد العقبات في سبيل السعادة غير ان هنالك اناسا لا يستطيعون ان يحكموا على الاشياء حكما صحيحا مصيبا ويرون انفسهم فقراء وهم ليسوا فقراء ويرون انفسهم مرضى وهم ليسوا مرضى، هؤلاء هم ضحايا الوهم، وكثير من الناس يصرون على اثقال انفسهم بالهموم وملء قلوبهم بالاحزان ، وينكرون عليها صفاها بتخيل نكبات بعيدة مثلهم في ذلك مثل الرجل المفكر الحزين الذي انزوى في ركن بعيد من اركان حديقة غناء وجلس ساهم الفكر مبلبل الفؤاد ، فلما سعى اليه موروا يسأله عن سر اكتئابه علم انه يتوقع نكبات مالية بعد مضي عامين فقال له موروا :

أتدري يا سيدي أن التفاؤل خير باب الى السعادة وكلما كان الانسان أكثر تفاؤلا كان أكثر سعادة وكانت الحياة في عينيه ذات لون وردى بديع ، على العكس من الشخص المتشائم الذي يشعر بالبرد القارس اذا هب النسيم او جرت الريح وتبدو الحياة في عينيه أضيق من سم الحياط.

والنسيان في بعض الاحيان من اقرب الابواب الى السعادة في رأي موروا ، فعلى المرء ان يتعلم الصفع عن الذنوب ونسيان الاحقاد اذا اراد ان يكون سعيدا ، والانسان بطبعه يميل الى النسيان وانه اشد ميلا الى نسيان ما يثير في نفسه اللوعة والشجن ، على أن كثيرا من الناس يهملون استغلال هذا الميل الطبيعي الى النسيان ، ومن هنا يتسع المجال لذكرياتهم المؤلمة وخيالاتهم المريرة فيحرمون السعادة ويتجرعون كأس الشقاء .

وعناصر السعادة قليلة وأسبابها كامنة في داخل النفس وهي أرسخ ما تكون اذا قامت على حب الخير ونقاء السريرة .

فلتتمسك بأهداب السعادة ان ظفرنا بها ، ولنحرص عليها حرصا شديدا ، ولنحاول ان نتبادلها ، ونضع نصب اعيننا دائما تلك الاسباب التي كانت سببا فيها كالتعقل والرحمة والاعتدال ، لان الانتصار يولد الغرور والطفیان في بعض الاحيان فاذا بالسعادة تنقلب الى شقاء .

ومن الوان السعادة ان نعرف الى اى حد كان يمكن ان نكون تعسین .

كاتب غربي وزوجة ملهمة

احتفلت فرنسا بل احتفل الادب في العالم اجمع بالكاتب أندريه جيد ، وقد كان فتى كاسف البال حاد القسما ، كانت عيناه تنفثان ببريق حاد غريب .

وكانت شفثاه مرمريتين تنبضان بالرغبة وترقان بالنشوة كما لاحظ اوسكار وايلد عندما رآه لأول مرة .

وكان شعره ينسدل خلف اذنيه ، ولكنه كان خجلا حيا الى حد بعيد ، ولعله يذكر ذلك اليوم الذي بلغ فيه الطفل أندريه جيد الحادية عشرة من عمره ، وحدث أن ابن عمه الطفل الصغير (أميل) فاضت أنفاسه أمام عينيه ، فحاولت أمه أن تخفي الخبر عنه ، ولكنه سمع همس الكلام عن الحادث الاليم فجرفه حزن عنيف وانفجر باكيا في حيرة تفتت الاكباد وتذيب القلوب .

ولعل الطفل أندريه جيد يذكر ايضا ذلك اليوم الذي جلس فيه الى أمه وحيدا في حجرة المائدة ٠٠٠ وما لبث أن ارتمى بين أحضانها ينتحب حتى بال ثوبها بدمعه الهتون وهو يقول لست كالأخرين ١٠٠

لقد كان الفتى الصغير يدرك الموت في الحادثة الاولى فبكى وانتحب ٠٠ اما في الحادثة الاخرى فقد عرف مصير الأحياء ونهاية البشر ففرق في بحر من الدموع ٠٠٠

كان الفتى أندريه جيد يحب الموسيقى ويسره ايقاعها، وكان يجلس الى (البيانو) يعزف روائع فاجنر وشوبان أو بيتهوفن وتتصاعد الألحان الحبيبة من بين أنامله كأطياف حلوة جميلة تتلاحق في الاجواء وتتسابق الى العشاش .

وكان الانجيل رفيق الفتى جيد ومن بلاغة وروعة أسلوبه تعلم حلاوة الالفظ ورقة الموسيقى وعذوبة الايقاع .

لم تكن أيام أندريه جيد في مدرسته بهيجة هائلة ، بل كانت يائسة نحسة وكانت تنتابه بين الحين والحين بعض المشاق في الدراسة الا انه كان يتغلب عليها في النهاية وينكب على العمل حتى قال عنه عمه ذات مرة (أن جيد سيكون دائما محبا للعمل .)

وكان أندريه جيد يكره تلك الامتحانات المدرسية التي تسير على نهج سقيم وطريقة مرذولة ولكنه كان يحفظ كثيرا من الشعر ويطلع على تراث الاقدمين .

ولشد ما كان يؤلم أندريه جيد أن يظل دائما رهين محبسه ، فكان يجوب وينتقل ويتمثل بقول بسكال : (ان الاحتباس في الغرفة سر بؤس

الإنسانية) . ولشد ما كان الفتى يهوى أطيوار (الكناريا) غير أن حبه وولمه لم يأت إلا على أثر حادثة ارتفعت منها نفسه وفزع منها قلبه : فذات صباح في مستهل عام جديد كان على أندريه أن يذهب ليقبل مربيته أنا ففعل ورجع فرحا مسرورا تملأ الفبطة اعطافه من نفسه ومن السماء ومن لاشيء وأخذ يبني الآمال الكبار وهو في طريقه إلى البيت في الطريق الذي اعتاد أن يسير فيه وهو طريق سانت بلاسيد وعلى حين غرة ، وكان الوقت قرب الظهيرة والنهار منبليج والشمس شديدة الوقدة ، شعر بشيء يسقط نحوه في شدة كقطعة متوهجة من الشمس واخترق ذلك الشيء ... الظل القريب منه .. ولطمه بجناحيه واستقر فوق قبعته ورفع الفتى الصغير عينيه الساجيتين فوجد طائر الكناريا مستقرا فوق رأسه يرتجف مثل قلبه الذي يملأ صدره فترأت الفبطة على محياه وسكت عنه الغضب ، وأدرك أن الطير الصغير كان ضعيف البصر ، فهوى فوق رأسه مصادفة .

أخذ الفتى الرقيق يتعلم في المدرسة ، ولكن المرض لم يمهله بل كان ينتابه بين الحين والحين وفي ذلك يقول في مذكراته : « وفي اليوم الذي سمح لي فيه بالنهوض شعرت بأعياء ، فتحاملت على نفسي للوقوف بعد أن مكثت ثلاثة أسابيع في الفراش ليت شعري ماذا كان يحدث لو أن المرض اشتد على أكثر مما اشتد ... ؟ أواه انى اشعر براسي بهبط فوق جسمي واشعر بجسمي يكاد يهوى على الارض ، ان الخيال يشعرنى براحة وسعادة تسكنان من قلقي وتهدئان من روعي .

وأخذ أندريه العليل يعود الاطباء حتى استطاع أن يشد أزره ويرجع مرة ثانية إلى المدرسة حيث ينتظره أصدقائه وأحبائه على مضض .

وشب الفتى وترعرع ودخل في عنفوان العمر وزهرة الشباب ، وهنا حدث حادث هام غير مجرى حياته كما تغير الثورات الكبرى تاريخ الشعوب على حد تعبيره ، ذلك انه حدث حادث هام جعله كالأعمى الذي خلق أعمى إلا انه أصبح بصيرا ... أصبح بصيرا يستمتع بمنظر الطبيعة الخلاب ووجه السماء الفضية الزرقاء التي تستهوى الأفئدة والأبصار .

لقد عرف الفتى ابنة عمه (مارلين) أو أمانويل كما كان أندريه جيد يطلق عليها واقتربت دارهما بعد ابتعاد واتصل بها بعد ما كان بين الاسرتين صمت لايفرى بشيء ، ونشأت بين أندريه وأمانويل صداقة مكيئة لم تلبث أن تحولت مع الأيام إلى حب جارف ، حب لايعرف الضعف ولا الفتور ، حب متقد يسرى في الجسم مسرى الدماء في العروق والروح في البدن والإنفاس في الصدور ، وذات أصيل ذهب أندريه جيد إلى بيت ابنة عمه أمانويل ، ولكنه لم يجد أحدا في الدار فأب إلى داره، ثم عاودته نفسه أن يعود إليها مرة ثانية فوجدها مطرقة الرأس كسيرة النفس ممزقة الفؤاد ، ولمح دمعين كبيرتين تنسكبان من عينيها في شجن والم !

كانت امانويل تعيش في بيت غير بيت ابيها وكانت امها متزوجة من شخص غريب ، فحاول اندريه ان يخفف من حزنها الا ان امانويل ابت ان تبوح له بسر شقاها في البيت ، فعاد اندريه ادراجه ، الى منزله في حزن حزين ، ومنذ هذه الفترة كما يقول في مذكراته ادرك اندريه جيد معنى الحياة ومعنى الالم ، وصمم على خوض غمارها بعزيمة لاتلين .

ويقول اندريه جيد : ان السعادة القصوى التي كنت ارنو اليها واحلم بها كانت تأتي الى عندما ارافق مارلين ولم اكن افضل قط فيما كنت ارجب فيه ولم يكن فرحي مكتملا الا اذا شاركني هي فيه وفي الكتب التي كنت اقرؤها كنت اسجل الحرف الاول من اسمها الجميل في هامش كل جملة تستحق اعجابنا وتسترعى انظارنا وتثير حننا وشوقنا ان الحياة لم تكن شيئا بدونها... وكانت عبثا ، وكانت شططا لافائدة منه ولا خير فيه .

كنت امنحها احدي روايع دي موسيه او لامارتين لتقرأها ، فاذا عادت الى كنت اقبل الصفحات التي قرأتها والسطور التي وقعت عينها عليها ... وكنت اشعر بسرور لا يعدله سرور كلما تجلت امامي بوجهها النوراني الجميل واتخيل انها ترافقتي في كل مكان حتى في المنطقة التي تسمى (روك) في النزعات الصباحية حيث كنت اساعدها في اجتياز الغابة ، وكنا نخرج عندما يكون كل من في البيت نائما والكرى يأخذ بمعاقد الاجفان ... والحشائش مخضلة بالندى ، وزهرة الفجر تبسم على فننها ، وكان شعاع الصباح ينبثق من الافق البعيد ، وتدوم بيننا احيانا فترة صمت طويلة يسكت فيها اللسان عن الكلام وتبدأ فيها العيون بالنجوى .

وهكذا ظل اندريه جيد يرتشف كنوس الحب دهاقا مع مارلين في ظلما ولهفة حتى عقد قرانهما معا في ٨ من اكتوبر سنة ١٨٩٥ وتحولت امانويل او مارلين الحبيبة الى زوجة كريمة تحب زوجها وتسمى الى جلب السعادة الى قلبه وبيته .

وقد صرح اندريه جيد في مذكراته بأنه اولا اوضاعه الدينية ولولا امانويل زوجته ما استطاع ان ينتج كتبه ومؤلفاته وما اخرج اندريه : والتر والباب الضيق والسفونية الريفية ... بل ربما كان لا يستطيع اخراج « المزيفون » كذلك وغيرها ، ففي مؤلفات اندريه جيد نلمح كثيرا من الصور التي تشابه صورة زوجته في اقوالها وفعالها وتحمل طابع زواجه منها وتصرفه معها ، وقد كتب في مذكراته في ديسمبر سنة ١٨٩٥ ان امانويل اليوم متعبة والطقس رديء ، وفي المساء لم تستطع امانويل ان تشاركني في لعب الورق وآوت الى فراشها كي تنام وطيلة مساء اليوم كان المي يشتد لانها ليست في رفقتي ، ولاتفكر معي ، وكلما فتح الباب او ارتفع صوت اينها وازداد ارتقا اغرقت في الدعاء والصلاة .

ترى اى خاطر يجيش في نفس امانويل في هذه اللحظة ... ؟
ومن يقرأ مذكرات اندريه جيد يدرك مدى تعلقه بزوجه لقد كانت .

ملهمته وهيات له جو الانتاج الفكرى والروحى دون اى توجيه مباشر منها . وكان جيد يحسن وصف الحب فى قصصه حتى احبه الشباب الفرنسيون حبا بالغا ، وظفر بجائزة نوبل فى الأدب منذ سنوات .

وقد دفعته صراحته أحيانا الى الانحراف فثار عليه كثير من الناس وفى غضون الحرب الاخيرة قابله المستر تشرشل ووجه اليه اللوم قائلا: متى تنتهى عن قصص الحب والفرام يامسيو جيد وتعمل على انقاذ البشرية من برائن النازية التى تهددنا - بشئ أهم من قصص الحب واقوم من حكايات الفرام .. ؟

استمع اليه وهو يقول فى السمفونية الريفية التى تعد من أروع انتاجه الادبى بل من أروع الآداب الحديثة « ايه يا رياه .. امن اجلنا جعلت الليل عميقا جميلا ... امن اجلى انا ياميدع السموات والارض؟ ... النسمات وادعة رخية ، ونور القمر يتسلل من النافذة وينسكب فوقى ويفمرنى بتيار من السحر ، واذنى ترهف السمع الى دعة السماء وسكبتها! ... وتجتاح قلبى روحانية صامته ... رياه !

ليس للحب حد ولانهاية ... انما الحد والنهاية من صنع البشر لا من صنع يدك .. يا رياه .. ليس فى مقدورى ان أنزع الحب من قلبى واخفيه من جوانحى اللهم الا بعد انتزاع ذلك الخافق بين الضلوع ... »

هكذا كان جيد رائعا فى تصوير المشاعر الانسانية الا انه كان صريحا ينادى بمبدأ المتعة ويدعو الى التحرر فإى نعيم واى سعادة مادام المنال عصى الطلب على السواد الاعظم من الناس ؟ .. ومن هنا وجدنا فى كتابات أندريه جيد صراحة قلما نعثر على مثلها عند غيره من المفكرين والادباء .

حضارة الغرب في العالم الجديد

يتكون الشعب الامريكى من مزيج من الاصول والسلالات ولكنه برغم ذلك قد كون له طابعا يختلف عن الطابع الاوربى بحكم تطور الزمن واستقلال امريكا .

وحضارة الولايات المتحدة هي حضارة الصناعة التى تعمم الرخاء وتعمل للثروة .

والعوامل الاقتصادية هي الاساس الذى تقوم عليه الحضارة الاوربية . الامريكية على السواء وما فى الولايات المتحدة من سمات تختلف عما نراه فى سائر الاقطار انما يعزى الى تقدم الصناعة ، وقد جات بذرة الحركة الصناعية الى الولايات المتحدة من اوربا ، ولكنها لم تزدهر فى اوربا قدر ازدهارها فى امريكا .

والحضارة فى الولايات المتحدة الامريكية تعتمد فى اكثر اصولها على الصناعة ، والكميات الضخمة التى تنتجها الولايات المتحدة بالمشروعات الحرة رفعت مستوى المعيشة فى كل مدينة او قرية وتمكن 68% من التسعة والعشرين مليون عائلة فى الولايات المتحدة من امتلاك سيارات خاصة بها وتهيأت الفرصة لعائلة كل عامل لامتلاك آلة تبريد وآلة غسيل وتليفون . وغيرها من وسائل الراحة والاستمتاع .

ويبلغ متوسط عدد الصناعات الجديدة التى تظهر سنويا بربعوس اموال الافراد ٢٠٠ الف صناعة .

وهكذا كانت الحضارة الامريكية تدعو الى النمو الاقتصادي وازدهار الاحوال الاقتصادية حتى ان الاخلاق والاسرة ومركز المرأة ونظام الحكم اصبح اليوم فى امريكا تابعا للاحوال الاقتصادية ، فالاسرة كتلة اقتصادية تتمسك بالمصالح المادية التى تربط الابوين وابناءهما بحيث اذا تراخت هذه المصالح تفككت هذه الكتلة .

وتقوم الحضارة الامريكية كذلك على العلم ، فالفرد الامريكى يؤمن بالعلم ايمانه بالصناعة ولا يفكر الا فى استفلال العلم والتمتع بمنتجاته دون أن يعبا كثيرا بالجانب المعنوى لنفسه ودون أن ينعم النظر فى العالم الباطنى الذى يحمله فى قلبه وروحه .

واذا كانت اوربا تعتمد فى كثرة الانتاج على سياسة الجهد وترغيب العمال فان الامريكيين يعتمدون فى ذلك على مخترعات العلم الحديث وعلى الالات الجديدة التى تزيد الانتاج وتقلل ساعات العمل ، بل أن الزوجة

الامريكية نظرا لما تستخدمه من طرائق العلم الحديث في منزلها يمكنها ان تترك البيت لتعمل خارجه دون اهمال لشئونه .

ولقد دفعت هذه الروح الصناعية البحتة للحضارة الامريكية وهذه النزعة المادية الصرفة للعقلية الامريكية - دفعت نخبة من الكتاب الامريكيين الى الثورة على الاوضاع الراهنة مثل الكاتب الحر « شرود اندرسون » الذي لاتعجبه الحضارة الامريكية بما فيها من سيطرة للالة، ويفزع الى عالم التأمل والاحلام، وشيخ هذه الحضارة بالسخرية اللاذعة والتهمك المرير حيناً او بالفرار الى الطبيعة حيناً او الالتجاء الى الطفولة وعالم الاحلام حيناً آخر .

وكذلك قام (سنكلير لويس) بمثل هذه الدعوة فكتب قصة (بابيت) التي هي صورة مروعة لمخلوق هزيل هو نتاج الحضارة الصناعية . وقد اخذ لويس يرسم لهذا المخلوق صورة رائعة من نفسيته وتصرفاته ، فهو انسان لا شخصيه له يشغل مركز وكيل عقارات ويحيا حياة ملؤها الحركة والعمل والنشاط لانه آلة لانتاج الدولارات غير انه في الخامسة والاربعين من عمره يحس انه على شفا الهاوية وقاب قوسين او ادنى من الموت ، وانه لم ينعم بعمره ولم يستفد من شبابه ، فيقذف بقلبه في احضان الحب ويهرع بعقله الى اكناف الفكر الحر المتمرد على الاوضاع الراهنة .

وليس معنى هذا ان شرود اندرسون او سنكلير لويس او غيرهما من الكتاب والمفكرين في أمريكا يريدون انتزاع الحضارة الامريكية من اصولها الصناعية ومقوماتها الآلية ، انما ينادون باصلاحها واستكمال اوجه النقص فيها وجعلها مقرونة بفضائل القلب والروح ايضا .

ولا يحفل الشعب الامريكي في حضارته كالشعب الانجليزي مثلاً بروح التقاليد ، انما يمتاز بالتجديد ، فالتجديد سائر على قدم وساق في التعليم بفضل جون ديوى وغيره من المفكرين المجددين في هذا الميدان . كما ان التجديد قائم في فن العمارة، وما ناطحات السحاب الا لون من التجديد والاختراع في فن العمارة الذي قلما نجده في أوروبا او في العالم الاسلامي والعربي بوجه عام .

ويمتاز الامريكي كذلك في حضارته بشدة الثقة في نفسه ولا يعبأ بالتقاليد الاجتماعية ، ويرجع موقفه هذا الى الظروف التي تكونت فيها أمريكا ، ففي واشنطنون - على ما جاء في رواية قديمة - يجد السفراء الاجانب مشقة أليمة في الحصول على الخدم . وما من امريكي يقبل أن يرتدى زي الخدم، وليس ثمة ما يدعو اى امريكي الى ذلك، فالسفراء مضطرون الى اختيار خدمهم من بين الأجانب الذين سرعان ما يتركون هذا العمل اذا ما وجدوا عملاً آخر لا يفرض عليهم زياً خاصاً . . .

وكان السواد الاعظم ممن جاءوا أمريكا من الطبقتين الفقيرة والوسطى ، ولما كانت مشقات الحياة في العالم الجديد قد عجمت عودهم وخبرت قناتهم واكسبتهم شدة في البأس والمراس وجعلتهم أكثر اعتماداً

على انفسهم فقد فقد الامريكيون كل اهتمام بالمركز الاجتماعى او
اكثراث به .

وهكذا لم يجد احد فلاحى فرجينيا وهو متمتع بتمام قواه العقلية
غضاضة فى أن يقول للورد بلتيمور فى وجهه أنه كذاب أشر ، وان يهدده
بلكمة يدمى بها وجهه ، وان يتحدث عامل صغير فى (سيرك) لترويض
النمرة والاسود ويدعى بارنام الى الملكة فيكتوريا فى قصر بكنجهام كأنه
يتحدث الى اية سيدة فى الولايات المتحدة الامريكية .

وتقوم المرأة فى الولايات المتحدة الامريكية بنصيب كبير فى تدعيم
الحضارة الامريكية والمشاركة فيها بكل قواها . وبالولايات المتحدة الآن
نحو ١٢ مليون امرأة يعملن فى المصانع والمكاتب ويعملن وهن فتيات او
عوانس تقدمت بهن السن او متزوجات لا يمنعهن الزواج من التكسب
خارج المنزل ، وقد رفع الامريكى المرأة الى أعلى منزلة وأسمى مكانة ولها
الحل والعقد فى جميع شئون التربية والمنزل ، ويرجع ذلك الى أن
المرأة وقفت الى جانب الرجل وعملت معه فى جهود الاقتحام والارتداد
وأظهرت شجاعة ممتازة وكفاية منقطعة النظر فى تدعيم كيان الشعب
الامريكى .

وقد قيل : أن الحضارة الامريكية لاتعبأ بالفنون ولا تكثرث بالآداب
الرفيعة ، ولكن هذا القول فيه كثير من الجور وعدم الانصاف ، وهذا لا يمنع
أن أمريكا مقصرة بعض الشيء فى هذا الباب لزيادة الآلات كالسينما التى
طفت على المسرح، كما أن الفنون الجميلة محتاجة الى قرون طويلة حتى
تنضج وتزدهر .. وامريكا امة حديثة .

وقد قامت نخبة من المفكرين الامريكين منهم سنكلير لويس وتيود
وروديز ابتون سنكلير وغيرهم بدعوة صريحة فى العصر الحديث لحفظ
الآداب الرفيعة والفنون واعتبارهما قاعدة الحضارة الحقيقية وتقديس
ما توحى به من رغبة فى طاب الجمال والسمو بالنفس وتلطيف الشهوات
.. والسمو بالاخلاق وبث روح المحبة الصادقة والاخاء التام بين أبناء
الانسانية جميعا .

تلك هى ملامح فى الحضارة الامريكية وهى تدل على بوادر طيبة
ومظاهر نافعة سوف تنمو على مر الايام وتزدهر .. وتنتج من كل زوج
بهيح ...

من عجائب العلم والاختراع فى الغرب

فى كل يوم يمر ياتى لنا العلم بشئ جديد . . . شئ لم يكن لى الحسبان وهو أشبه بالحىال وأقرب الى الأحلام . . . غير أن سلطان العقل البشرى أخرجه الى دنيا الحقيقة وعالم الوجود .

ومثال ذلك أنه امكن باساليب كيميائية جديدة منع الأرض أن تشرب الماء وتجنيب الطرق من الأوحال ، ففي أماكن كثيرة فى الولايات المتحدة وفى بعض البلاد الأخرى امكن أن تلبس الأرض وقاء لا يتغذ منه الماء ، وذلك باستعمال مقدار يسير من مادة صمغية (رانتجية) تخلط بتراب الأرض وتمد على سطحها . ولا يزيد عمقها على بضعة بوصات ، وليس هذا الغطاء الذى يغطى التربة أشبه بالاسفلت الذى يغير شكل التربة إنما هو غطاء يظهر التربة كما هى فى الصورة ، بيد أنها تختلف عن غيرها فى الواقع . وإذا انهمر المطر سال الماء عنها الى الخنادق أو بخر دون أن يخرق السطح .

وقد بسط هذا البساط الكيميائى الواقى على الطرق التربة فى جنوب الولايات المتحدة وبنما وغينيا . وظل طريق ترب فى ولاية مسيسبى - بعد أن عولج بهذه الطريقة - جافاً صلباً طوال فصول المطر الفزير .

ومن فوائد هذا البساط أنه يمنع نمو الحشائش والاعشاب فى أفنية المصانع غير المرصوفة والمناطق التى تمتد فيها خطوط السكك الحديدية - وساحات التنس التى اتخذت سطوحها من الصلصال .

ويرجع هذا الاختراع العلمى الى الدكتور ونتركورن خريج جامعة مين لىبزيج الألمانية والذى هاجر من المانيا الى أمريكا حيث صار مدرساً فى جامعة ولاية ميسورى ثم تجنس بالجنسية الأمريكية . وأنشأ منديسنوات - معمل علم التربة ، فى جامعة برنستون .

وفى ميدان الحياة البيئية امكن اختراع الحرارة السائلة التى أصبحت مصدراً مستقلاً لقوة تنفع فى الطبخ والتدفئة والتبريد وغيرها من شئون المنزل .

والحرارة السائلة مادة كيميائية جديدة أخرجتها مصانع مؤسسة «جون بيرسى» وتحقق قوة محرك واحدة تجمع معدات البيت بعد أن كانت حرارة الغاز فى البيوت المتوسطة تحمر اللحم وحرارة الفحم تسخن الماء ، وتدفع الغرف ، والكهرباء تسير الثلجات وتنجز أشياء أخرى كثيرة .

والجزء الاصيل فى الجهاز الجديد الذى يغنى عن شتى وسائل القوى

المحركة عبارة عن موقد ومرجل، أما وقوده فهو فحم الانتراسيت، وفي المرجل وأنابيب الجهاز نحو ستين جالونا من «سليكات تتراكوبسيل» بدلا من الماء، وتتم الجالون من هذه المادة ريبال ونصف الريال، ولكن اذا ما صنعت منه مقادير وافرة للبيع نقص الى نحو نصف ريبال .

وإذا استثنينا ما قد يذهب منه سدى بالرشح فإن الحاجة لا تدعو الا الى اضافة جالون واحد كل خمس سنين . وبعد أن تنتقل الحرارة السائلة من المرجل تسير في أنبوب ملتف، فلا تلبث أن تظفر بماء سياخن لا ينقطع وبغير حاجة الى خزان ثم ينعطف الماء في الانبوب الى آلة التبريد فيحرك جهازها .

والحرارة السائلة تسير الى كل جزء من مواقد الطبخ الحديثة ويضبط سيرها صمام كصنبور يقطع الحرارة أو يطلقها على حسب ما نشاء، ويتم ضبطها بطريقة بسيطة كالطريقة المتبعة في افران الغاز والكهرباء .

وقد اخترع حديثا جهاز للاشعاع اطلق عليه (راديتور) طوله ١٣ بوصة وعرضه عشر بوصات وله مروحة تدفع الهواء الدافئ في غرف البيت فيدفئها، وفي الوسع أن تصل أنبوبا تناسب فيه الحرارة السائلة بالادوات الميكانيكية لغسل الصحون وأجهزة غسل الملابس وعصرها وتجفيفها وآلات تبريد الهواء وغيرها من المعدات، كما يمكن استخدام القوة الحرارية في ادارة أجهزة الراديو والتليفزيون والمراوح الكهربائية .

وبهذه الطريقة تغني قوة حرارية واحدة عن قوى حرارية مختلفة، ويمكن توفير نحو نصف ثمن الوقود الذي يستخدم للطبخ أو التدفئة، إذ أن البيت لا ينتفع عادة بأكثر من ٥٥ ٪ من حرارة الفحم الذي يلقي في الموقد، وهذا ضرب من ضروب التبريد الذي يمكن ملاقاته باستخدام الجهاز الجديد .

وبرغم ان الحرارة السائلة تستخدم بشروط خاصة في بعض الاحوال الكهربائية فإنه من المنتظر التغلب على جميع الصعاب المتعلقة بهذا الموضوع .

واخترع لي دي فورست أنبوبا سحريا أطلق عليه « أنبوب اوديون » وهو أساس الصناعة الكهربائية (اليكتروتوكس) التي تقدر بأربعة آلاف مليون دولار وأمكن بهذا الانبوب نقل صوت الانسان فوق المحيط الاطلسي، وانشاء أول خط تليفوني منتظم بين نيويورك وسان فرانسيسكو، وحين شاع استعمال التلغراف اللاسلكي بإشارات مورس كان خير جهاز معروف لالتقاط الاشارات من الهواء أنبوبا غليظا مملوا ببرادة فلزية تتلاصق حين تجيء الاشارة فتتم بتلاصقها الدورة الكهربائية ثم لا بد من طرق الانبوبة بالمطرقة لكي تتفرق الدقائق المتلاصقة حتى يستطيع الانبوب أن يلتقط اشارة أخرى، ولذلك أخذ لي دي فورست يسعى الى اختراع كشف جديد للاشارات أفضل من هذا الكشف .

وادخل لي دي فورست تحسينات مختلفة الى هذا الانبوب وأمكن اختراع جهاز « بليوتورور » الذي يقذف تيارا من أمواج الراديو القصيرة

التي تولد الحرارة لتخترق الحشب والعجائن وتزيد أوارها في فترة وجيزة الى درجة كبيرة كان لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق فرن كبير .

وهذا النوع الجديد من أنبوب أوديون يستعمل في خياطة المعاطف الواقية من المطر المصنوعة من مواد كيميائية فبدلا من أن تخاط اطرافها يضم بعضها الى بعض بتأثير الاشعة ، وهو يستعمل أيضا في طبخ اللحوم .

وأمكن اختراع عين كهربية تفتح الابواب وتحمي المستودعات وتقرز رزم البضائع وتخترق الضباب فوق البحر حتى تنزل الطائرات سالمة في العواصف أو الظلام وتمنع القطر من الاصطدام .

وفي عالم الطيران استطاعت الطائرات أن تسير بقوة المحرك النفاث أو الصاروخ وأمكن طائرات النقل أن تطير في جو الأرض بسرعة تفوق سرعة الصوت كما تستطيع هذه الطائرات أن تحلق الى طبقات الجو العليا، أما خارج جو الأرض فقد استطاعت الطائرات بلوغ سرعة ١٠٠٠٠٠ ميل في الساعة بالقياس الى سطح الأرض بكل ما عليه من أحياء وأشياء الذي يقطع الفضاء في دوران الأرض بسرعة ألف ميل في الساعة ليل نهار ، والمجموعة الشمسية تدرج الفضاء بسرعة ٥٠٠٠٠٠ ميل في الساعة .

وفي عالم الزراعة استطاع عالم أمريكي يسمى ادجر مكفدن أن يثبت قمحا عظيما لا تدركه الأمراض ، وقد راودته فكرة انبات هذا القمح الجديد في مزرعته بولاية ساوث داكوتا حيث أصاب مرض الصدا زرع أبيه ولم يكن غير خمسة معايير من أربعين معيارا عن كل فدان ، ولم يلبث هذا الوباء أن اجتاح ولاية تكساس كلها وأصاب الأرض بالقحط والامحال ، وفي سورة هذا الوباء الذي يهلك القمح لاحظ أن هناك ضربا من القمح لا تصيبه آفة الصدا ، وهذا الضرب يعرف باسم « ياروسلاف امر » ، ولكن هذا القمح القوى الكثير الالياف لا يصلح الا عليفا للمواشي .

وأخذ العالم مكفدن يفكر ويقدر وأخيرا اخذ ملقطا دقيقا وأزال به عضو الذكر من نوار قمح « ياروسلاف امر » ثم نفخ على بقية النوار لقاحا من قمح «ماركوبس» ولف الرءوس بورق رقيق ليمنع اى تلقيح له لم يصنعه هو بيديه .

وفي الحريف رأى جبوبا سقيمة أسفرت عنها المزوجة التي تمت في الصيف ثم بذر هذه الحفنة من الحبوب التي جناها في الحريف السابق ، وجعل يرويها يوما بعد يوم ويتطلع الى اليوم الذي تثبت فيه ، ولكنها أبت أن تثبت وأخيرا لاح له شعاع من أمل وقبس من رجاء، وأطلت نبتة واحدة براسها وظل مكفدن يزاول تجاربه حتى نجح في اخراج نوع جديد من القمح يقف امام مرض الصدا . دون أن ينال منه شيئا . وأطلق على هذا النوع اسم الامل Hope ومضى هذا النوع من القمح ينتشر شيئا فشيئا حتى قدرت المساحة التي زرعت في الولايات المتحدة وكندا بقمح مولد من صفة تلك الحبة السقيمة التي جناها مكفدن بنحو مائة مليون فدان . وبيعت منه محاصيل وافرة الى مختلف بلدان العالم فمنعت الجوع عن ملايين البشر ، وصانت الملايين من المحاصيل من الهلاك .

وفي عالم الطب يمكن الوصول الى طريقة للتوليد بلا ألم بعد ان كان موضوع الولادة عبثا ثقيلًا ، وهما عظيمًا تحمله النساء ، فأمكن الوصول الى أسلوب جديد في التخدير مختلف عن الأسلوب المستخدم حاليا ، وتقول النساء اللواتي حقن بهذا المخدر أنه زال منهن بعد الحقنة الاولى بضع دقائق كل شعور بالألم وهذه الحقنات تتكرر في فترات تختلف على حسب الحاجة من ثلاثة ارباع الساعة الى ساعة ، وتظل المرأة التي تنتظر الوضع مضطجعة على سريرها لا تشمر بألم الى ان يأتي وقت الوضع فتنتقل الى غرفة الوضع .

ويجب بذل كل عناية لتقع الابرة تماما على الموقع الذي تقع عليه فلا يصل المخدر الى الدم او الى سائل العمود الفقري بل الى البقعة المحيطة بالعصب ، ولهذا الغاية ابرة من الصلب تقبل الالتواء ولا يتطرق اليها الصدا ، وهي لقبولها الالتواء لا تنكسر ولو تقلبت المرأة على سريرها ، ويجب استعمال مخدر موضعي لقتل الألم عند ادخال الابرة ، وهذه الابرة متصلة بأنبوب من المطاط بزجاجة تحتوي على المحلول المخدر ، ويحقن منه بضع ملاعق صغيرة واسمه (ميتكاين) وهو احد مركبات الكوكايين .

ويقول الدكتور فرنسيس آرفنج أستاذ فن التوليد بكلية الطب بجامعة «سيراكيوز» الامريكية وقد أتاحت له الفرصة لاختبار الطريقة الجديدة : « ولا شك أن هذه الطريقة كاملة من جميع الوجوه ، فهي تمنع آلام المخاض ، ولا تؤثر في حياة الام أو الطفل » .

وبهذه الطريقة يمكن العلم أن يكتشف أسلوبا مامون العواقب لمساعدة الام على الوضع بدون ألم .

وتمكن الوصول الى اختراع جديد في عالم الورق ، وهو الورق الذي لا يصيبه البلل ولا يتلفه المطر ، ولا يعنى هذا أن الماء لا يخرق الورق الجديد انما هو يبطل كأي ورق ، ولكنه متماسك فلا يتمزق ولا يتقطع ، واذا غطيت هذا الورق ببعض الصمغ أو الشمع فإنه في هذه الحالة يقاوم البلل بشدة ، ولا يخرق الماء أنسجته وقد وضعوا منذ عهد قريب كيسا من طبقات من هذا الورق بينها أسفلت لمنع الماء من النفاذ ثم مليء الكيس دقيقا والقي في نهر نياجرا ، فهوى من فوق الشلال ، وظل سبع ساعات ونصف الساعة يصدم الصخور عند أسفل الشلال ، فلما استردوه كان الكيس لا يزال صالحا للشحن ، وكان التدقيق الذي فيه جافا لم يدركه البلل . ولم يصبه الماء .

وقد استعمل هذا الورق في أثناء الحرب العالمية الاخيرة ، اذ انتفع به رجال الجيش ورجال الاسطول في صيانة كل شيء عرضة للرطوبة ، بل انهم أحضروا مجموعة من اكياس الورق وملئوها بالثبونة والاعذية والقوها في البحر حتى تصل الى الشاطئ الآخر فلم يصبها أدنى عطب أو تلف .

ويقول صانعو هذا الورق أنهم يستخدمون في صنعه نوعين من اللدائن نجدهما عادة في علب البطارية الكهربائية ، والاعطية التي تتخذ لزجاجات الادوية والعطور .

وصنع أحد رجال المصانع نموذجا لملائة تستطيع أن تفرشها على شاطئ البحر أو في روض فوق السنديس الأخضر عندما تخرج مع أسرتك لاجتلاء منظر الطبيعة الساحرة وتعمل هذه الملائة على رد الماء وانعكاس ضوء الشمس كما أنها لا تلتهب ولا تتأثر بالحريق، بل لقد توصل الصانعون الى عمل بيت مبنى كله بهذا النوع من الورق في أرض معهد كيمياء الورق في مدينة « ابلتون » بولاية ويسكونس وهذا البيت يتألف من حجرة طولها ١٦ قدما وعرضها ثمانى أقدام ، ولم يتأثر هذا البيت بوابل المطر أو انطلاق صنبور المياه .

وقد تمكن العلماء من اختراع نوع جديد من الفحم المسحوق الذي يمكن به ادارة محرك من محركات الاحتراق الداخلى بدلا من البنزين أو الزيت .

وأشبه في معمل جامعة جونز هيكنز في مدينة بلتيمور تربينات تتحرك بالفحم المسحوق على أحسن وجه .

والفحم الجديد مسحوق أشبه بسناج المصباح الاسود ، وقد بلغ من دقة اجزائه أنه حين يدفع في حجرة الاشتعال يشتعل فورا كأنه وقود من زيت .

وأمكن اختراع موقد للبيت ينفذ بتيار مندفع من الفحم المسحوق الذي يباع في علب محكمة الاغلاق .

ولكن هذا الفحم المسحوق لن يستطيع بأية حال أن يحل محل الزيت في أعماله الكبرى في تحريك دفة المدينة وعالم العمران .

وفي ميدان المواصلات السلكية واللاسلكية يتوقع العلماء أن تهدم في المستقبل غير البعيد اعمدة أسلاك التلغراف والتليفون فتباع حطبا للتيار ويحل محل التخاطب بأسلاك التلغراف والتليفون شبكة أو شبكات من الامواج الدقيقة ، فتمتزج فيها بأمواج لا يزيد طولها على بضعة بوصات فتحمل كل الرسائل التي تريد أن تحملها ايها من أخبار وصور واذاعات ومحادثات تليفونية وصور واحاديث تليفزيونية .

ومما يذكر ان شركة (انترنشنال بيزنيس ماشينز) عرضت اخيرا جهازا الكترونيا جديدا يستطيع أن يميز الكلمات الموجهة اليه وأن يجمع ويطرح الارقام التي تقرأ عليه شفويا واطلق على الجهاز الجديد اسم غريب وهو « صندوق الحذاء » لأنه يقارب حجم الصندوق الذي يستعمل لهذا الغرض .

وقال أحد المسئولين في الشركة المذكورة : انهم لا يعتزمون انتاج هذا الجهاز في القريب العاجل ، بيد أنه قد يكون في مقدمة عدد كبير من الآلات التي تستجيب للأوامر الشفوية وقد يكون من بينها آلات كاتبة تكتب ما يبلى عليها من تلقاء نفسها . وآلات تحزن المعلومات التي تملى عليها وآلات حسابية تستطيع الاجابة عن الاسئلة الشفوية .

كما اخترع العلماء جهاز « الأيسوفون » الذي يحل محل التليفون

ويسجل المكالمات التليفونية التي اتصلت بك في اثناء غيابك ويرد عليها
وعندما ترجع الى مقر عملك تستطيع ان تعرف من اتصل بك في الفترة
التي كنت فيها بعيدا عن مكتبك .

وفي ميدان التحاليل استطاع العلماء ان يحولوا مادة الى اخرى تختلف
عنها كل الاختلاف مما ربما لا يصدقه العقل او يعتبره ضربا من الاوهام أو
لونا من الخيال .

ومن العجائب التي وصل اليها العلم الحديث ان استاذنا في جامعة
هارفارد وعد ان يأكل قميصه اذا اخطأ وقد بر بوعدده ، فأخذ قميصه
وأذابه في حمض من الاحماض ثم عدل الحمض بمادة قلوية ، ثم صفى
السائل ، وأخذ المادة المترسبة فسطها على كرة خبز ثم أكلها .

وابتكر علماء الزراعة في أمريكا أنواعا جديدة من حبوب الذرة
العويجة لها رهوس شائكة وتطرد الطيور التي تتغذى بالحبوب ، ومن ثم
تقلل من الاضرار التي تلحق بالمحصول ، وقد زرعت فعلا على سبيل
التجربة بعض سلالات الذرة العويجة في جنوبي ولاية فلوريدا وأماكن
أخرى .

وفي ميدان الطب أمكن اختراع عيون عجيبة من اللدائن تغني عن عيون
الزجاج التي كثيرا ما ينبتزها الذين أصيبت عيونهم ساخطين ليلبسوا
غمامة سوداء ..

وهذه العيون الجديدة مصنوعة من نوع من لدائن البلاستيك على قياس
العين الطبيعية وترسم مقلتها باليد بحيث تشبه كل الشبه العين السليمة
من عيني من يستعملها .

وأهم من هذا انها تتحرك في يسر مع اختها الصحيحة ، وهي في هذا
تختلف كل الاختلاف عن عيون الزجاج التي لا يكاد ينقضى عليها عام حتى
تحدث فيها خدوش بفعل سوائل العين ، ومثل هذه العيون الثابتة تظل
تحتك ببقية العين المستأصلة التي تتحرك من ورائها فاذا طال لبسها
فكثيرا ما كانت تؤدي الى التهاب خطير .

وقد توصل العلماء الى اختراع قالب لحجر العين الضريبة وعضلاتها
بالطريقة التي تصنع منها قوالب الاسنان ثم تصب في هذا القالب اللدائن
السائلة فاذا هي كالعين الاصيلية ثم يأتي عمل الفنان الطبي الذي يرسم على
ورق دقيق جيد صورة الحدقة وانسانها حتى تماثل العين في شكلها ولونها
كل المعائلة ، ثم يطبع هذا الرسم على العين الجديدة لدرجة انه يصعب
تمييزها عن العين الاصيلية .

وتمكن عالم الماني يسمى « هنري هارتونج » من مدينة هامبورج من
الوصول الى اختراع سفينة جديدة للغوص هي أشبه بطائرات الهليكوبتر
التي تشق أجواز الفضاء ، ويمكن هذا النوع من سفن الغوص الى مسافة
سبعة آلاف متر تحت سطح الماء .

ويعمل الهليكوبتر الفواص بالطريقة التي يعمل بها الهليكوبتر الذي

يظهر في الفضاء ، أعنى أنه يعمل بمراوح أفقية فتساعده على الفوص
والصعود الى سطح الماء وفقا لاتجاه الدوران .

ويستطيع هذا النوع الجديد من السفن أن يقاوم ضغط الماء في دورانه
في صورة أعنف من سفن الفوص الاخرى . وقد جهزت مؤخرته بمروحة
اضافية تقوم بعمل الدفة التي تعين اتجاه الفوص .

وبالهليوكوبتر الغواص مخزن للبنزين ، واذا ما غاص في الماء أخذت
درجة حرارة البنزين في الهبوط فيتقلص حجمه ، ويقل وزن الهليوكوبتر
فيزداد هبوطه ، وتحدد المراوح درجة الهبوط في السرعة أو البطء .

ويخصص هذا النوع من الهليوكوبتر الغواص للبحث عن بقايا
البيواخر والطائرات الغارقة كما يستعمل حاليا في البحث عن آبار البترول
في أعماق البحار .

هذه بعض معجزات العلم الحديث التي استطاع العقل البشري أن
يصل اليها وصدق الله جل ثناؤه حين قال :

« استرهبهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

قصة كفاح

الفريد كروب ملك الفولاذ

لم تكن سنه تتعدى الرابعة عشرة عندما استيقظ ذات صباح فسمع نباحا اليماء في الدار جزعت منه نفسه وتقطع منه نياط قلبه وانهمرت الدموع من عينيه في لوعة وحسرة وحرقة وشجن : ذلك أنه سمع بوفاة والده (كروب الاكبر) ، ولكنه لم يلبث أن لم شعث نفسه . . . وجمع جماع قلبه ، ومنع الدموع من أن تسيل على خديه ، وذهب الى حجرة أمه يواسيها ويخفف عنها حدة المصاب وفداحة الحزن . . .

وورى كروب التراب وانقضت سحابة اليوم والاسى يخيم على أسرة كروب وما أن جن الليل حتى ذهب (الفريد) الى مخدعه ، لكنه لم يذهب لينام فقد اعتراه في ذلك الوقت أرق طويل واستغرق في تفكير متصل في السبل التي يستطيع أن يتكسب منها ويهيىء السعادة له ولامه . ولاح لعينه طيف أبيه ، فأنحدرت دموعه من مقلتيه ولكنه مسحها ، وصمم على الجهاد والكفاح . . .

ترك (كروب) الاكبر معملا صغيرا لصنع البواتق من الحديد الزهر واذابة الحديد الصلب ، ولم يكن يعمل في هذا المعمل سوى أربعة عمال وكان على رأسهم عامل مسن كبير يسمى (كومو) كان من أقرب الناس الى أبيه الراحل . فربت العامل المسن كومو على كتف الفريد ودعاه الى مراقبة العمل في المعمل والى أن يشرف بنفسه على سير العمل .

فكان الفريد يذهب كل يوم الى المعمل ويقف امام (الفرن) ويشاهد الحديد الصلب وهو ينصهر والحديد الزهر وهو يفرغ لعمل بواتق مختلفة الاشكال والاحجام ، فتعترية النشوة وينسى الالم وينشرح صدره ويطمئن باله . ولم تمض ست سنوات حتى استطاع الفريد أن يجعل هذا المعمل المتواضع مصنعا كبيرا يضم بين رحابه خمسين عاملا من خيرة العمال .

وعندما احتفل الفريد بالعيد العاشر لافتتاح هذا المعمل كان يحضر هذا الاحتفال في داخل المعمل مائة عامل شربوا جميعا نخب النجاح . . . في سرور وانشراح . . .

وقد استنبط (الفريد) ثلاثة أشياء استطاع ان يفرو بها السوق وتدر عليه ربحا وافرا وكسبا عظيما .

وأول هذه الاشياء طريقة عمل الملاعق المعدنية فضرت السوق ملاعق كروب المعدنية وارتاح الناس الى اتقان صناعتها ارتياحا كبيرا .

وثانى هذه الاشياء طريقة لعمل الاطر الحديدية من غير لحام .
وثالثها طريقة عمل المدافع من الفولاذ .
وقد قامت الطريقة الاخيرة بدور كبير فى حياته وكانت مسببا من
اسباب شهرته ومجده .

اما طريقة عمل الملاعق المعدنية فانه لم يلبث أن باع امتيازها بشمن
كبير جدا الى أحد رجال الصناعة فى انجلترا واستغل المال الناتج من هذه
الصفقة المربحة فى عمل تجارب عدة لصنع مدافع من فولاذ وعسل الاطر
من الفولاذ كمركبات السكك الحديدية . وكانت الاطر قبل ذلك تصنع من
الحديد الصاج وتلحم لحما فتكون كثيرة العطب قريبة الفساد .

ونظر الفريد كروب الى مصنعه بعد ذلك بسنوات أو انشئت الدقة
فقل عام ١٨٥٨ ، فوجد فيه ما يربو على ستمائة عامل فحمد الله على هذا
النجاح ، ثم خرج من المصنع وذهب لتوه الى البيت حيث توجه الى حجرة
امه وقرب يديها من فمه ، وطبع عليها قبلة حارة تنبض بالوفاء وتنطق
بالاخلاص .

واستطاع الفريد فى هذه الآونة ان ينتج مصنعه عددا كبيرا من الآلات
الضخمة والمطارق البخارية الكبيرة والافران الثقيلة . كما اشترك فى
المعرض العام الذى أقيم فى ذلك الوقت فى انجلترا وعرض فيه مدفعا
وقطعة كبيرة من الفولاذ ثقلها طنان ، وأهدى مدفعا الى ملك بروسيا فمنحه .
نيسان النسر الاحمر .

وعندما فتح المعرض الدولى الكبير للصناعات فى باريس عام ١٨٦٧
لم يشأ (الفريد) ان تفوته هذه الفرصة فعرض مدفعا طوله خمسة أمتار
وربع المتر وقطر فوهته ٣٥ سم وفيه أربعون حفرة لولبية وقضى فى عمله
سنة وأربعة أشهر وبلغت نفقات عمله ٦٥٢٥ جنيتها فى صنعها .

وذاع صيت مصانع (كروب) حتى زارها الملك ولهم الاول ملك
بروسيا بنفسه وسبك أمامه الفريد قطعة من الفولاذ ثقلها تسعة أطنان الى
٣٠٠ بوتقة وطرق قطعة أخرى ثقلها سبعة أطنان ونصف الطن وطولها ١٥
قدما بمطرقة بخارية فاشتدت دهشة ملك بروسيا من هذا العمل العظيم ،
واعتبر مصانع كروب فخرا عظيما فى تاريخ الدولة .

وتوالت بعد ذلك المؤتمرات والمعارض كالمعرض الأمريكى فى فيلادلفيا
ومعرض شيكاغو الدولى للصناعات وغير ذلك وكانت معروضات الفريد
كروب تنال الصدارة بين المعروضات العالمية المختلفة .

و ذات يوم زاره أحد رفاقه منذ الصبا وكان قد غاب عن بروسيا فى
رحلة طويلة فراعته ما شاعده فى مصنعه : فهنا مكاتب للبريد والبرق
والحريق ، وهناك مدارس وكنائس ومناسك ومطاعم وأندية للعمال وأبنائهم
وملاعب لثتى الالعاب الرياضية . ومضى ذلك الصديق ينتقل بين أنحاء
هذه المصانع والعجب يعلو محياها والدهشة تعقد لسانه وهو يرى كل هذه
الفرائب ، ويرقب القطر وهى تنتقل بين أنحاء مصنعه وتغيب عن عينيه
بعد أن تترك دخانا كثيفا لا يلبث أن يتفرق فى الهواء . . !

وذهب مادلنج رفيق الصبا الى الادارة العامة حيث يجلس (الفريد
كروب) على مكتبه وقد تقدمت به السن واشتعل رأسه شيئا وارتسم عليه
وقار الشيوخ وبدا في عينيه نشاط الشباب .

ذهب مادلنج الى صديقه الفريد فلم يكذب يراه حتى احتضنه بين ذراعيه
وغمره بقبلاته ثم اعطاه معاومات دقيقة عن مصانعه وذكر فيما ذكره له ان
بمصانعه ٤٦٧٠٠ عامل و ٤٥٨ آلة بخارية وسكتين حديديتين طول الاولى
٢٦ ميلا وفيها ست عشرة قاطرة و ٧٠٠ عربة وطول الاخرى ٢٣ ميلا وفيها
٢٦ قاطرة و ٥٠٠ عربة ، كما ان بمصانعه ٥٩٠ ميلا من اسلاك البرق
و ٣٢٨ محطة للتليفون .

فذهل مادلنج رفيق الصبا من ذكر هذه المعلومات وهناه على نجاحه
المتقطع النظير غير ان الفريد كروب ظل يتكلم وكأنه يستلهم الماضي
ويستعيد الذكرى امام عينيه ويقول :

اني احسبان اول نعمة من الله بها علي ان خلقني فقيرا ، فان هذه النعمة هي
التي دفعتني الى الجهاد والكفاح والكدح والاقتصاد وانكار الذات ، وعرفتني
قيمة المال ومدى ما يكابده الانسان في سبيل الحصول عليه ، فان ابن الغنى
يدخل ميدان الحياة مغلول اليدين لا يعرف قيمة ما عنده ، اما ابن الفقير
فيعرف قيمة الشيء ، وقيمة الشيء على حسب التعب الذي ينال به وما تعب
على نياله كثيرا تزداد قيمته في عينيه عشرات الاضعاف .

وسمع الصديق هذه الكلمات فحرك رأسه في استجابة الصديق . . .
وقال وهو يحاوره . . . حقا يا صديقي . . . حقا يا صديقي . . .

الموسيقى تغزو

مصانع العمال في الغرب

ان ما كان بالأمس حلما أصبح اليوم حقيقة واقعة وما كان يجول بخلد الفنانين والشعراء كأنه وهم من الأوهام أو أسطورة من الأساطير غدا اليوم يتمثل في وقائع الحياة ، في المجتمع الأوروبي والأمريكى والروسي وغيرها من المجتمعات المتحضرة . .

لقد كانت الموسيقى بالأمس سنوى الفنان ، وشفاء للمحب الحزين أو ذى القلب المتفطر حتى ينسى آلامه وأشجانه وتباريحه وأحزانه فأصبحت اليوم فضلا عن ذلك تخضع لتجارب علمية ، ومقاييس دراسية في أثناء اجراء العمليات الجراحية في المستشفيات الكبرى أو في أثناء تخدير المريض تخديرا موضعيا أو في عموده الفقري ، فيستمع اليها بسماعتين توضعان على أذنه ، فتخففان عنه وقع الشعور بأن الأطباء يمزقون بمباضعهم جسمه ، كما دخلت الموسيقى اليوم المستشفيات في البلاد الغربية للترويح عن المرضى والتفريج عنهم ، واتضح من التجارب التي يجريها الأطباء على هؤلاء المرضى أنهم ينامون نوما هادئا هنيئا ، وتسكن أعصابهم ، ويطمئن شعورهم ، ويزداد تعلقهم بالحياة ، ويشرق أمامهم الأمل عقب سماعهم الموسيقى .

كما اخترع الدكتور المربست مقعدا موسيقيا لقيادة طبيب الأسنان يجلس عليه المريض فيصغى الى روائع النغم تناسب في أذنه وتصرفه عما يكابده من ألم ويقاسيه من وجع في أثناء خلع احدى أسنانه أو حقن لثته .

ويقول الدكتور البريجادير جنرال رالف دى فو مدير مستشفى هالوران : ان الموسيقى يجب أن تكون في مقدمة وسائل التفاعلة في المستشفيات العسكرية .

وقد رأت مراكز الصليب الأحمر في بروكلين وبوسطن ويقولون : ان عزف الموسيقى في أثناء عمليات نقل الدم يأتي بنتائج باهرة ، ومن ثم لجأت الى هذه الطريقة في كثير من العمليات حتى لا يصاب المتطوع بالانغماء في أثناء اجراء هذه العملية .

الموسيقى في المصانع الحربية

وأخيرا استطاعت الموسيقى أن تدخل المصانع الحربية ، فصارت بعض المصانع في أمريكا تديع القطع الموسيقية عن طريق الراديو أو الجرامافون في أثناء القيام بالأعمال اليدوية، وعمد الى هذه الوسيلة أكثر

من ثلاثة آلاف من المصانع الحربية الأمريكية ، فبعثت في العمال روح الإقبال على العمل بعزم ونشاط ، وصار العامل يشتغل في عمله وهو صافي الذهن ، منشراح الصدر ، وضاه الأسارير .

وتدل الإحصائيات الرسمية التي أجراها الباحثون في هذه المصانع على أن الإنتاج ازداد عقب استخدام الموسيقى ازديادا ملحوظا ، كما بعد عن العمال التراخي والكسل ، وفتحت مداركهم لشتى العمليات الصغيرة التي يقومون بها .

وقد استعانت المصانع الحربية بعلماء النفس وأقطاب الموسيقى في اختيار المقطوعات الملثمة والمؤثرات الصوتية المناسبة ، فمما لا شك فيه أن الموسيقى التي يحب العامل أن يسمعها بمجرد أن يستأنف عمله في الصباح الباكر تختلف عن الموسيقى التي يجب أن يسمعها وهو على أهبة الانتها من العمل أو الانصراف للغداء ، كما أن الموسيقى التي ينبغي أن يسمعها عقب تناوله الغداء تختلف في تكوينها عن تلك الموسيقى التي ينبغي أن يسمعها وهو على وشك الانتهاء من عمله اليومي والذهاب إلى دور الحيازة أو المسرح أو ما إلى ذلك .

أثر الموسيقى في العمال

وقام رتشموند كاردينل مدير أبحاث الموسيقى بالولايات المتحدة الأمريكية والدكتور هارولد موريس ماير بمباحث وتجارب واسعة النطاق لمعرفة مدى تأثير الموسيقى في إنتاج العمال ودرجات نشاطهم اليومي ، فأتضح أن الموسيقى انقصت حالات انصرافهم قبل الميعاد بمعدل ٦٦٪ وهبطت بحالات الغياب عن المصانع بنسبة ٨٧٪ وزادت نسبة الإنتاج بمقدار ١١٤٪ وأسفرت تجارب العالم الموسيقى رتشموند والطبيب هارولد على أن نسبة الشعور بالتعب والارهاق والصداع نقصت إلى حد كبير كما راقبا العمال في أثناء انهماكهم في العمل، فأتضح لهما أن العمال قلما ينظرون إلى الساعة المعلقة على الحائط أو يقطعون الوقت بالثرثرة وفارغ الكلام، كما أن الأساليب الحادة الجافة التي يستخدمها العمال بعضهم لبعض في أثناء تبادل أدوات العمل أو شكت أن تختفي تماما ، وكذلك بعض العملات امتنعن عن التشديق « باللبان » وشغلن بالموسيقى وانكبين على العمل في شغف وإخلاص .

وكان لهذه النتائج شأن كبير في رفع مستوى المصنع وزيادة إنتاجه زيادة ملحوظة مما اغتبط به الرؤساء اغتباطا شديدا ، فزادوا علاوات العمال الذين يشتغلون في هذه المصانع ، فاشتد اقبالهم على العمل ، وعظمت رغبتهم في انجازه على الوجه الأكمل .

الروس يستغيثون بالموسيقى

وزحفت الموسيقى بشكل ملحوظ الى كثير من المصانع الروسية . وللروس موسيقى خاصة ، قلما يرتاحون لسواها من الموسيقى (المقطوعات) الغربية .

ولذا كان عزف المقطوعات الشعبية الروسية شيئا يلذ العمال الروسيين الى حد كبير ، واصيب احد العمال الروس بصدمة عصبية في اثناء العمل ، فلم يقو على الحركة ، فأخذ يضج ويصخب في وجه زملائه ، ويتصور انهم مقدمون على قتله ، ولم يهدأ روعه الا عندما عزفت له الموسيقى بعض القطع الروسية التي تعود ان يستمع اليها في فترة معينة في حياته .

ويستخدم احد المصانع الحربية في المانيا مقطوعات موسيقية معينة للعمال الذين يدخلون المستشفيات العسكرية : فمثلا انشودة المسرة لبتوفن وشوبرت ثلاثم المرضى بالملانكوليا او الكآبة والانتقباض كما ان قطعة فاجنر ثلاثم المرضى الذين يتورون لانفخه الاسباب .

اما من بهم امراض نفسية خفية فيمكن معالجتهم تجريبيا بقطعة اتود ان سول ماجور من شوبان Etude en sol majeur او قطعة السونات باثيتيك لبتوفن .

وأثبتت التجارب العلمية ان قطعة « مالكوريزت » لفاجنر زادت في حركة التنفس عند احد عمال المصانع المرضى من ثمانين عشرة مرة في الدقيقة الى ثلاثين مرة ، وكذلك زاد النبض عنده بعد ان كان بطيئا .

وحذا حذو المصانع الحربية كثير من المصانع المدنية والمطاعم ومصانع النسيج والعمود وادوات الزينة فزاد انتاجها بصورة واضحة ملموسة .

ويجرب اصحاب المصانع تجارب متعددة لاختيار احسن انواع الموسيقى وانسبها للعمال مستعينين في ذلك بخبرة الاخصائيين ، واتضح ان احسن انواع الموسيقى في المصانع هو الموسيقى الهادئة الوداعة الرقيقة التي لا تحمل الصخب ولا الضجيج ، ووجد البحائة الطبيب فيري Fairy ان الموسيقى السهلة تزيد في تفتح الاوعية الدموية في حين وجد ان العنيفة منها تضيقها .

واستحسن الاطباء استخدام الآلات الملائمة كالبيانو والكمنجة والكيلارنت والناي في معالجة العمال الذين يفقدون الى المستشفيات لعلاجهم مما يشكون من المرض ، اما الهارمونيوم والشيلو والباس فوجدوا انها غير ملائمة للعلاج بالموسيقى .

واتضح من التجارب كذلك أن موسيقى الجاز باند العالية الصاخبة تثير العمال في أثناء قيامهم بالعمل . وتبعث اليقظة فيهم مرة واحدة ، غير أنها لا تترك أثرها الا لمدة محدودة ولفترة وجيزة ثم يعود التراخي والخمول الى نفس العامل .

مدة اذاعة الموسيقى

والمتابع في المصانع الامريكية أن اذاعة القطع الموسيقية في أحد المصانع تشغل نحو ساعتين ونصف الساعة في اليوم على فترات يتردد طول كل منها بين عشر دقائق وعشرين دقيقة ، ويعمد كثير من أصحاب المصانع الى تشجيع العمال لتكوين فرق موسيقية ترفه عن زملائهم في أوقات الفراغ ، وتقوم باحياء حفلات موسيقية للعمل في المواسم والاعياد وتصاحب بعض الفرق الرياضية في الاندية والملاعب لتشجيع اللاعبين ، واثارة الحماسة في نفوسهم واذكاء الروح المعنوية العالية فيهم ، بل لقد دلت بعض الاحصائيات الفنية الدقيقة التي أجريت في بعض المصانع الامريكية أخيرا أنه قد نبغ بين العمال في المصانع لفيف كبير من هواة الموسيقى والغناء والتمثيل ، وانضم لفيف منهم الى ميدان المسرح والسينما فنال شهرة واسعة امتدت عبر البحار .

وهكذا استطاعت الموسيقى أن تغزو المصانع في الولايات المتحدة كما غزت المصانع في روسيا وسنكت سبيلها في المؤسسات والمستشفيات المختلفة بل في البنوك والمكاتب الهندسية المزدهمة بالموظفين مثل مكاتب مجلة ريدر ديجست وشركة توماس للنشر وغيرها ، وتضم هذه المؤسسات بين جنباتها مئات من الموظفين والخبراء والمهندسين والعمال الذين يقبلون على أعمالهم بنفوس راضية مرضية ، وعزيمة وثابة لا تعرف الركود ولا الخمول .

الموسيقى في مصر

ودخلت الموسيقى في بعض المصانع في مصر ، بل لقد دخلت في بعض عيادات الأطباء مثل عيادة الدكتور محمد داود التنير الذي يعالج مرضى الأسنان على نفقات الموسيقى ، ولكن الموسيقى برغم هذا كله توجد على نطاق ضيق ونسبة ضئيلة ، وانا نأمل أن تستعين المصانع المختلفة بالموسيقى في تشجيع العمال على العمل وترغيبهم فيه كما نأمل أن تستعين المصانع بالاخصائيين من علماء الموسيقى وعلماء النفس بل بالأطباء كذلك في هذا المضمار حتى لا تكون النتيجة عكسية وحتى لا تضر العامل بدلا من أن تنفعه ، وتدفعه خطوات الى الوراء بدلا من أن تأخذ بيديه قدما الى الامام ، فيسفل بالبحث عن الاغاني ، والمردول من الموسيقى ، والمتهافت المتخثث من الألحان ، فتضعف عزيمته ، ويفتر جهده ، ويقل نشاطه ويفقد انشراحه للعمل .

وينبغي أن يهتم الأطباء بفائدة الموسيقى في العلاج ، والمعروف انه ظهرت في هذا الميدان ابحاث شتى ، وقدم الفنان ماكس ريجر منذ سنوات الى جامعة برلين بحثا عن الموسيقى نال عليه درجة الدكتوراه ، كما استطاع الجراح الامريكى جون هوارد استخدام الموسيقى في عمليات لم تكن تطرا على بال مثل عمليات الزائدة الدودية وازالة « الحصاة » من الكلى .

عدم التخلف عن ركب الحضارة الحديثة

ان العلم يفتح لنا كل يوم آفاقا جديدة ، ويفسح امامنا مجالات شتى ، فينبغى أن نساير ركب العلم ولا نتخلف عنه ، ونتابع موكب الحضارة ولا ننفر منه ، فتلك سنة الحياة ؛ ومبدأ الوجود ولا بد أن نلحق بالركب ، ونستمتع بما يخرج لنا العقل الانساني من ابحاث جديدة ، وتجارب مفيدة تصلح بها حياتنا وننظم بها كياننا ونثبت بها وجودنا فالركب يمضى ... والكلاب تعوى .. والقافلة تسير ...

الضمان الاجتماعي والتأمينات الاجتماعية

بين الشرق والغرب

كانت التأمينات الاجتماعية خطوة مشاركة في حياة الافراد
يل في حياة الاسرة جمعاء . وقد اتخذت في العهد الاشتراكي الجديد
صورة واضحة المعالم . متألقة الجنبات تختلف عن مشروع الضمان
الاجتماعي القديم .

والواقع ان الضمان الاجتماعي عرف منذ قديم الزمن وان اختلفت
الصورة التي نراها عليها في العصر الحديث، فمن يرجع الى تاريخ الفراعنة
يجد أنهم كانوا يعرفونه ، ولكن بصورة محدودة وبمبسطة ، فلما انبثق نور
الاسلام تحققت مبادئ هذا النظام واهدافه ، وكانت الزكاة اول أسس
الضمان الاجتماعي في الاسلام وأهمها ، وهي الركن الثالث للاسلام ،
وفريضة من الفرائض التي حث عليها القرآن الكريم في أكثر من سبعين
موضعا كما وردت في أحاديث كثيرة عن الرسول الكريم .

اما مصارف الزكاة فكانت وفق الآية الكريمة : « انما الصدقات للفقراء
والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل
الله وابن السبيل » .

ويرى بعض الفقهاء ان حد الفقر المسموع لاستحقاق الزكاة هو الا
يملك الشخص قوت يومه وليله ، ويرى مذهب الحنفية ان الفقير من لا يملك
نصاب الزكاة .

كما كان الوقف في الاسلام بابا من ابواب الضمان الاجتماعي .

والوقف في نظر الفقهاء هو حبس العين على ان تكون مملوكة لاحد
من الناس فيجعلها على ملك الله تعالى . ويتصدق بريعها على جهة من جهات
الخير في الحال أو المال .

كما ان النفقة عنصر من عناصر الضمان الاجتماعي في الاسلام ،
والنفقة في العرف الغالب بين فقهاء الشريعة الاسلامية هي الطعام ، ولكن
يعطفون عليها السكنى والكسوة .

وهناك احوال ثلاث تجب فيها النفقة وهي الزوجة ، والقرابة والملك،
وشروط وجوبها ان يكون المنفق عليه معسرا أو عاجزا عن الكسب .

هذه وجوه بعض الضمان الاجتماعي في الاسلام ، أما في الغرب فقد
عرف الضمان الاجتماعي منذ عام ١٦٠١ حين صدور قانون يسمى قانون
الفقير .

ثم عرف باسم التأمين الاجتماعي عندما وضع بسمارك قانون التأمين

ضد المرض عام ١٨٨٢ وقانون التأمين ضد حوادث العمل عام ١٨٨٤ وقانون التأمين ضد الشيخوخة والعجز عام ١٨٨٩ .

وقد كان من نتيجة الثورة الصناعية التي غزت أوروبا أن انتشر استعمال الآلات وتسابق أصحاب الأعمال إلى اقتناء الآلات الجديدة . والآلات الميكانيكية ، في شتى الشركات التجارية أو الصناعية ، وكان من جراء ذلك أن ازداد الإنتاج بصورة منحوتة ، وتوافرت كمياته ، بيد أن ذلك أصبح خطرا يهدد العامل في الصميم ، إذ أن الصناعة اليدوية أخذت تتقهقر إلى الوراء ، وأخذت تختفي معالمها من المجتمع الصناعي الجديد رويدا رويدا ، وانهارت الصناعات الصغيرة التي كان يعمل فيها عدد كبير من العمال ، وتغيرت تبعاً لذلك العلاقات التي تربط بين العمال بأصحاب الأعمال ، وأصبحت البطالة شبحاً رهيباً يهدد العامل بين الحين والحين .

وتكاتف العمال بعد ذلك للوصول إلى مطالبهم ، ومحاربة الظلم النازل بهم ، واندلعت الثورات ثورة إثر أخرى في أوروبا ، وحاولت الحكومات المستبدة أن تكبت شعور الرأي العام بين العمال ، بيد أنهم لم تلبس لهم قناة ، في المطالبة بحقوقهم حتى خرجت إلى الوجود نظم جديدة تكفل لهم حياة كريمة ، ومنها نظام جمعيات الإعانة التبادلية ونظام التوفير ونظام التقاعد ونظام التأمين ضد حوادث العمل .

وأصبح تشكيل الجمعيات العمومية التبادلية أكثر سهولة وحرية عقب الثورة الفرنسية .

وتحت تأثير فكرة التأمين الاجتماعي وقوة الطبقة العاملة في أواخر القرن الماضي أتيح لهذه الجمعيات تأسيس صناديق للتأمين ضد الشيخوخة دون شرط الضمان الرسمي الذي كان مفروضاً عليها قبل ذلك حتى تتمكن من مزاوله التأمين ، كما أجاز لها القيام بالتأمين التبادلي في حالات الموت والإصابات والأمراض .

وقد استعملت عبارة الضمان الاجتماعي منذ سنوات غير مقيدة في ضمائر التكافل الاجتماعي ، واستعملها الرئيس روزفلت عقب ذلك في رسالة إلى الكونجرس منذ ذلك التاريخ . بيد أن الضمان الاجتماعي في مختلف صورته وتعدد تعاريفه يعني التخلص من العوز بأن يكفل لكل مواطن مستعد للخدمة على حسب طاقته دخلاً كافياً في كل الأوقات لمواجهة تبعاته .

كما يرى السير وليم بيغردج في تقريره عن التأمينات الاجتماعية أنه يقصد باصطلاح الضمان الاجتماعي ، ضمان حصول الفرد على دخل يحل محل أجره عندما ينقطع هذا الأجر بسبب التعطل أو المرض أو الإصابة ، وعلى معاش تقاعد في حالة الشيخوخة ، وعلى إعانة في حالة وفاة العائل ، وسد النفقات الاستثنائية كما هي في حالات الوضع والوفاة والزواج .

والضمان الاقتصادي فضلاً عن فوائده للمستفيد منه يعمل على التنمية الاقتصادية في الدول المتخلفة اقتصادياً كما أنه يدعم ويوسع التقدم الاقتصادي في الدول المتقدمة اقتصادياً، إذ يرفع مستوى الثقافة والصحة والمعيشة ، وهذا يؤدي إلى التقدم الاجتماعي والاقتصادي فيرفع عن العمال عامل التعرض إلى المخاطر وعامل الخوف من أحداث الزمان ونوائب الدهر ،

فان العامل القلق قلما ينتج ، اذ يظل مبلبل الخاطر على مستقبله ومستقبل أسرته ، كما أن الفقر يؤثر تأثيرا سيئا على كرامته وانسانيته . فجاء الضمان الاجتماعى وقرر صيانة الكرامة للانسان ، لانه ينمى فى الفرد روح الاعتماد على النفس والاعتداد بها ودفع بواعث الاستكانة ودفع الخمول . ويساهم فى رفع كفايات امكانيات الافراد الانتاجية .

ويعمل الضمان الاجتماعى كذلك على تخفيف النفقات بين الدخول الفردية ، لان الدول الفنية ستحدد المعونة للدول الفقيرة وبذلك يرتفع مستوى المعيشة والقوى الانتاجية .

ويمكن استثمار اموال الضمان الاجتماعى فى المشروعات الاقتصادية او الاجتماعية كتأسيس مشروعات لصنع الأدوية او الاثباتات الأخرى التى يقترحها الضمان للأفراد بصورة عينيه ، كما يمكن ايجاد أبواب جديدة للاكتساب والارتزاق والنشاط الاقتصادى على وجه العموم حتى قيل : « ان اموال الضمان اموال استثمار أو رأس مال استثمار بدل اموال مدخرة » .

أما التأمين الاجتماعى فقد كفل حياة كريمة للأفراد وليس صحيحا انه غدا خطرا للأفراد والمؤسسات التأمينية الفردية فى مجال النشاط الاقتصادى ، لان هذا يصحح أن يكون فى مجتمع رأسمالى ، أما المجتمع الاشتراكى فلا يتحقق فيه ذلك كما هو الحال فى بعض البلاد الرأسمالية التى تركت اصابات العمل بلا تأمين حتى تستفيد الشركات التأمينية من التأمين ضدها .

وليس بصحيح أن التأمين الاجتماعى كذلك أدى الى زيادة حوادث العمل ، اذ أن الاحصائيات الأخيرة أثبتت أن هذه الحوادث فى تناقص مستمر فضلا عن أن التقدم الطبى يقوم بدور كبير فى هذا المضمار ، فقلل عدد الحوادث المؤدية الى العطل الدائم الكلى . وليس بصحيح كذلك أن عدد القضايا قد زاد نتيجة لاستخدام هذا التأمين اذ أن أغلب هذه القضايا يدور حول درجة العطل لغرض تعيين مقدار الاعانة .

وقد نص الدستور المصرى الذى صدر فى ١٧ من يناير سنة ١٩٦١ على ضمان العمل للجميع مع جميع الخدمات الثقافية والصحية ، كما أنه قرر فى المادة ٢٣ التضامن بين الافراد فى تحمل أعباء الكوارث والمخاطر العامة ، وقرر لهم الاعانات فى حالة الشيخوخة والمرض والعجز عن العمل ، وأوجب على الدولة أن تكفل وجود التأمين الاجتماعى والمعونة الاجتماعية بصورة واضحة .

وفى العهد الاشتراكى الجديد استحوالت الآمال الى حقائق ، وهذه الاحلام الى وقائع ، وخرج نظام التأمين الاجتماعى الى الوجود بفضل السيد الرئيس « جمال عبد الناصر » الذى قال : « الاشتراكية الديمقراطية التعاونية طابع يشكله دور الافراد فى تقرير مصيرهم ، ومن أجل ذلك لا تستطيع الاشتراكية الديمقراطية التعاونية أن تنشأ الا فى مجتمع متحرر من جميع أنواع الاستغلال والسيطرة ، مجتمع تتحرك طاقته بلا أغلال ، واعية حقيقة دورها ، مدركة أنها ستجنى من الثمرات بقدر ما تعمل .. فما من أحد يكدح وغيره يجنى ، وما من أحد يستمتع بثمرات عرق الآخرين ! .. »

كاتب غربي داخل افريقية

هذا كتاب نفيس ألفه الكاتب الأمريكي المشهور جون جونتزر وهو ضمن مجموعة كتبه القيمة التي صور فيها رحلاته عبر العالم ومنها كتاب داخل أوروبا وكتاب داخل آسيا وكتاب داخل الولايات المتحدة الأمريكية وكتاب داخل أمريكا اللاتينية .

وكتاب « داخل افريقية » يسير على النمط الذي اتخذه مؤلفاته جميعا وهو يمضي وفق الاسلوب الصحفي الجذاب والمعلومات الاخبارية المثيرة والرغبة في التشويق . زد على ذلك انه يحاول ان يوجه النقدات تلوا النقدات لما يرى ويسمع وهو في اثناء ذلك كله يعطى كل ذي حق حقه دون ان يكون متعصبا او متجنيا او متحاملا . اللهم الا في بعض الاحيان كقوله ان الجزائر جزء من فرنسا كما سيأتي وهو قول هراء .

وقد تكلم جون جونتزر في هذا الكتاب على دول افريقية ، وطاف بنا بين جنباتها ، وانتقل بنا بين ليبيا والجزائر وتونس وسافر بنا في الصحراء ، وانحدر بنا الى اعماق افريقية حيث تضيء القارة المظلمة ، ففي افريقية فكر على اكبر نطاق على حد تعبير سيسل دروس ، وبين ان افريقية مستودع هام للمواد الأولية ولم يكند يتم استغلال ما يزيد عن الطبقة السطحية من ارضها الى اليوم ، ومع ذلك فانها تنتج ما يقرب من ٩٨٪ من انتاج العالم في الماس و ٥٥٪ من ذهبه و ٢٢٪ من نحاسه مع كميات ضخمة من معادن جوهريه هامة كالمنجنيز والكروم والاورانيوم ، كما تنتج افريقية حوالي انتاج ثلثي العالم من الكاكاو وثلاثة اخماس زيت النخيل ، وفيها احتياطات لا نهاية لها من القوة الماثية .

ويتكلم سكان افريقية حوالي ٧٠٠ لغة رئيسية مختلفة وتتضمن ١٠ لغات سامية و ٤٣٧ حامية و ١٨٢ للبانغو وليس اقل من ٢٦٤ سودانية .

اما بالنسبة الى الاديان فيقول جون جونتزر في كتبه : ان اهم الديانات في افريقية الاسلام والوثنية او عبادة الحيوانات والمسيحية ويقول : ان هناك نحو ٦٠ مليون مسلم يتركز اغلبهم على الشاطئين الشمالي والشرقي و ١١٢ مليون وثني و ٢١ مليون مسيحي .

بيد ان الاحصائيات التي ذكرها جون جونتزر غير دقيقة لانه لم تجر حتى الآن احصائيات دقيقة بالنسبة الى الاديان ، غير انه يمكن اعتبار هذه الارقام تقريبية .

وقد دافع جون جونتير دفاعا طيبا عن الافريقيين الذين رماهم الاستعمار
بالتأخر وعدم مسايرة المدنية واقترافهم المنكرات فقال :

لابد لنا عندما نذكر شيئا عن تأخر افريقية ان نذكر انه كان الى
عهد قريب في ولاية كانتوكي ٤١٦٢٣ منزلا ليست فيها دورة مياه - وفي
بورتوريكو البالغ عدد سكانها مليونين وربع المليون لا يوجد أكثر من ٤٩٧
طبيباً وأن مليوناً ونصف المليون من الشبان الأمريكيين رفض قبولهم في
الحرب العالمية الثانية لجهلهم القراءة والكتابة ، وان سيارة تسرق في أمريكا
كل دقيقتين ، وان ٣٤٧٦٣ مواطناً أمريكياً قتلوا في حوادث السيارات
عام ١٩٥٤ .

وتحدث جون جونتير عن الجمهورية السودانية فذكر عنها بعض
الحقائق : منها أن مساحتها ٩٦٧٥٠٠ ميل مربع أى ثلث مساحة الولايات
المتحدة الأمريكية وتمثل الكاتب برأى وندل وباسكي في حل مشكلة
الاستعمار في افريقية اذ يقول : ان مشكلة الاستعمار لا يمكن حلها الا
بتوزيع الثروة في كل مكان .

كما قال ان هناك تياراً جارفاً في افريقية لتكون افريقية للافريقيين ،
فان القوميين الافريقيين يؤمنون بأنهم يجب ان يبدأوا في حكم أنفسهم من
الآن ، وأن يتعلموا فن الحكم بممارسته ، وأنه خير لهم أن تقوم منهم حكومة
سيئة الحكم من أن تقوم حكومة أفضل من الدخلاء البيض ، فان الطريق
الوحيد لتعلم المشي هو الزحف .

وقال : ان الافريقيين في القارة يتظلمون من الاوروبيين الذين خنقوا
التعليم تماماً في معظم أنحاء افريقية ، ويكفي دلالة على ذلك انه كان لا يوجد في
كينيا سوى ٣٥ مدرسة ثانوية للسكان الافريقيين البالغ عددهم
٥٠٠.٠٠٠.٥٥٠ ، أما عدد الطلاب المقيدون في هذه المدارس فلا يزيد عن
٣٥٥٥ ولداً و ٤٥١ بنتاً ، كما أنهم يتظلمون من الاستغلال الاقتصادي ،
اذ أن الاوروبيين في « جنوب افريقية » يستخرجون من التربة الافريقية
ما تقدر قيمته بعدة مئات من ملايين الدولارات في كل سنة ، وان أصحاب
مناجم الذهب هذه لا يدفعون لعمالهم من الاجور الا ما يتردد بين ٣٣ سنتاً
الى ٤٢ سنتاً في اليوم أى ما يتردد بين ١٣ قرشاً الى ١٦ قرشاً يومياً .

وهذه الحقيقة المريرة موجودة للعيان ، ويلمسها الباحث المدقق في
أنحاء شتى من افريقية .

وصعد جون جونتير الى شمالي افريقية ، فوصف المغرب والجزائر
وتونس ، وذكر أن بعض الاوروبيين يمتقدون أن هذه المناطق امتداد لفرنسا
نفسها سياسياً واقتصادياً وحربياً ووجدانياً . وقد وصف الجنرال جيوم
دولة المغرب ذات يوم بأنها كسرة منفصلة من القارة الاوربية ، بيد أن أهل
شمالي افريقية في الواقع عرب سدى ولحمة ، ولا بد لهم من الاحتفاظ
بعروبتهم ، ولا بد لتيار القومية العربية أن يكتسح كل تيار .

وقد وصف جون جونتير دول شمالي افريقية وصفاً جميلاً ، واعطانا

ملاحق بـرأقة من تاريخها السياسي ، وقال : ان الرباط هي عاصمة المغرب
ويبلغ عدد سكانها نحو ١٦١٤١٦ نسمة ، وهي مقر السلطان وفيها شوارع
واسعة جميلة وبيوت أنيقة غارقة بين الأشجار المزهرة ، ويقول جون جونترو:
ان الاسم الصحيح للرباط هو « رباط الفتح » أي معسكر النصر ، وفيها
آثار عربية ترجع الى القرن الثامن عشر ، وتشبه الرباط الى حد بعيد مدينة
واشنطن .

أما الدار البيضاء الكبيرة فتشبه مدينة نيويورك ، ويبلغ عدد
سكانها حوالي ٦٠٠ ألف ، ومنذ أربعين سنة كانت الدار البيضاء عبارة
عن مجموعة من أكواخ الصيادين وهي اليوم تشبه الى حد كبير ريو دي
جانيرو ، أو حتى ميامي ، ولها وجهة مؤلفة من المباني البيضاء يبرق في
معظمها الزجاج ، وتتعلق فيها الشرفات العصرية البناء المطلقة على البحر .

أما مدينة مراكش فيبلغ عدد سكانها ٢٢٧ ٢٣٨ نسمة ، وهي أكبر
مدينة في المغرب ، وبها فندق من أعظم فنادق العالم من حيث توافر
الإقامة المريحة والمناظر اشاعرية ويسمى فندق « المأمونية » وتحمل
مدينة مراكش الطابع الإفريقي البحت : فشوارعها أقل رصفا وتمهيدا
من شوارع فاس ، وأسواقها تستطيع أن ترى في أثناء سيرك السماء من
خلل السقف ، كما لو كنت تنظر بين فرجات خيمة ، وبالجملة فأنك
تشعر بها طول الوقت وكأنك في صميم صحرائها الكبرى .

أما بالنسبة لاقتصاديات مراكش فذكر جون جونترو منها عددا كبيرا
وقال : ان هناك مشروعا لاستخدام القوى الكهربائية المائية على نطاق
واسع ، وقد بنيت خزانات كبيرة بالفعل لهذا الغرض لوجود عجز كبير
في الفحم وللحاجة الملحة الى المزيد من القوة المحركة .

ويضيف جون جونترو الى ذلك قوله : ربما كانت مراكش نفسها
غير خصبة غير ان أهلها مخصبون .

وبعد الحديث عن مراكش مضى جون جونترو يتحدث عن تونس
والجزائر ، وذكر ان ثلث سكان العالم من العرب يقطنون في منطقة شمالي
إفريقية ، وتنتشر العقيدة الإسلامية هناك انتشارا واسعا وفي ذلك يقول
العالم «ألن . ه . بروودريك» : «الإسلام هو المذهب الوحيد بين المذاهب
التبشيرية الذي لم يضعف في الأرض التي نبت فيها ، ويلاحظ أنه عندما
يفتح الدين الإسلامي بلدا ما يظفر به كلية فإنه لم يحدث ليومنا هذا
أنه أخرج منها » .

وقد تمكن الإسلام من بلاد شمالي إفريقية تمكنا شديدا ، ويحافظ
أغلب المسلمين على تعاليم دينهم ، بيد أن الشيء الذي أثاره أنه رأى في
بعض بلاد الشرق الأوسط مسلمين يشربون الخمر بشراهة كالارلنديين
تماما . أما في مراكش فلم يلاحظ جون جونترو هذه الظاهرة . ويحدث
أحيانا أن تقابل شابا مغامرا يرتشف كأسا من الخمر ولكنه ما ان يفعل
ذلك حتى يصاب بالدوار ويستولى على نفسه الخجل والشعور بالانتم .

وقد حاد جون جونترو عن الحق عندما ذكر أن الجزائر جزء أساسي

من فرنسا برغم انفصالها عنها جغرافيا وان سكان الجزائر الافريقيين مواطنون فرنسيون بكل مايتضمنه تعبير المواطن من الناحية الفنية من معنى ، فقد تناسى تاريخ الجزائر ، ونسى القبائل العربية المنتشرة في شتى أنحاء الجزائر ، كما نسى تلك الهجرات الاولى التي قام بها العرب منذ فجر التاريخ ، وكذلك نسى ذلك التاريخ المشترك الذي يجمع الجزائريين بالعرب منذ ابعد الحقب ، وتلك اللغة التي تجمع أبناء الجزائر بالقومية العربية برغم تلك المحاولات الكثيرة التي يقوم بها المستعمر لاغفالها ، وعدم تعليمها في المدارس حتى ينشأ الطفل وهو لا يعرف لغة آباءه واجداده الاولين ، كما ان جون جونتير نفسه نسى انه ذكر ان الاسلام اذا تمكن من ارض فبيها ان يقتلع وهناك غالبية من العرب المسلمين في هذه المناطق ولا يمكن تجاهل دورهم في بناء الكيان الوطني .

بيد ان جون جونتير ازاح القناع عن كثير من الاساليب الاستعمارية التي يستخدمها الفرنسيون في الجزائر من اجل تحطيم كل محاولة للنهوض ، ومن ذلك ان حكومة باريس لم تفكر في دفع مليم واحد لتعليم العرب حتى عهد قريب ، ويذهب سدس الاطفال العرب فقط الى المدارس حينما يبلغون سن التعليم حتى ان اكثر من مليون طفل محروم من فرص التعليم .

وتبلغ مساحة الجزائر ٨٤٧٣٠٠ ميل مربع أي حوالي أربعة أضعاف مساحة فرنسا ، ويبلغ عدد سكانها نحو تسعة ملايين يحاول المستعمر بكل طاقة ممكنة أن يستغلهم لمصلحته الخاصة في فرنسا ، بيد أنها استقلت أخيرا .

أما تونس فقد ظفرت بالاستقلال ، وتبلغ مساحتها نحو ٤٨١٩٥ ميلا مربعا وعدد سكانها ٣٦٠٠٠٠٠ نسمة ، ويختلف حاكم تونس عن ملك المغرب في عدة أمور هامة منها أنه ليس من الاشراف أي ليس من نسل النبي .

أما ليبيا فهي دولة ناشئة تسير في طريق التقدم والتطور ، وتطل على البحر الابيض لكنها تمتد بعمق في الصحراء الكبرى وتخلو تماما من الانهار ، وتعتبر أكبر حجما من أوروبا الغربية وتبلغ خمس حجم الولايات المتحدة غير أن معظم هذه المساحة الهائلة صحراء لا قيمة لها . ولا يقطن هذه المساحة الواسعة سوى ١٦٥٠٠٠٠ نسمة معظمهم بدو رحل ، والخطوط الحديدية لا يزيد طولها على ٢٢٥ ميلا ، بيد ان هذه الدولة الناشئة لا بد أن تعيش وليس من سبب يمنعها من ذلك . فان كانت ضعيفة وجب اعطاؤها دعامة لتقويتها ، وهي في الواقع آخذة فعلا في السير قدما بهمة ونشاط .

هذا طرف من الحديث الذي تضمنه كتاب « داخل افريقية » للكاتب الامريكي جون جونتير ، وهو كما نرى منصف حيننا وغير منصف حيننا آخر غير ان حديثه يدعو الى القراءة ويبعث على التأمل والتفكير .

سندباد بحرى جديد حول افريقية

انه ملاح عظيم وجواب آفاق قهر البحار ٠٠٠ من القرن الخامس عشر الميلادى أو من القرن التاسع الهجرى الا انه ملاح جديد لان البحث العلمى لم يهتد اليه الا منذ فترة وجيزة فقد عثرت على مخطوط مصور منقول عن المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٢٢٩٢ و ٢٥٥٩ كتبه أحد البحارة الذين اشتركوا مع الرحالة البرتغالى الذائع الصيت فاسكودى جاما فى رحلة حول رأس الرجاء الصالح وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد وكتاب ابن ماجد هذا يسمى « الفوائد فى اصول علم البحار والقواعد ٠٠٠ والاراجيز والقصائد » وهو أحد الكتب التى استخرجها واهتم بتصويرها أحد العلماء فى فرنسا ضمن مجموعة مكونة من أربعة كتب عن الملاحة عند العرب : وهى كتاب الفوائد لابن ماجد ، وكتاب الفوائد فى الملاحة لسليمان النهري ، وترجمة الاقسام الجغرافية فى المخطوطات المذكورة وشرحها مع تفسير الاصطلاحات العربية فى فن الملاحة ، وتراجم بعض الادلاء القدماء البرتغاليين .

وغنى عن البيان أن الدول الموحدة فى أوربا اتجهت نحو توسيع أملاكها فى هذا العصر داخل القارة على حين اتجهت الدول القائمة فى شبه الجزيرة الاسبانية بطبيعة مركزها الى التوسع فيما وراء البحار والاستيلاء على موارد التجارة الشرقية التى كانت تدر الربح الوافر ، وكانت التجارة فى يد الغرب والهنود ينقلونها الى أوربا بطريقتين : أحدهما يخترق آسيا الوسطى الى البحر الاسود ، والآخر يخترق المحيط الهندى والبحر الاحمر الى السويس فالاسكندرية والبحر الابيض ، فلما قامت فكرة الدوران حول رأس الرجاء الصالح واذن الملك امانويل لفاسكودى جاما بتنفيذ الفكرة فكر فى ربان عربى يهديه فى رحلته ، ويكون على المام تام بالمحيط الهندى على الخصوص ، وقد وجد فى شخصية ابن ماجد ضالته المفقودة وعونه على ارتياد البحار المجهولة .

وقد أشارت دائرة المعارف البريطانية الى معاونة بعض البحارة الهنود لفاسكودى جاما ، ومن المرجح أن يكون هؤلاء البحارة من العرب وعلى رأسهم ابن ماجد ، اذ ثبت لبعض علماء العرب أن فاسكودى جاما استعان بابن ماجد فى تسيير أسطوله حول الارض الذى أبحر من تاجوس فى ٩ من يولييه سنة ١٤٩٧ فى منطقة مالندى على ساحل افريقية الشرقية الى فاليفوت فى الهند .

وقد استطاعت سفن فاسكو دى جاما أن تتغلب على الانواء والاعاصير التى منعت بارتليمودياز من التقدم ومتسابعة رحلته ، فعاد أدراجه مع رجاله بعد أن كانوا على وشك الهلاك . وعندما عاد فاسكو دى جاما الى البرتغال فى سبتمبر عام ١٤٩٩ كان يحمل لابن ماجد فضلا لا ينسى ومعروفا لا ينكر .

دراسة علم البحار

وقد لقب المستشرق الفرنسي جبريل قران ابن ماجد بأسد البحار
وربان فاسكو دي جاما .

والواقع أن من يتناول كتابه المخطوط يلاحظ مدى تفوقه في دراسة
علم البحار وطوفانه في أنحاء مختلفة من أرجاء العالم ، فقد أتى على وصف
جميل لكثير من البلاد التي طاف حولها أو نزل فيها في أسفاره : كساحل
الهند الغربية وشبه جزيرة العرب وجزيرة مدغشقر وسومطرة وفرموزة
وسيلان وزنجبار ، كما ضمنه طريق سير السفن في البحر لمعرفة منازل
القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة وأصول الملاحة وحجر المغناطيس
وأقسام الأبرة المغناطيسية .

وقد ختم كتابه « بحاوية » تشمل أراجيزه وقصائده كأرجوزته عن
الملاحة في خليج عدن عام ١٤٨٥ ومعرفة القبلة عند العرب والاستدلال
عن النجوم وذو المراسي على ساحل الهند الغربية وأرجوزته في فوائد
لبعض النجوم الشمالية في سير السفن وأرجوزة الضرائب في ذكر
الكواكب النافعة في الملاحة ، وهي في ١٩٢ بيتا ، وأرجوزته المنسوبة لعل
ابن أبي طالب في معرفة منازل القمر وحقيقتها في السماء وأشكالها
وعدها وأوصافها ، وأرجوزة « الهاوية » في النجوم التي توافق رسو
السفن في وصف المراسي . وأرجوزته في الضفدع والأسماك والحيتان ،
وأرجوزته في الصخور البحرية وأعماله وغير ذلك من الأراجيز الطريفة
التي تشتمل على تجارب ابن ماجد في مضمار الملاحة وعلو كعبه في هذا
الميدان .

ومن طريف ما ذكره عن علم ركوب البحار : « اعلم أيها الطالب
أن لركوب البحار أسبابا كثيرة ، فأفهمها ، فأولها معرفة المنازل والأصناف
وأندير والمسافات والباشيات والقياس والإشارات وحلول الشمس
والقمر والرياح وأسمائها ومواسم البحر وآلات السفينة وما تحتاج
إليه وما يضرها وما ينفعها وما يضطر إليه في ركوبها .
وينبغي أن تعرف المطالع والاستويات وحالة القياس ومطالع النجوم
ومغاربها وطولها وعرضها وبعدها ، وينبغي أن تعرف ما في الأعماق
كالطين والحشيش والحيتان ومد البحر وجزره وآلات السفينة » .

واشتمل كتابه كذلك على الآداب التي ينبغي أن يتوخاها المسافرون
في البحر مما يعد دستورا طيبا للبحارة والمسافرين فقال :

« ينبغي أنك إذا ركبت البحر أن تلزم الطهارة فانك في السفينة
ضعيف من أضياف الباري عز وجل فلا تفعل عن ذكره ، فانه شديد
العقاب وانه لغفور رحيم لانه يمهل ولا يهمل فلا يقرنكم بالله الغرور واترك
ما يعينك وانه جميع الركاب عن كثرة المزاح في البحر ، فما ينتج منه الا
الشر والبغض والعداوات ومن أكثر منه لم يخل من حقد عليه أو بغض له
أو استخفاف به » .

ثم يوجه ابن ماجد بعد ذلك الخطاب الى ربان السفينة في تأكيد وتصميم : « ولا تركب سفينة الدلالة والهداية وانت فيها غير مطاع ولا تأخذ دركها على نفسك درج الدلالة فلا تكن الا مطاعا ، وهذب الراى فان ركوب البحر عند من لا يسير مسيره صعب فى بر أو بحر » .

اقامتى بين من لا يقتفى أثرى
دعنى بفلك أقاسيها على خطر
ذى آية الله مثوى لى ومصطحبى
أنفقت عمري على علم عرفت به
أمر من خطرات البحر فى المظر
فانها خير من صحب على خطر
رب كريم وعون المرء فى السفر
فازددت بالعلم توقيرى على كبر
(ص ٥٩ مخطوط باريس)

معرفة القبلة

وقد أتى لنا ابن ماجد فى كتابه على طرق لمعرفة القبلة ونظم هذه الطرق فى أرجوزة من أرجوزة الطريفة وقدمها بمقدمة نثرية يقول فى أولها :

لما رأيت الناس يميلون عن معرفة القبلة وليس لهم أصل يعرفونها
به خصوصا فى المدن اللواتى بقرب البحر وجزره التى يمر بها المسافر
نظمت هذه الأرجوزة وأقمتها بأوضح الأدلة وأسهلها بأربعة وجوه :

الوجه الأول بطول مكة المشرفة وعرضها وطول البلد الذى فيه
الانسان وعرضها .

والوجه الثانى على الجدى

والثالث على بيت الابرّة .

والرابع على جهات الكعبة الاربع .

ويحتوى كتاب الفوائد فى أصول علم البحار والقواعد على تغييرات علمية كثيرة فى علم الفلك والنجوم وقد أشاد فران فى مقدمته الى أن ابن ماجد لا جناح عليه فى استعمال هذه الاصطلاحات لانه بحار ، وقد كتب كتابه الى بحارين مثله ، غير أن ابن ماجد كان يشعر دائما بأنه لا يزال عند أبواب المعرفة فكان يقول :

يا أيها الناس مهما شئتمو قولوا الارض معلومة والبحر مجهول

وكان فى بعض الاحيان يزهو بعلمه ويفخر بتجاربه الكثيرة فيقول :

فان تجهلوا يا قوم قدرى فانما
بطول الذى قاسيت شرقا ومغربا
سيأتى رجال بعدكم عارفو قدرى
وقست شمالا أو جنوبا الى القمر

فينبغى للانسان أن يعرف الشر أكثر مما يعرف الخير لان الخير للزيادة ومعرفة الشر للوقاية ، وكانما أدرك ابن ماجد فى هذه العبارة أن

العلم ضرورة ، غير أن هناك علوما لا بد من معرفتها وان كانت الشجى فى
الحلوق .

وقد وصف ابن ماجد فى كتابه البحر الاحمر وصفا جيدا ، غير انه
ادعى أنه أكبر البحور ، ولعل ذلك يرجع الى قلة الآلات المستعملة وقت ذلك
فى المساحة وقيل : ان ابن ماجد قد اخترع الابرة المغناطيسية ، كما ذكر
برتن الانجليزى ان بحارة عدن فى سنة ١٨٥٤ كانوا قبل السفر يتلون
القاتحة اكراما للشيخ ماجد .

ومهما يكن من شىء ، فان هذا المخطوط الذى بين أيدينا يلقي كثيرا
من الاضواء على ربان عربى كان له شأن عظيم فى الملاحة وكان من أبرز
المعاونين للرحالة البرتغالى فاسكو دى جاما فى رحلته حول رأس الرجاء
الصالح ، كما يلقي الاضواء على علم البحار مثلما يراه ذلك الربان العربى
وكما كتبه فى أسلوب نثرى حيننا وأسلوب شعرى حيننا آخر حتى يكون
أقرب حفظا عند البحارة وأشد مساسا لقلوبهم وعقولهم جميعا .

حديث في الصحافة لعالم غربى

يعد الكاتب الصحفى الانجليزى ويكهم ستيد Wichham Steed من اعلام الصحافة فى العصر الحديث ، وقد عمل فى الصحافة مدة طويلة وقام بنصيب مشكور فى خدمة صاحبة الجلالة فخيرها خبرة واسعة ووصل فى ميدانها الى غاية بعيدة حيث اشرف على تحرير جريدة التيمس الانجليزية فترة طويلة من الزمان ، ودام عمله فى الصحافة خمسين عاما ، فتعلم الاختزال واتقنه ، وخبر التحرير واحسنه، وعرف كيف يلج المجتمعات ويحضر المحاضرات ، وقد ألف ويكهم ستيد كتابين فى الصحافة سمي الاول The press كما سمي الكتاب الآخر Journalism ، وله غير هذين الكتابين كتب اخرى ومقالات جميلة فى الصحف ، وقد لجا ويكهم ستيد الى الصحفى الكبير ت.ستيد يسأله النصح فى ميدان الصحافة فقال ستيد لستيد :

(كل ما يحضرك فى الكتابة فأسرع ودونه وبعد أن تدونه تصور أنك سوف ترسله بالبرق وأنت فى بلدك انجلترا الى استراليا على نفقتك الخاصة بحيث تكلفك الكلمة الواحدة شلنا ، وعلى هذا ينبغي أن تحذف ما لا فائدة منه ولا غناء فيه وستجد فى النهاية أنك حذفت كثيرا وأبقيت قليلا ، ولكن هذا القليل هو ما ينبغي أن ترسله الى صحيفتك) .

هذه هى نصيحة رجل صحفى قديم من اساطين الصحافة ارخ حياته فردريك وايت : Fredric Whyte فى مجلدين لويكهم ستيد ، فالصحافة اذن لا تقبل المراوغة ولا المداورة ، ولا تحتل الاسهاب ولا الاطناب ، ولا ترغب فى دوران الجمل الكثيرة حول معنى واحد ، انما تريد الصحافة شيئا سهلا يسيرا قصيرا يقبله القارىء ، فى سهولة ويسر دون أن يكلف نفسه عناء القراءة ودون أن يكلف كاتبه عناء الكتابة كذلك فيستريح ويريح .

وقد بين ويكهم ستيد مهمة الصحافة فى جمع الاخبار التى تهم الرأى العام واعلانها وتفسيرها ، وهذه المهمة مفيدة قيمة ما فى هذا شك وفيها كثير من المسئولية ، ولكن فيها أيضا كثيرا من الشرف والفخار :

فمنذ فجر التاريخ ومنذ مستهل الحياة فى هذه المعمورة ولا نستطيع ان نعين بالتحديد ذلك الوقت الذى قامت فيه الاخبار بدور حيوى كبير فى حياة الانسان بل وفى حياة الحيوان أيضا ، فمجرد اتقاء الحيوانات للخطر ما هو الا (اخبار) بذلك ، وكذلك الحال فى المجتمعات المتحضرة ، فالحكام يحاولون أن يستشفوا الاخبار الوثيقة والبيانات الصحيحة عن الشئون المؤثرة فى

مصلحتهم ، ولذلك وجد السفراء كما وجد المنادون على الاخبار أو الجارون لتبليغها ، كما وجدت المراكب السريعة لنقل الاخبار ووجد من يحملون الاخبار والرسائل على ظهور الدواب . ووجد المتكهنون والعيون والجواسيس . ولذلك قالوا في الامثال (أن تقدر الخطر قبل وقوعه وهو أن تستعد قبل حدوثه) فمعنى الاخبار أن تعطى الشعب تحذيرات أو تبليغات بين الحين والحين عن الاحداث التي وقعت أو الاحداث التي قد تقع ودورة هذه الانباء بين افراد الشعب خدمة اجتماعية لها قيمتها ولها خطرهما .

فالصحافة اذن صورة حديثة من الخدمة الاجتماعية قد نهضت وانتعشت بفضل الطباعة ، ولم تثبت أن ازدادت نهوضا وانتعاشا وامتلأت حياة ونشاطا بفضل الانتقال من المرحلة البدائية الى المرحلة الميكانيكية ، فأمكن بذلك أن تجمع الاخبار ، وأن توضع في اطارات معدنية وأن تنشر على الناس بكميات كبيرة .

ولم تكن للصحافة في منشئها الا حرية محدودة حتى وضعت الدساتير السياسية ، وحررت الطبقة الثالثة أو السلطة الثالثة بتعبير آخر ، واطلقت على الصحافة السلطة الرابعة ، ومن ثم أخذت الصحافة تزدهر وتنتعش ، وكان بعض الصحفيين يخرجون دوريات تناقش المصلحة العامة كما تناقش شئون الشعب ، ولكن لم تكن في إنجلترا صحافة مستقلة كاملة الا في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، وأسست بعض المطابع التي ساهم في تكوينها كثير من المولدين ، كما أنشئت جريدة التيمس The Times في سنة ١٧٨٥ تحت اسم (الديلي يونيفرسال Dally Universal register وقد أسسها طباع يسمى جون ولتر John Walter حتى تؤكد للناس قيمة فن الطباعة الحديث ، وثبتت الصلة الوثيقة والوشيجة القوية بين تقدم فن الطباعة والخبرة الصحفية .

وظفقت الصحافة تنمو وتزدهر منذ أن أصبحت معرفة الاخبار عملا قانونيا خاصا ، وكان من الطبيعي أن تحاول الحكومات أن تسيطر أو أن تحد من سلطة الصحافة سواء بفرض عقوبات أو غرامات رادعة ولاسيما عندما خاضت الصحف في المسائل السياسية والشئون الدبلوماسية ، فكان من اللازم الحرص في هذه المسائل والحيطة في تناول هذه الشئون ، ولا تزال الصحافة حتى اليوم معرضة لكثير من القيود ، ومن أمثلة ذلك قانون تسوية السمعة والقذف والتشهير Law and libel

ولذلك كان كثير من الصحفيين مقيدون في نقدهم وتعليقهم على الانباء . فيفرضون بذلك رقابة من أنفسهم على أنفسهم ويتخذون الحيطة في نشر الاخبار .

ويعتبرون هذه الحيطة واجبا مفروضا عليهم لا مفر منه ولا محيص عنه ، وقد صرحت بذلك جريدة نيويورك تيمس الامريكية التي جعلت من مبدئها (نشر كل الاخبار الجديرة بالطبع) فلمجتمعات الديمقراطية وقت السلم الحق في معرفة كل ما يمس مصلحتها العامة وما حرية الصحافة أو بمعنى آخر غياب القيود الرسمية على استقلال الصحفيين في الظروف .

العادية الا منحة لاستتباب السلام الاجتماعى ، أما فى وقت الحرب حيث تنتشر الاخبار المثيرة الخطيرة وحيث يمكن الخبر الكاذب أن يهدد كيان الأمة جمعاء فقد وجب أن تفرض رقابة رسمية على الصحف لان هذه الرقابة لا يمكن الاستغناء عنها فى مثل هذه الآونة الحرجة .

ولكن تحت تأثير أى الظروف والاحوال يستغل الصحفيون هذه التجارة ؟

أما اذا كانت الصحافة مهنة فما المؤهلات التى تطلب من الصحفيين ؟ وما الشيء الذى يؤهلهم أن تطبع أخبارهم وتباع أفكارهم وبأى الدرجات العقلية والميزات الاخلاقية يتحلى الصحفيون قبل أن يسيطروا على روح الاستطلاع فى الشعب ؟ فالصحفيون لا يجتازون امتحانات مهنية والصحفيون ربما لا يكونون حاصلين على دبلومات أو درجات علمية، وربما لا تزيد ثقافة بعضهم عن ثقافة فنان صغير ، فمن أين أتتهم هذه السلطة ، وكيف حصلوا على هذا المركز وهذه المكانة العظيمة ؟

المفروض أن الصحفيين ينبغى أن يكونوا أصحاب (أقلام مستعدة) Ready Pens للكتابة فى أى موضوع من الموضوعات بغض النظر عن الموضوعات التى لا يعلمون عنها الا النزر اليسير والقدر الضئيل ، فهناك أخبار صادقة ، وهناك أخبار كاذبة ، وهناك موضوعات يضطر الصحفي الى الحوض فيها تكون مما تميل اليه نفسه وتستهوى قلبه ، ولكن كثيرا من الصحفيين يخطئون فى نصح المبتدئين بالدخول فى ميدان الصحافة والمضى فى سبيلها .

ويرى ويكهم ستيد عكس هؤلاء جميعا ، فبعض الشباب يسألونه عن كيفية الدخول فى ميدان الصحافة وعن كيفية اتخاذ الصحافة كمستقبل لهم ، فيلقى ويكهم ستيد بالماء البارد على مطامحهم (الحارة) ويضعهم فى امتحان عسير حتى يخلص عقولهم مما بها من آمال كاذبة وأحلام براقية .

فبعض الهواة يرون - وبدون سبب معقول مقبول - أن للصحفيين قدرة أدبية ، ولكنهم فى الواقع يبعدون عن الحقيقة كثيرا ولا يعرفون أن الانسان قد يكتب عبارات صحيحة سليمة من الأخطاء ، ولكنه يكون غير صالح للصحافة ، على حين يرى الآخرون أن لديهم أفكارا كثيرة يرغبون فى نشرها ، ولكنهم لا يعرفون أن الصحافة تعتمد على الجانب التجارى كذلك ، وأن بعض الافكار ربما لا تجد عند جمهور القراء قبولا ، وقد تجذب الهواة الآخرين المرتبات الضخمة والأجور المرتفعة التى يحصل عليها الصحفيون الناجحون ، ولكنهم لا يدرون ما وراء هذه المرتبات وهذه الأجور .

غير أن أكثر طلاب الصحافة يتمنون أن يدخلوا فى ميدانها كقاعدة عامة بجوار عجلة الطباعة ، وأن يشاركوا بأيديهم فى تكييف الفكر للأمة .

وقد يكون من حق هؤلاء جميعا أن يأملوا وأن يستلهموا آمالهم من الصحافة ، ولكن ويكهم ستيد الصحفي المجرب الخبير يرد عليهم : كلا ،

الا اذا كنت مستعدا أن تخاطر وأن تكابد الفقر ابتغاء وجه الصحافة وتفضل ذلك العمل على أن تكسب رزقك من عمل مريح فى أى مكان . . .

انه بالرغم من وجود مدارس للصحافة ومعاهد لتمرين الصحفيين فان الصحفيين يولدون ولا يصنعون ، وقد تمر سنوات كثيرة على شباب تعلم الصحافة والكتابة الصحفية الفنية (النظرية) حتى يعلم انه ينقصه الاستعداد الشخصى والميل الحقيقى الذى بدونه تكون حياة الصحفى فارغة .

ليس كل من يعمل فى صحيفه صحفيا ، فالجريدة تضم كتبة مثل كتبة البنوك ، كما تضم مستخدمين وأطباء ومحامين ورجال أعمال . وهؤلاء جميعا لا تفتقدهم الجريدة فى وقت من الاوقات ، ولكنها دائما تفتقد الصحفيين فهؤلاء الصحفيون لا يمكن أن تستكفى بهم صحيفة من الصحف، انهم رجال ونساء يعقول ذكية وأفكار نيرة وعزيمة ماضية للبحث والتنقيب فى أرجاء المعمورة أملا فى الوصول الى ذلك اليوم الذى ينشرون فيه آراءهم ويبتشون فيه معتقداتهم فى عقول الآخرين . وعندما يذكر ويكهم مستيد الصحفيين يعنى ما يقول بهذه الكلمة ، غير ان للصحفيين المهووبين الحق فى معرفة التفاصيل الدقيقة والصعوبات الكثيرة فى عملهم والعقبات التى تحول بين الجوانب المثالية والمناحي المادية ، تلك العقبات التى تصرف الصحفيين عن تدوين خبرتهم .

فرايهم فى الصحافة عظيم غير أنهم يحسون بالثغرة الواسعة التى تفصل الجوانب النظرية عن العملية والمثالية عن الحقيقة ، وهم يعتقدون فى قرارة نفوسهم أنهم لا يستطيعون تقرير كون الصحافة صناعة أو عملا أو مهنة حرة أو وزارة ، فالتجربة قد علمت الصحفيين أن الصحافة قد تكون هذا كله أو بعض هذا كله . والصحفيون قد يكونون هذا كله أو بعض هذا كله .

والصحفيون لا يستطيعون أن يضعوا تعريفا جامعا مانعا للصحافة وان كانوا يعرفون أن الصحافة تتكون من جمع الاخبار وطباعة ونشر اخبار احداث يوما بعد يوم بتعليق أو بدون تعليق وبوجهة نظر أو بدون وجهة نظر .

والصحفيون يعرفون أن الصحافة عمل فيه كثير من المسئولية ، لان الاخبار ينبغى أن تكون صحيحة كما أن التعليق ينبغى أن يكون أميناً ، وعندما تطبع وتنشر الاخبار ينبغى أن تباع ، غير أن الجمهور ربما لا يحب الاخبار السيئة أو الآراء التى لا طعم لها ، فمنتجو الصحف يعتمدون على ذوق الشعب ، ولكن كيف يؤهلون لذلك ؟ والى أى مدى يخدعون أنفسهم ويدعون ثقتهم ليجعلوا اخبارهم وآراءهم توافق ذوق الجماهير ؟ وهل تلومهم فى هذه الحال كما تلوم التاجر الذى يطفف فى ميزانه ، والصانع الذى يزيف فى صناعته ؟

وهذه الاسئلة تساعد على بيان المبدأ السائد أو الذى ينبغى أن يسود فى الفن الصحفى ، فالأمانة الصحفية ثقة اجتماعية ضرورية قد وضعت

كاتفق مع الشعب حتى تكون الاخبار صادقة ، ويكون هؤلاء الذين يقدمون الاخبار للبيع صادقين في تعليقاتهم ، وهذه الثقة المتبادلة نفسها توجد بين الاطباء والمرضى ، غير أن الاطباء يسيرون وفق نظام وقانون مهني دقيق ، كما أنهم مضطرون الى الحصول على مؤهلات طبية ، على حين ان الصحافة (مهنة حرة) تخضع لقليل من القيود الخارجية في قوانين البلاد .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو : هل الصحفي هو الذي يبيع اخبارا يعلم انها كاذبة او ان بعضها زائف ؟ وهل الصحفي الذي يموه الحقائق ليجعلها قريبة الى النفس أكثر جرما من التاجر الذي يطفف في ميزانه او الصانع الذي يقدم بضائع مغشوشة ؟

الواقع ان نشر تصريح كاذب او اذاعة فكرة خاطئة أكثر خطرا واشد اذى من بيع البضائع الزائفة على أنها بضائع جيدة ، ولكن الصحفي الكبير ويكهم ستيد يعتقد أن الافكار الكاذبة أشد خطرا من السكر الزائف أو الصابون المغشوش .

ان الصحفي الذي يخون ثقته يقع عليه اللوم أكثر من التاجر المحتال ، ان الصابون الفاسد يفسد الجلد ولكن الافكار السيئة تنفث السم في العقل . والصحافة مهنة حساب على اعتبار أنها أساس لما يطلق عليه الآن (صناعة الصحف) ، لان مواردها الاولية ليست في الحقيقة الا عقل الجماهير ، فهي تتاجر في (القيم الانسانية) أو بمعنى آخر : ان المسؤولية الخلقية التي يتحملها الصحفيون تختلف عن تلك المسؤولية التي يتحملها رجال الدين والزعماء أو قادة الرأي ، فالصحافة تتأثر بحالات صناعية وظروف تجارية على عكس الحال عند الافراد القيمين على عقلية الجماهير أو اخلاقهم .

وليس من شك في أن صناعة الصحف تحتاج الى رأس مال عظيم ، فهي تستهلك يوما بعد يوم آلاف الاطنان من ورق الصحف ، وهذا الورق مصنوع من لباب الخشب المستخرج من بعض أنواع الشجر ويطحن هذا المستخرج الابيض بمطاحن شديدة القوى ، وأغلب مواد هذا الورق يستورد من وراء البحار على ظهور السفن خاصة ، ويلزم كذلك صناعة الصحف مئات من البراميل المملأ بحبر الطباعة لتجبير الاوعية المعدنية التي تغطي الاسطوانات المعدة للطباعة ، كما انها في حاجة الى آلات للطباعة وآلات لطي الورق وآلات لقطع عشرات آلاف من الصحف في الساعة

وتحتاج صناعة الصحف كذلك الى رأس مال عظيم لجمع الاخبار من جميع انحاء العالم ، ولدفع مرتبات هؤلاء الذين يرسلونها ، ولدفع نفقات الارسال ، كما تحتاج الى رأس مال كبير لدفع مرتبات هيئة التحرير وأجور العمال ولقضاء بعض المصالح في البلاد ، وتحتاج كذلك الى مقر كبير توزع منه الصحف المطبوعة على وجه السرعة ، كما انها تحتاج الى رتل من السيارات للتوزيع السريع ، لهذه الاسباب ولغيرها كان انتاج الصحف صناعة حقيقية .

والصحف الى جانب ناحية الاخبار والتعليق تنشر اعلانات المعلنين.

تكون هذه الناحية مقدارا كبيرا من دخل الصحف . أما ضرورة الحصول على هذا الدخل فمتأثرة بأكثر من سبب فان ثمن بيع الجريدة يعتمد على نوع توزيعها او بمعنى آخر يعتمد على درجة الثقافة والوعي والقوة الشرائية عند الجماهير . ولو أساءت هيئة التحرير الى القراء في أثناء أداء الواجب عليها للجماهير فقدت الجريدة حركة التوزيع ، ومن ثم لابد ان يتأثر بذلك دولاب العمل ، وربما لا ينسى كثير من الصحفيين ان ما يعتبرونه مهنة او فنا او حتى وزارة يتأثر وله صلة وثيقة ببيت المال .

وبرغم هذا كله فان الصحافة تحسب مهنة تعصم من الحاجة ويتمرن عليها كثيرون ، كما يتمرن الاطباء والمحامون على مهنتهم . والصحافة فن كذلك ، لان النجاح في الجريدة قد يعتمد على الطريقة التي تستعرض بها الاخبار والافكار . والصحافة بعد هذا كله وزارة وليس هناك صحفى يستحق هذا الاسم ، جدير بأن يؤثر في عقول القراء الا اذا كان يشعمر بالمسئولية الخلقية تجاه القراء .

ان كل الغابات المقطوعة لاستخراج ورق الصحف وكل الاطنان السوداء من الحبر الذى يحبر الاوعية المعدنية التى تضغط الكلمة المطبوعة على اسطوانات الورق المملوفة . وكل هذه الملايين من الخنبيات التى تصرف فى سبيل الاعلان تعتمد فى النهاية على دعاء الصحافة لعقل الجماهير ، هذه هى الصحافة الحق .

والفكرة التى تقول بأن عقل الجماهير سهل التأثر وسهل الخضوع الى أى لون من ألوان الدعاية فكرة خاطئة ، فان الراى العام او ما يتصوره الصحفيون بالراى العام يؤثر فيهم أنفسهم ، فذوق الجماهير يؤثر فى حركة التوزيع والتوزيع يعين قيمته ، ولهذا يعمل الصحفيون على اعطاء الجمهور (ما يريد) .

والصحفيون الذين يستطيعون التخمين بما يريد الجمهور هم (الأوز) الذى يبيض بيضا من الذهب لأصحاب الصحف اللهم الا اذا كانوا هم أنفسهم أصحاب الصحف .

ولكن ماذا يريد الجمهور ؟ انه كقاعدة عامة يريد العواطف ويكره ويمتنع سريعا عن شراء او بيع الصحف الكثيية . او بمعنى آخر الصحف التى لا تقدم الى قرائها شيئا طريفا فيه حماس وفيه حياة وفيه حوادث مثيرة ومخادئات خطيرة وافكار نيرة واخبار مسبوق اليها . ويمكن تعريف الاخبار بأنها ما هو حادث فى نطاق الحياة ، وهناك مثل يقول وقد يكون فيه بعض المجون (الرذيلة تكون اخبارا اما الفضيلة فلا تكون) وهذا المثل يثبت أن الفضيلة شىء عادى اما الرذيلة فشىء غير عادى وعندما لا تكون هنالك اخبار فى الجريدة وأشياء تخرج على المؤلف يعتقد القراء أن جريدتهم كئيبة ويتطلعون الى جريدة أكثر حياة ، ولهذا كان الأمر الأول فى الرواج الصحفى الا تكون الجريدة كئيبة ، والكتابة معناها فقد التوزيع ، وفقد التوزيع معناه فقد قوة الاعلان ، وفقد قوة الاعلان معناه فقد الدخل الذى يغطى ما بين ثمن البيع للجريدة وثمن الانتاج .

وأغلب الصحف في إنجلترا تباع الى متعهدي الصحف الذين يمونون الجماهير بالجراند بثمن أكثر قليلا ان نم يكن اقل في الواقع من تكاليف الورق الابيض الذي يستعملونه في الطباعة . فالصحافة الناجحة ينبغي اذن ان تحرز انتصارا يوميا على الكتابة ، ولكن افكار القراء عن الكتابة تختلف من فرد الى فرد ، فالطعام الذي يقدم الى الاوز لا يقدم الى غيره من الدواجن . وكل جريدة تحتاج الى وسائل كثيرة للتأثير في اذواق الجماهير فهي في حاجة الى مضحكات تهز الاشدق لنفر من الناس ، وفي حاجة الى جدييات لهؤلاء الذين يؤثرون الحد ، وفي حاجة الى شئون مالية وإلى رجال الاعمال والدائنين وفي حاجة الى رياضيات للرياضيين وإلى ادب على اختلاف درجاته للمثقفين ولكن هنالك قاعدة عامة تسبب الجودة .

ان القراء على اختلاف مشاربهم وتباين نزعاتهم يحبون ان تجلب اليهم الطرافة والمتعة والتسلية ، ويكرهون ان يقدم اليهم الزجر وتساق اليهم الموعظة ، ولا يتقبلون ان يعلموا او يلقنوا حيث لا توجد اية سلطة مدرسية في هذه العملية .

والواقع ان العلاقة بين الصحيفة والجمهور تجربة دائمة في دراسة نفسية الجمهور . ويعلم الصحفيون الماهرون المكان الاول الذي ترمقه عين القارئ والمكان الذي توضع فيه الاخبار الهامة والفروق بين حروف الطباعة التي توضع للعنوان والتي توضع للتعليق . والنصف الاعلى من الصفحة أحسن عند القراء وأكثر أهمية لأن القراء في العادة يركزون انظارهم جهة اليمين (في الجريدة الافرنجية التي يتحدث عنها وبكهم سنيد) ولهذا كانت الزاوية اليمنى من الصفحة أنسب مكان للاعلان . فالجزء الاعلى من العمود الأيمن من الصحيفة هو الجزء الذي يركز فيه القراء انظارهم في العادة اللهم الا اذا كانت العادة في توضيب الصفحة غير ذلك فعودتهم قراءة الاخبار الرئيسية اليومية عند طرف العمود الأيسر من الصفحة .

والقراء المعتادون على نوع معين من « التوضيب » يحتاجون الى احترام عاداتهم ، غير ان بعض الصحفيين الماهرين يغيرون (توضيب) صفحاتهم بين الحين والحين حتى يبعثوا روح التفير في القارئ ويبعدوا القارئ عن روح السأم والملل .

وينبغي ان تكيف الاخبار المهمة بجو خاص ان لم يكن هنالك اختلاف في عرضها فلا يشعر القراء بانهم محتاجون الى ان (يحفروا) ابتغاء الوصول اليها بدلا من ان تصل اليهم في فكرة واضحة واسلوب مناسب .

ان الكفاح في سبيل التوزيع والدخل من الاعلان يسيطر على شكل واسلوب كل جريدة تقريبا وانه كفاح قد يصل الى حدود غير ظاهرة ان لم يحتفظ بدائرته في اصحاب الصحف والصحفيين انفسهم .

وعلى العموم يمكن ان نقول : ان الجمهور يهتم قليلا بالوسائل التي تصل بها الاخبار والافكار الى الجريدة ، ولكنه يهتم كثيرا بان هذه الاخبار

او الافكار تناسب ذوقه كما انه يهجر الصحف التي تفتقد الاخبار او
تتاجر في نشرها او التي تشذ في بيان آرائها كما ان الجمهور لا يهتم
بان الجريدة اساس قوى قدر اهتمامه بشعوره الخاص .

ورئيس التحرير يحتاج الى قدر كبير من الشجاعة ليمحو تعصب
قرائه حين يعتقد انه على حق وان الحوادث سوف تثبت ذلك لان القراء
لا يحبون ان يظهر خطأهم امام اى صحفى يعتز براهيه .

وقد يثق اكثر القراء عقلا في حكم صحيفته ، ولكن كثيرا من القراء
قد يضايقه ذلك ، ومن الصعب على الجريدة ان ترتفع عن مستوى القراء ،
ولذلك كان من الصدق ان نقول : ان للامة الجريدة التي تستحقها . كما
نصدق ان نقول ايضا : ان الذوق العام للجمهور قد يتاثر بالصحف
التي تؤثر في الفرائز المنحطة للقارىء .

وبعض الصحف تعتمد لزيادة نسبة توزيعها على تقديم ميزات
للتامين لقرائها ، لان هذا يشجع الطبقات الفقيرة على شراء الجريدة ،
ولكن مثل هذه الاشياء ليست صحافة حقا ، وينبغى ان تحرم مثل هذه
الامور لمصلحة الجمهور فانها ليست الاصل لزيادة التوزيع ولا تمت الى
الصحافة بصلة

ويمكن ان نعتبر هذه المسألة في نظر الصحفيين انفسهم غشا او
نصف غش لانهم يدفعون القراء الى شراء الجريدة لا لاخبارها ، بل لما
تمنحه من سندات التامين ، وفي مثل هذه الاحوال يدفع المعلنون للنشر
ما لا يمكن ان يتسلموه في الواقع .

أمجاد العرب في صقلية

صقلية جزيرة رابضة في البحر الابيض المتوسط في جنوب إيطاليا ،
وهي على شكل مثلث تنساوي أضلاعه ، ولذلك اطلق عليه أقدماء
« انترينا كريبا » أي المثلث ، ويفصله بحرا عن فلوريا بإيطاليا مضيق
مسينا ولا يكاد يجاوز ثلاثة كيلومترات ، ويفصله عن تونس معبر صقلية
وعرضه مائة وعشرون كم ، وتبلغ مساحة الجزيرة كلها نحو ٢٥٤٦١ من
الكيلومترات المربعة

وقد وصلت أمجاد العرب الى هذه الجزيرة منذ قرون طويلة وظل
الحكم العربي بها من عام ٢١٧ هـ الى عام ٤٥٠ هـ أي نحو ٢٣٣ عاما .

وعند ما انقسمت الامبراطورية الرومانية قسمين - الامبراطورية
البيزنطية الشرقية ، والامبراطورية الرومانية الغربية - كانت صقلية
من نصيب الامبراطورية الأخيرة وأدركها ما أدركها من تدهور وانحطاط
وفشل واضطراب .

وكانت الدولة الاغلبية في ذلك الوقت قد مدت نفوذها على بلاد
المغرب ونشرت العمران في شتى أرجائها ، وبنيت المدارس والمعاهد
والمساجد في مدينة تونس وسوسة ، كما شيدت ، صهاريج المياه في
القيروان التي أحالت الصحراء المقفرة المجذبة الى جنة وارفة الظلال .

وكان أول الفيث عند ما جهز موسى بن نصير حملة لغزو الجزيرة ،
وسميت غزوة الاشراف بعد ما أنشأ بتونس دار صناعة صنعت له
السفن للقيام بهذا الغزو بيد أن موسى بن نصير لم يظل المقام في الجزيرة
وعاد بعد أن حصل على غنائم وافرة .

ولما تولى امر افريقيا - من قبل الخليفة الأموي هشام بن
عبد الملك - عبيد الله بن الحبحاب أراد أن يقتفى أثر القائد موسى بن
نصير ويعيد الغزو ، وفي هذه المرة تقابل أسطول الروم واسطول
المسلمين ، ودارت بين الفريقين معركة بحرية رهيبة أسر فيها الروم
القائد العربي عبد الرحمن بن زياد .

حينئذ صمم العرب على إعادة الكرة مهتما كلفهم ذلك من
التضحيات ، وقامت حملة بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع
بمصاحبة القائد عبد الله بن حبيب

ولم تطل اقامة هذه الحملة في جزيرة صقلية طويلا ، إذ سرعان
ما عادت على اثر اندلاع نيران الفتن في المغرب .

ولم تستقر الحالة بين العرب والدولة البيزنطية عقب ذلك انما
زادت القرصنة البيزنطية الرومية ، واشتدت هجمات قطاع الطرق

على السفن العربية مما أوغر صدر العرب حتى عولوا على وضع حد لهذه الاعتداءات المتكررة ، وكان عدد الأسرى العرب قد زاد في هذه الأونة في جزيرة صقلية زيادة كبيرة برغم الاتفاق الذي عقده زيادة الله الأغلبى مع حاكم الجزيرة على إرجاع أسرى المسلمين إلى البلاد الأفريقية .

وشجع العرب على القيام بحملة كبيرة استنجد الأمير «أوفيماس» الصقلى بالأمراء العرب ضد قسطنطين عامل امبراطور الروم في القسطنطينية الذى استبد بأهل الجزيرة استبداد عظيمًا ، وسام أهلها الخسف ، واذاقهم كئوس الهوان .

حينئذ لم يجد العرب مندوحة من ارسال حملة لتأديب ، ولقطع دابر الفتن المشتعلة في الجزيرة ، وتأمين حال العرب هناك . وترددت أسئلة كثيرة حول قائد الحملة المنتظر ، وأخيرا استقر الراى على أسد ابن الفرات وهو شيخ كبير من مواليد خراسان ، وتربية معاهد القيروان ، وكان أسد بن الفرات في ذلك الوقت في العقد السابع من عمره ، فعند ما ولاه زيادة الله اماره الجيش الغازى قال أسد : واما يامولاي ! أتعزلى عن القضاء لكى تولينى الامارة ؟ فقال زيادة الله : كلا ! بل اماره الجيش مع القضاء !

وكان القائد القاضى الشيخ يقول مفاخرًا : انا أسد والأسد خير الوحوش . وابن الفرات ، والفرات خير الماء ، وجدى سنان ، والسنان خير السلاح !

وقد سارت الحملة باسم الله مجريها ومرساها من مدينة «سوسة» يوم الأحد الموافق ١٤ من ربيع الأول عام ٢١٢ هـ ١١ من يونيو عام ٨٢٤ ووصلت الى مدينة مازرة بعد ثلاثة أيام من اقلاعها .

وخرج الرومانيون يحاولون رد الحملة على أعقابها ، والقضاء المسلمين في البحر ، بيد أن العرب صمدوا امام العاصفة الهوجاء ، وقال ابن أبى الفضل وكان حاضرا المعركة : «ورأيت أسد بن الفرات ويده اللواء وهو يزمزم فحملوا عليه ، وكانت فينا روعة ، فأقبل أسد على قراءة «يس» فلما فرغ منها قال للناس : هؤلاء عجم الساحل ، هؤلاء عبيدكم ، لا تهابوهم وحمل باللواء وحمل الناس معه فهزم الله جل وعلا «بلاطة قائد الروم» وأصحابه فلما انصرف أسد رأيت والله الدم وقد سال من قناة اللواء مع ذراعه حتى صار مع ابطله .»

ومعنى قول أسد بن الفرات هؤلاء عجم الساحل أى هؤلاء الذين هربوا امامكم من السواحل الأفريقية .

وبعد جهاد مرير دام ١٣ شهرا انتقل أسد الى رحمة الله ودفن بمقر استشهاده تحت أسوار سرقوسة ، فتولى مكانه محمد بن أبى الجوارى الذى حمل رسالة سلفه الصالح في توطيد انحكم العربى في ارجاء الجزيرة ، ثم فتح زهير بن عوف مدينه «بالرمو» وهى العاصمة بعد حصار عنيف ونضال طويل .

واتسعت فتوح العرب في جنوبى ايطاليا حتى بلغوا روما وارتج

عرش البابوية ، وبرغم انقضاء الحكم العربي عن صقلية عام ٤٥٠ هـ بعد أن دب الخلاف بين العرب وكثرت الفتن الداخلية فإن مظاهر الحياة العربية ظلت سائدة في الجزيرة قرونا طويلة ، بل لا تزال لغتهم تحمل بعض الألفاظ العربية حتى وقتنا هذا ومثال ذلك دار الصناعة التي أطلق عليها أهل الجزيرة Darcena ، والأمراس وهي الجبال وقد أطلق عليها أهل الجزيرة Amarra ، ورياح الموسم التي أطلق عليها أهل الجزيرة Mousseone وغير ذلك من مثلات الكلمات العربية التي دخلت إلى اللغة الإيطالية أو الفرنسية .

وقد أدخل العرب إلى الجزيرة زراعة القطن وقصب السكر والزيتون والفسق والبرتقال والليمون ويقول الرحالة ابن حوقل : أن حقول القمح والشعير كانت تبسط على أكثر أقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الأبريز .

كما أدخل العرب إلى الجزيرة صناعة الحرير ، وفي متحف « نورمبرغ » بألمانيا معطف من الحرير كان يرتديه ماوك صقلية وهو محاط بنسج من الكتابة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هـ ١١٢٣ م .

ولا تزال في الجزيرة حتى يومنا هذا آثار من قنوات الري والترع التي أنشأها المسلمون في شتى أنحاء لتسهيل المواصلات ، ونقل البضائع والسلع من مكان إلى مكان ، كما لا تزال القرية في صقلية تحمل الطابع العربي إلى الآن من اتساع وتنوع كما أن بها قصر العزيز الذي يطلق عليه الأهالي « لازيزا » وقصر القبة بجوار مدينة بالرمو ، أما كاتدرائية بالرمو فقد بنى المسلمون قسمها الشرقي والأوسط .

وحكم جزيرة صقلية في العهد النورماندي عدد من الملوك الذين يحبون العرب ، نذكر منهم الملك غايوم والملك روجر الثاني الذي وصفه ابن الأثير بقوله : « سلك طريق ملوك المسلمين من الخبائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك ، وخالف عادة الفرنج ، فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك ، وجعل له ديوان المظالم يرفع إليه شكوى المظلومين ، فينصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فأحبوه » .

وقد زاره الرحالة العربي الشريف الإدريسي في مقر حكمه فرحب به ترحيبا عظيما ، وأعجب بعلمه وخبرته حتى أنه كان ينهض من مجلسه لتوديعه - وقد صنع الإدريسي للملك روجر الثاني كرة أرضية وزنها ١٨٠٠ أوقية وقسم الدنيا المعروفة اذ ذلك سبعة أقاليم متوازية يبتدىء الاقليم الأول عند خط الاستواء تقريبا ، وينتهي الاقليم السابع عند المتجمد الشمالي الذي يدعو به بحر الظلمات .

ويقول المسيو لوريش في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى عن الكتاب الذي وضعه الإدريسي بعنوان نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : « هو أكمل كتاب جغرافي تركه لنا العرب ، وإن ما دققه الإدريسي من

تحديد المسافات ، وما حققه من دقائق الوصف يجعل من هذا الكتاب وثيقة نفيسة لعلم الجغرافيا في مستهل القرون الوسطى .

وقد قام الصقليون بنهضة ثقافية واسعة في الفكر العربي ، وأخرجوا مؤلفات كثيرة في شتى المعارف الانسانية نذكر منها كتاب الاشتراك اللغوي والاستنباط المعنوي - وينبوع الحياة في التفسير ، واعلام النبوة لابن ظفر المتوفى عام ٥٦٨ هـ ، كما ظهر كتاب الافعال وتصاريها للشيخ ابي انقاسم بن القطاع المتوفى عام ٥١٥ هـ ، وكتاب تاريخ صقلية ، والشافي في علم القوافي ، والملح العصرية ، وطبقات الشعراء للمؤلف الانف الذكر ، كما ظهر كتاب المختار في النظم والنثر لافاضل اهل العصر لابن بشر بن الصقلي .

وكذلك ظهر منهم علماء نذكر منهم ابا الحسن أحمد بن الحسن الكيلي ، وعمر بن خلف بن مكى ، وطاهر بن عمر بن الرقباني وغيرهم من العلماء .

وظهر من الصقليين شعراء بارعون نذكر منهم عمار بن المنصور الكيلي ، وعبد الرحمن بن ابي العباس ، وابن حمديس .

وكان هذا الشاعر الاخير من اشهر شعراء صقلية الذين ترنموا بمجد العرب فيها ، وارساوا الزفرات الحارة من اجله ، واستحث المسلمين وخاصة امراءهم على الاخذ بيدها واستخلاصها من براثن المعتدين الفاصيين .

وقد عاش عبد الجبار بن حمديس حتى بلغ الثمانين من عمره واصبح يقول :

اسلمنى الدهر للرزايا وغير الحادنان نفسى
وكنت امشى ولست اعيبا فصرت اعيبا ولست امشى
كاننى اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش

وقد سأل بعض الأدباء عن تشبيهه نفسه بالنسر فقال : ليس في الحيوان من يطعمه ولده اذا هرم الا النسر

ومن قوله في عصاه اننى يتوكأ عليها لكبره :

كانها وهى فى كفى اهش بها على الثمانين عاما لا على غنمى
كاننى قوس رام وهى لى وتر ارمى عليها زمان الشيب والهزم

وقد لاقى ربه عام ٥٢٧ هـ فتحطم الوتر الحزين والموج يرتطم بصخور جزيرة صقلية فى قوة وعنف

ملك صقلية يستقبل عالما عربيا

جلس الملك في قصره وحوله الامراء والوزراء يلتفون حوله من كل جانب وكان الملك يتنقل في الحديث من موضوع الى موضوع :

فتارة يتحدث في العلم وتارة يتعرض للفلك وحينما يعرج على الفلسفة ومرة يعرض للفن ، فقد كان مولعا بمجالسة العلماء ومحادثة الفقهاء وكان يجلس امامهم في هدوء ، كما يجلس الطلاب المجتهد امام استاذه او المؤمن المتبتل امام واعظه ، وكان يعتبر اليوم الذي لا يلتقى فيه بالعلماء يوما لاطائل تحته ولا غناء فيه ولا فائدة منه فلا خير في يوم من غير علم ، ولا خير في ساعة يقضيها من غير فائدة فتذهب كالهشيم تذروه الرياح او كاوراق الخريف في الفضاء

تلك كانت حياة روجر الثاني ملك صقلية في القرن الثاني عشر الميلادي الذي كان يحكم هذه الجزيرة في هذه الآونة ، فنشر فيها العلم والمعرفة ، وكان ينظر الى السماء فيتمنى ان يعرف اسرار نجومها ومدارات كواكبها ، وكان يخرج للصيد في بقاع الجزيرة فيصيد بعض الحيوانات ، ولكن هذه الحيوانات التي يصيدها تثير في نفسه افكارا شتى وخواطر متنوعة ، فهو يتمنى ان يعرف شيئا عن حيوانات البلاد الاخرى ، بل انه يريد ان يعرف شيئا عن اهل البلاد الاخرى ، وكان يقف على شاطئ البحر والموج يرتطم بالصخور تحت قدميه ، ويتسائل الزبد كالقطن المندوف حوله ، فيفكر ويظيل التفكير ويقدر ويظيل التقدير ويتمنى ان يعرف تلك البقاع التي تجثم وراء هذا البحر الخضم ، ولكن كيف يتاح له السفر ولديه ماله من مشاغل الملك وعنده ما عنده من اعباء الحكم .

ويهبط الليل فيجلس الملك مع علمائه يتحدث في امر هذه الدنيا العجيبة ويتمنى ان يهب الله له من العمر ومن فراغ البال وسعة الوقت مايسمح له بعمل هذه السفرة الطويلة واجتياز هذه الشقة البعيدة .

وفجأة ترامت الى القصر انباء وصول عالم عربي وجواب آفاق طالما قطع البيد والغفار وركب متن البحار وعبر السهول والانهار وهو العالم العربي الادريسي .

قال سمير الملك للملك : ان عالما عربيا قد وطئت قدماه ارض صقلية ولعل مولاي يجد عنده متعة في الاجتماع به والتحدث اليه ، فقال الملك : هذا من غير شك ماكنت اطمح فيه منذ زمن بعيد ، لقد علمت انه طاف بشتى الاقطار والامصار وعرف اوصاف البلاد والممالك وقاس ابعادها بالميل والفرسخ

وذهب المنادي لينادي الادريسي ليمثل بين يدي روجر الثاني ،

وعلت وجه الادريسي مسحة من الدهشة وقال متعجبا : احقا يطالبني الملك ؟ فاكد له الرسول انه المعنى وهو المراد ، وحينئذ تاهب الادريسي للذهاب الى قصر الملك روجر الثاني ، ومضى حتى بلغ القصر ووقف عند بابه مدهوشا امام روعة البناء وفخامة القصر ، ودلف مع حارس الى انقصر في بالرمون ، وما ان دخل البهو الملكي حتى سمع صوت الملك روجر يتردد في قاعة الاستقبال فتملكته الرهبة ، واخذته الدهشة مرة اخرى ، ولكنه تمالك نفسه ، واخذ يحث خطاه حتى وصل الى الملك ، فهش الملك لمقدمه ، وبش في وجهه ، والفريب ان الملك كان يتكلم العربية لولا بعض الرطانة التي تشوب كلماته

جلس الادريسي في حضرة الملك وكان الملك يتبعه نظراته ويتربص كلماته ، والادريسي لا يفتأ يصف البلاد التي زارها والبحار التي اجتازها ويقسم الارض سبعة اقاليم او مناطق ، ثم يقسم كلا من هذه الاقاليم او المناطق احد عشر قطرا ، والفريب انه اخذ يقول كلاما عن كروية الارض والجاذبية في القرن الثاني عشر قبل ان يتنبه احد سواه اليه وقبل ان يجيء كابرنيك وكوبلر ونيوتن وغيرهم من علماء الطبيعة والجاذبية فقال :

ان الارض مدورة كتدوير الماء والماء لاحق بها وراقده عليها رقودا طبيعيا لا يفارقها ، والارض والماء مستقران في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة ووضعهما موضع متوسط والنسيم محيط بهما من جميع جهاتهما ، وهو جاذب لهما الى جهة الفلك او دافع لهما والله اعلم بحقيقة ذلك

وعندئذ سأل الملك : وكيف يكون موضع الارض اذن من الفلك ، فقال : ان الارض مستقرة في جوف الفلك وذلك لشدة سرعة حركة الفلك وجميع المخلوقات على ظهرها والنسيم جاذب لما في ابدانهم من الخفة والارض جاذبة لما في ابدانهم من الثقل بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الاشياء اليه .

وليس من شك في ان الادريسي في هذا الحديث كان قد سبق نيوتن الذي ظهر في حوالي النصف الاول من القرن السابع عشر ومات في حوالي الربع الاول من القرن الثامن عشر في معرفة الجاذبية والدلالة عليها وهذا مما يشرف العرب ، ويرفع قدر العلوم العربية بين العالمين وطفق الملك يسأله عن البلاد التي زارها ، فكان مما تحدث عنه انجلترا وفرنسا وغيرهما من بلدان اوربا وآسيا مما دهش له الملك دهشة عجيبة .

وعندما جاء الحديث عن مصر طلب منه الملك بعض التفصيل في الحديث وطلب منه ان يعرف شيئا عن نهرا الخالد وكان مما قاله الادريسي للملك : ان عرض النيل في بلاد النوبة ميل واحد ، وعرضه في قبالة مصر ثلث ميل كما ان في بعض اجزاء النيل الحيوان المسمى بالتمساح ، وفيها ايضا الحوت المسمى بالخنزير وهو ذو خرطوم اكبر من الجاموس يخرج الى الجهات المجاورة الى النيل فيأكل بها الزرع ، فيرجع الى الماء وفي النيل المذكور سمكة مدورة حمراء الذنب يقال لها

« اللاش » لا تظهر به الا ندرة وهي كثيرة اللحم طيبة الطعم ، وفيه أيضا سمك يسمى « الأبرميس » وهو حوت أبيض مدور أحمر الذنب ويقال : انه ملك السمك وهو طيب الطعم لذيذ يؤكل طريا مملحا

فاشتدت دهشة الملك من هذه المعرفة الواسعة وكان خبيرا بما في البحار لموقع الجزيرة التي تحفها المياه من كل جهة وطلب منه ان يقدم له عملا يذكره به فوعده الادريسي بتحقيق طلبه وقال له الملك : اننى اريد شيئا جديدا لقد اتسعت أعمال مملكتى ، واحب ان اعرف كيفيات بلادى حقيقة وان اقتلها يقينا وخبرة وان اعلم حدودها ومساكنها برا وبحرا وفي اى اقليم هي مع معرفة غيرها من البلاد والاقطار ، وقد احضرت الكتب المؤلفة في هذا الفن مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب ابي نصر سعيد انجيهانى ، وكتاب الكيمياء ، وكتاب ابي القاسم عبيد بن خرداذبة ، وكتاب احمد بن عمر العذرى وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب ارسيبوس الانطاكى ، وكتاب بطليموس التالوذى فلم اجد في هذه الكتب جميعا ذلك مشروحا مستوعبا مفصلا ، فطالبت العارفين بهذا الشأن ، ولكنى لم اجد عندهم اكثر مما في الكتب المذكورة .

ولم يكذب الملك هذه العبارة حتى طمأنه الادريسي وطلب منه ان ينتظر عدة ايام ، وهم ان يودعه ويطلب الاذن منه بالخروج ، ولكن الملك نهض من اريكته وضغط على يده وربت على كتفه وخرج بنفسه يودعه عند باب القصر مما لم يحدث في تاريخ العلماء .

وتوالت زيارة الادريسي لقصر روجر الثانى ، فما كان الملك يسمع بمقدمه حتى ينهض عند الباب لاستقباله، ويجلسه الى جانب سرير الملك فاذا ما اتم المحاضرات معه وافاد ما اراد ثم هم بالخروج ودعه الملك بنفسه الى عتبة القصر .

ولم تمض ايام حتى صنع الادريسي للملك كرة ارضية ليشرح عليها دروسه ، وكانت كرة عظيمة الجرم ضخمة الحجم في وزن اربعمائة رطل رومى في كل رطل منها مائة واثنان عشر درهما وتضم صور الاقاليم ببلادها واقطارها ومدنها وريفها وخلجانها ومجارى مياهها ومواقع انهارها وعامرها وغامرها والطرق والاميال والمسافات والمشاهدة وكتب عليها بأحرف عربية كل ما كان يعرفه من البلدان المختلفة، وكانت مصنوعة من الفضة الخالصة .

وقد سر الملك سرورا عظيما بهذه الهدية العلمية الثمينة وشكر الادريسي شكرا جزيلا على فضله وحرصه على توحى الحقائق العلمية حتى اذا ما انتهى المجلس خرج الملك يودعه بنفسه عند الباب والادريسي مزهوا بهذا الفخر العظيم .

وتشاء الايام ان تفقد هذه الكرة بعد ذلك ولولا فقدتها لواد فهم المؤرخين لقيمة المعارف الجغرافية في القرن الثانى عشر الميلادى زيادة عظيمة .

تم الكتاب

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٥	حديث في الشتاء بين الشرق والغرب
٩	الخريف في الأدب الانجليزي
١٤	الصيف في الأدب الانجليزي
١٧	الربيع في الأدب الانجليزي
٢١	بين الربيع والخريف
٢٤	المسرح المصري والمسرح الانجليزي يلتقيان في حركات تطورهما
٢٦	كشف مسرحي عظيم عن المسرح في الشرق
٢٨	امير الشعراء الانجليزي في الأدب العربي الحديث
٣٣	امارة الشعر بين شوقي ودريدن
٣٥	بين لورد بيرون وعمر بن ابي ربيعة
٣٩	الليل بين الشرق والغرب
٤٠	الليل في العصر الاسلامي
٤١	شعراء الحرب
٤٢	الليل في العصر الحديث
٤٦	<u>البحر بين الشرق والغرب</u>
٥٥	خليل مطران والفريد دي موسيه
٥٨	القمر في الأدبين العربي والغربي
٦٤	<u>الموت في الأدبين العربي والغربي</u>
٧٢	لغة الزهور بين الشرق والغرب
٨٠	حديث في القصة بين الشرق والغرب

الصفحة	الموضوع
٨٥	لفتنا امننا الكبرى ووسيلتنا الى نهضة الشرق ..
٩٠	الأدب العربي ادب عالمي
٩٢	المذهب الرومانسي في الشعر العربي
٩٤	كنوز بين المعرفة في آداب الشعوب الآسيوية والافريقية ..
٩٨	احلام البحيرة بين الشرق والغرب
١٠٢	فلسفة الألوان في الغرب
١٠٤	عالم غربي يضع الوسائل الى السعادة
١٠٦	كاتب غربي وزوجته ماهرة
١١٠	حضارة الغرب في العالم الجديد
١١٣	من عجائب العلم والاختراع في الغرب
١٢٠	قصة كفاح الفريد كروب ملك الفولاذ
١٢٣	الموسيقى تفزو مصانع العمال في الغرب
١٢٥	الروس يستفيثون بالموسيقى
١٢٨	الضمان الاجتماعي والتأمينات الاجتماعية بين الشرق والغرب
١٣١	كاتب غربي داخل افريقية
١٣٥	سندباد بحري جديد حول افريقية
١٣٦	دراسة علم البحار
١٣٩	حديث في الصحافة لعالم عربي
١٤٧	امجاد العرب في صقلية
١٥١	ملك صقلية يستقبل عالما عربيا

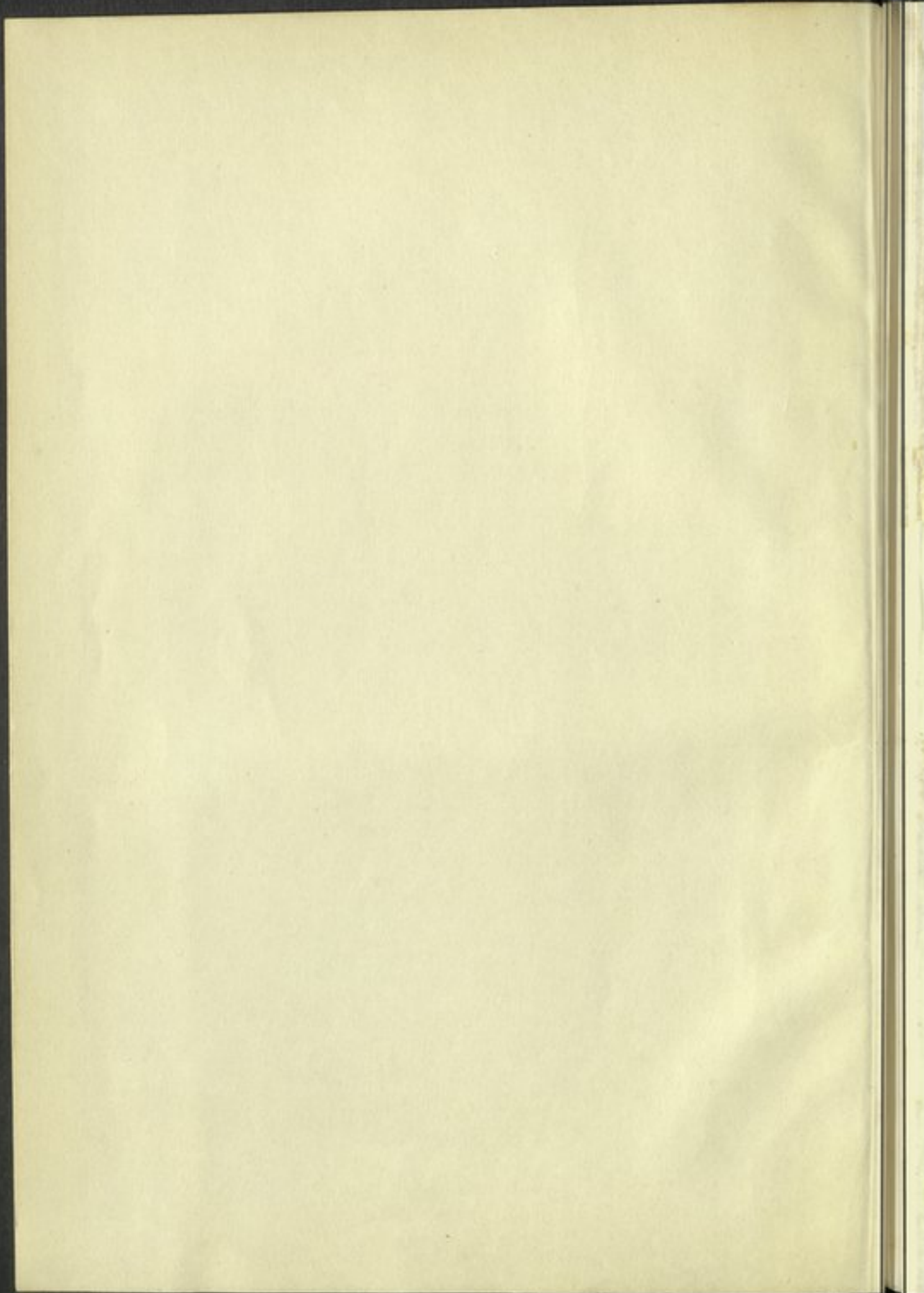
٥٨
٥٩
٦٠
٦١
٦٢
٦٣
٦٤
٦٥
٦٦
٦٧
٦٨
٦٩
٧٠
٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
٨٦
٨٧
٨٨
٨٩
٩٠
٩١
٩٢
٩٣
٩٤
٩٥
٩٦
٩٧
٩٨
٩٩
١٠٠

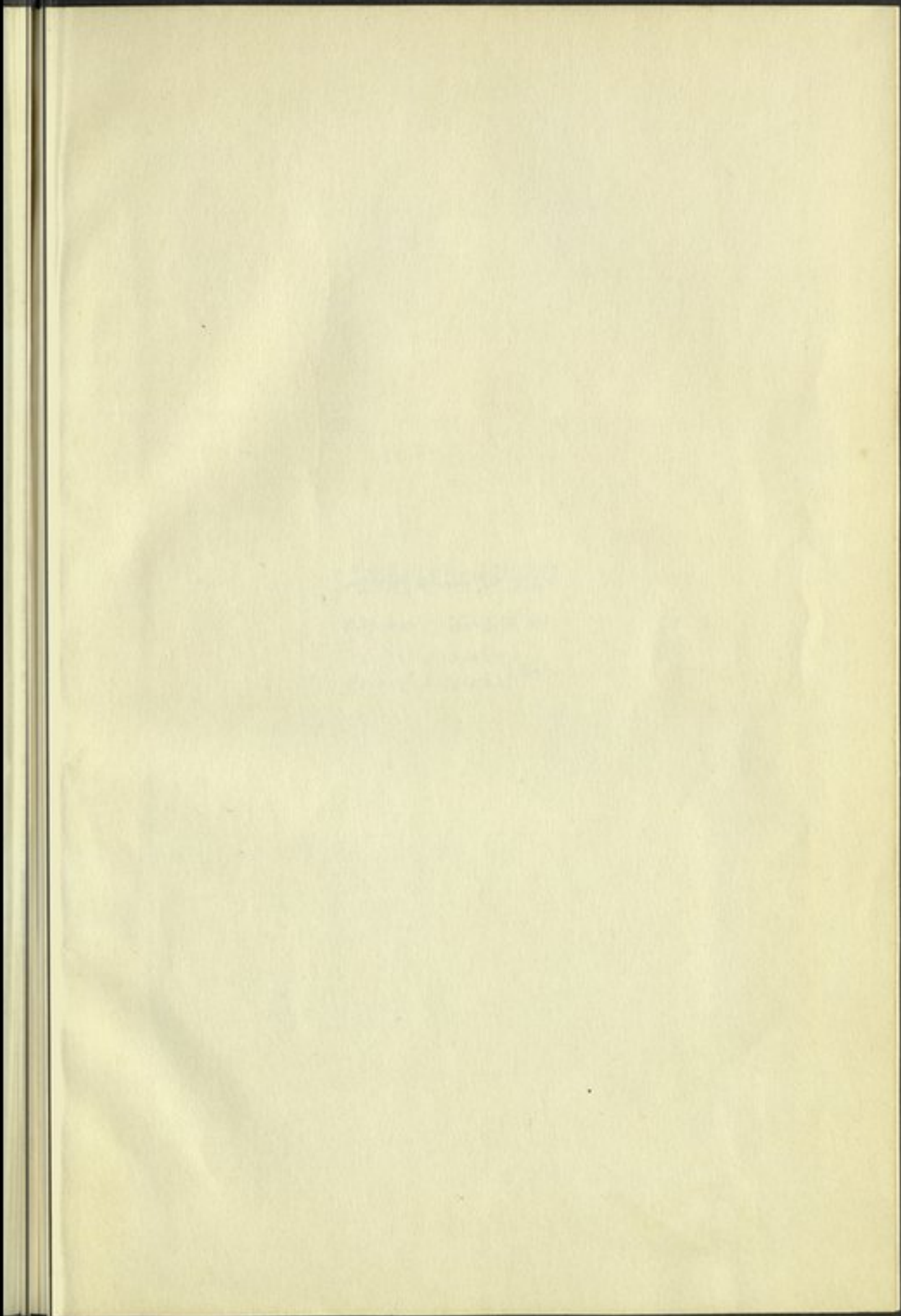
الدار القومية للطباعة والنشر

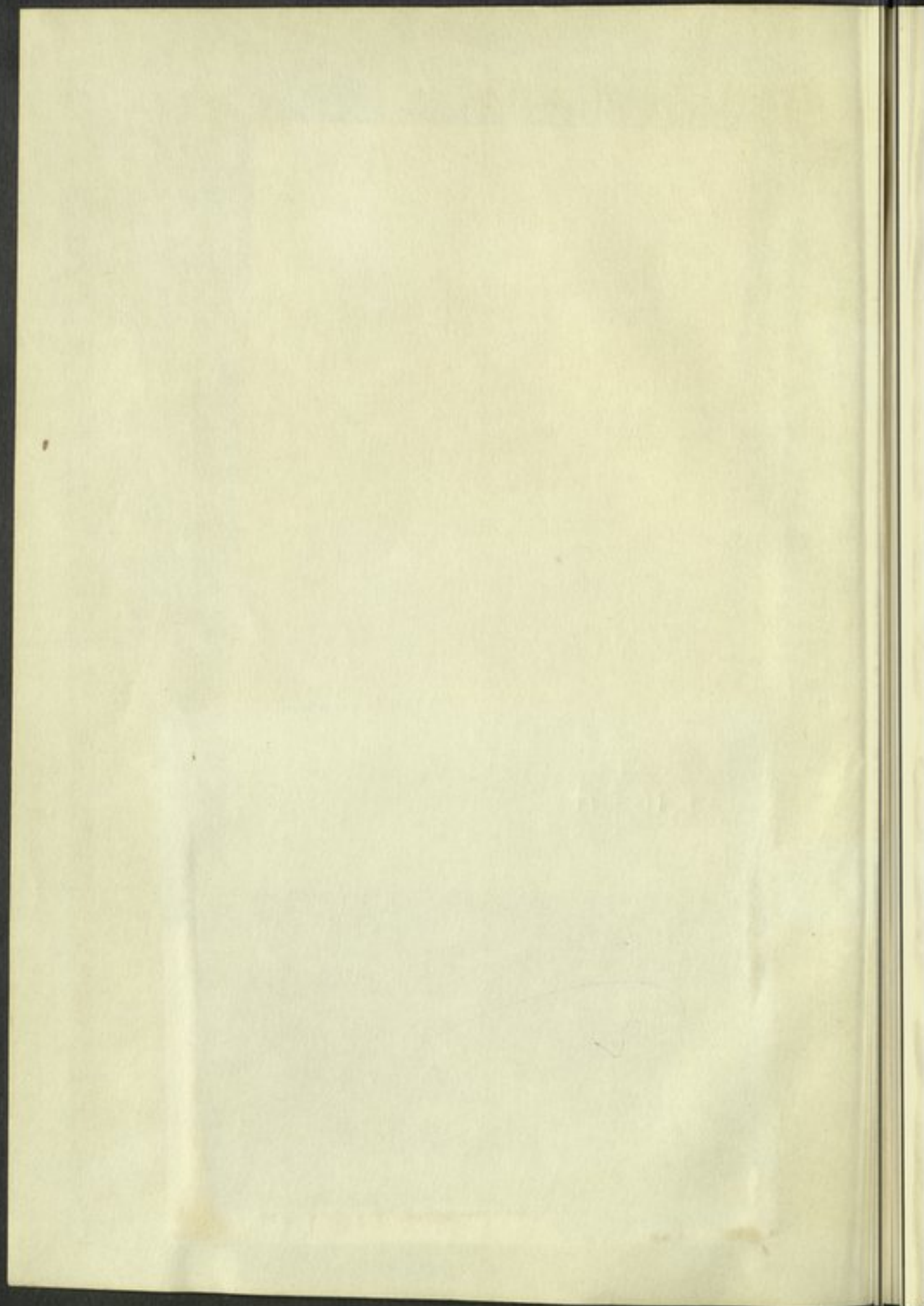
١٥٧ شارع صبيح روض الفرس

٤١٠١٤ / ٤٠٧٥٣
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨

١٠١
١٠٢
١٠٣
١٠٤
١٠٥
١٠٦
١٠٧
١٠٨
١٠٩
١١٠
١١١
١١٢
١١٣
١١٤
١١٥
١١٦
١١٧
١١٨
١١٩
١٢٠
١٢١
١٢٢
١٢٣
١٢٤
١٢٥
١٢٦
١٢٧
١٢٨
١٢٩
١٣٠
١٣١
١٣٢
١٣٣
١٣٤
١٣٥
١٣٦
١٣٧
١٣٨
١٣٩
١٤٠
١٤١
١٤٢
١٤٣
١٤٤
١٤٥
١٤٦
١٤٧
١٤٨
١٤٩
١٥٠
١٥١
١٥٢
١٥٣
١٥٤
١٥٥
١٥٦
١٥٧
١٥٨
١٥٩
١٦٠
١٦١
١٦٢
١٦٣
١٦٤
١٦٥
١٦٦
١٦٧
١٦٨
١٦٩
١٧٠
١٧١
١٧٢
١٧٣
١٧٤
١٧٥
١٧٦
١٧٧
١٧٨
١٧٩
١٨٠
١٨١
١٨٢
١٨٣
١٨٤
١٨٥
١٨٦
١٨٧
١٨٨
١٨٩
١٩٠
١٩١
١٩٢
١٩٣
١٩٤
١٩٥
١٩٦
١٩٧
١٩٨
١٩٩
٢٠٠







DATE DUE

64
30 JUN 2000
Circulation Dept. 1

LA FET LIT
19 JAN 2008
Circulation Dept. 5

809:R161A:c.1

الرمادي، جمال الدين
فصول مقارنة بين ادبي الشرق والغرب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030571



809
R162fA
c.1